غزو
المغول لروسيا

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

دكتور: اسامة ابراهيم حسيب
اشراف: ا.د. زبيدة محمد عطا



الغزو المغولي لروسيا
١٢٢٢ – ١٢٤٠م

تأليف
الدكتور / أسامة إبراهيم حسيب
كلية الآداب – جامعة سوهاج

الطبعة الأولي
٢٠٠٨

الغزو المغولي لروسيا
١٢٢٢ – ١٢٤٠م

تأليف

الدكتور / أسامة إبراهيم حسيب
كلية الآداب – جامعة سوهاج

الناشر
المكتب العربي للمعارف

اسم الكتاب : الغزو المغولي لروسيا
اسم المؤلف : أسامة إبراهيم حسيب
تصميم الغلاف: ماستر أدفيرتايزنج

الناشر
المكتب العربي للمعارف
١٠ شارع الفريق محمد رشاد حسن -
خلف عمر أفندي -ميدان الحجاز -
مصر الجديدة - القاهرة
تلفون/ فاكس: ٢٦٢٣٧١٧٣
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٥٠٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-276-540-3

مقدمة

المغول من الشعوب التي لعبت دورًا هاما في التاريخ ومن الغزاة الذين روعوا وسط أسيا والشرق الأدنى وشرق أوروبا في العصور الوسطي·

ولقد نشأ المغول في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وهي صحراء فقراء مناخها قاري·

وتكونت قبائل التتار من تسع وثلاثين قبيلة، واتخذ المغول اسم التتار خاصة في فتره الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي، فعرفوا بالتتار في الصين والعالم الإسلامي وفي روسيا وغرب أوروبا بعد أن أطلق هذا الاسم على أسلاف جنكيز خان في زمن يسبق الفتوحات المغولية، بينما صار اسم المغول يُطلق على الشعوب التي خضعت لجنكيز خان بعد قهرها·

واستطاع القائد تيموجين الذي عرف فيما بعد بجنكيز خان أحد قادة هذه القبائل الرعوية بما وهبته حياة الصحراء من قسوة وفراسة أن يوحد قبائل أقاليم أسيا الشرقية شمال بلاد الصين تحت لوائه مستعينًا بقبيلة ضد أخرى، ومتحالفًا مع القوى ضد الضعيف حتى اختير ملكًا سنه ١٢٠٦م تحت اسم جنكيز خان، وبدأ يوجه أنظاره إلى المناطق الخارجة عن نطاق المغول مستغلاً عوامل الضعف والانحلال التي كانت عليهما الأقاليم الخصبة الغنية المجاورة له، استطاع القضاء على دوله الخطأ المجاورة له·

وفي الفترة مـــن عام ١٢١١م حتى ١٢١٥م أخضع مملكه بكين الصينية واستولي على عاصمتهم بكين، واستفاد من ثروات وكنوز وأسرى هذه البلاد في الفتوحات التالية، واستطاع القضاء على الدولة الخوارزمية في عام ١٢١٩–١٢٢٣م معتقدين أن زعيمهم مفوض من السماء لحكم العالم شرقه وغربه، فقد ترك البلاد الإسلامية أشبه ما

تكون بصحراء موحشة، فأباد سكانها، وخرب مدنها وألقى الرعب والفزع في أرجائها وتماشيًا مع سياسة الغزو والتوسع التي بدأها جنكيز خان، كانت أوروبا هي المحطة التالية للقارة، ففي سنه ١٢٢٣م اقتحمت جيوش المغول روسيا، وسحقت الجيوش الروسية التركمانية المتحالفة على نهر كالكا سنه ١٢٢٣م، ثم توقف الغزاة فجأة من حين أتو.

وباعتلاء أوكتاي عرش الإمبراطورية المغولية سنه ١٢٢٩م بدأت التوسعات المغولية بشكل كبير على حساب القوى الإسلامية والمسيحية، فأرسلت جيوشها ضد كوريا التي تمردت على المغول سنه ١٢٣١م، وضد مملكه سونج في جنوب الصين، وضد العراق وسوريا، ومنطقه بحر قزوين وسلاجقه أسيا الصغرى، ومملكه أرمنيا الصغرى، وضد روسيا والغرب الأوروبي.

وفي الفترة من سنة ١٢٣٦ حتى سنة ١٢٤٠ اجتاح المغول كل الإمارات الروسية وأحرقوا ودمروا عدة مدن هامة مثل ريازان سنة ١٢٣٧م، وموسكو سنة ١٢٣٨م، وفلاديمير وكوزلسك وسوزدال ودميتروف ونوفوجارد ومدينه كييف الحصينة في سنة ١٢٤٠م.

ويرجع سبب سرعة استيلاء المغول على هذه الإمارات الروسية إلى تفكك الإمارات وقوه المغول الحربية التي كان لها الدور الحاسم في تحقيق الانتصارات بهذه السرعة.

ولما كانت الإستراتيجية الثابتة لجنكيز خان وخلفائه من الخانات العظام هي إخضاع العالم بأسره للحكم المغولي، فإنه بعد الانتهاء من روسيا، أصبح الطريق مفتوحًا إلى بولندا غربًا، واستطاعت الاستيلاء على مدينه كار كاو في سنه ١٢٤٠م.

وفي سنة ١٢٤١م حصدت القوات المغولية زهره شباب أوروبا من البولنديين والتيوتونيين والمورافيين السلبيزيين في معركة ليجنتز، ثم اتجه المغول جنوبًا إلى المجر، وأنزلوا بالمجريين هزيمة ساحقه عند موهي، وكانت مذبحه مروعه للقوات المجرية قتل وأُسر فيها نحو

خمس وستون ألفًا. وانسحب المغول فجأة في سنه ١٢٤٢م من أوروبا. وربما يرجع المؤرخين سبب انسحابهم إلى وفاة الخان أوكتاي، والعودة بجيوشهم إلى قراقورام.

أمَّا عن موقف الغرب الأوروبي من هذه الأحداث، فقد كان غير موحد، فكل ملك أو أمير فضل أن يقابل المغول منفردًا فكانت هزيمتهم في أرض الميدان ساحقه، ولو توحد الشرق الإسلامي والغرب المسيحي لقضوا على هذه الشعوب البربرية، وان كانت هناك أمثلة كثيرة على عدم التوحد: عندما أرسل الإسماعيلية إلى الغرب الأوروبي كانت ردهم عند أسقف ونشيستر الذي قال: "دعنا نترك هذه الكلاب تفترس بعضها" وفي أوروبا نفسها عند غزو المغول لروسيا لم يتحرك الأوربيون لأن مذهبهم أرثوذكسي وباقي الغرب كاثوليك، حتى أن قبائل السويديين والفرسان التيوتون حين وجدوا انشغال روسيا بالغزو أغاروا على ممتلكات الروس من الشمال والشرق.

أما عن البابوية فلم يكن يشغلهم في ذلك الوقت سوى تدمير الإمبراطور فردريك، ولم يهتموا بالدفاع عن العالم المسيحي، ودعا البابا لحملة صليبية ليست ضد المغول ولكن ضد الإمبراطور، ورد الإمبراطور عليه بحصار البابا وأتباعه في روما، وحاولت البابوية جاهدة إنشاء حلف صليبي مغولي للزحف على المسلمين، وعلى هذا الأساس بدأت الاتصالات بين أوروبا الغربية والخانات العظام في قراقورام لإبعاد الخطر المغولي عن مسيحي أوروبا والكنسية الغربية، وأرسل الملك لويس التاسع ملك فرنسا إلى الخانات العظام لتوطيد العلاقات معهم للاتفاق على القيام بعمل مشترك ضد المسلمين.

واسأل الله أن يوفقني إلى حسن عرض الموضوع، وأن أكون قد وفقت فيما قصدت. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

دكتور
أسامة إبراهيم حسيب إبراهيم
ديرب نجم – شرقية

الفصل الأول

أحوال المغول وروسيا قبل الغزو

من هم التتار والمغول :

الحقيقة أن اسم الشعب هو رمز له، ومن ثم فإن تحديد الاسم الحقيقي يعد من أهم القضايا المعاصرة.

أما الاسم الدخيل على الشعب أو المنسوب إليه دون إرادته فيؤدي إلى تشويه الحقائق التاريخية، ونجد هذا بوضوح في تاريخ اسم "التتار" إذ أن الخلط بين الشعب الذي يحمل هذا الاسم اليوم وبين "التتار" بدأ يعطي ثمار مريرة، وأدت محاولات بعض الكتاب والمؤرخين لعرض الإمبراطورية الذهبية في صور مثاليه(١).

والتتار أو التتر أو التاتار شعب عاش في الجنوب الشرقي من بحيرة بايكال، وامتدت منازلهم حتى نهر كارولين فهم جيران المغول، وحول هؤلاء وهؤلاء عاشت قبائل بدوية تحت أسماء عديدة، بعضها تركي وبعضها مغولي، وإلى الجنوب كان الصينيون يعيشون حياة المدينة المستقرة منذ العصور القديمة(٢).

وقد انقسم العلماء في تحديد أصول التتار إلى فرق ثلاث: الفريق الأول ينسبهم إلى تتار مدينة قاذان وهم هؤلاء المغول -التتار الذين قاموا بغزو روسيا وبلاد أوروبا الشرقية في القرن الثالث عشر- ويذهب الفريق الثاني إلى أن التتار الذين نراهم اليوم ليسوا سوى خليط من القبائل التركية في وسط نهر الفولجا وغزاه المغول، وأخيرا

---

(١) إيرار كريم الله : من هم التتار، ترجمة رشيدة الصبروتي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٢٦.

(٢) السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص٣٣ ــ ٣٥.

يؤكد الفريق الثالث على أن التتار هم سلالة البولجار الذين اكتسبوا من المغول مجرد اسم "التتار"(١).

واسم التتار بجذوره اللغوية قد استرعى انتباه الكثير من العلماء، ونجد تفسيرات مختلفة لهذا الاسم، فهناك من يري أنه مشتق من "تات" بمعنى الجبل و"آر" بمعنى الساكن أي: سكان الجبل، حيث كلمة "آر" في الفارسية الأصل بمعني الإنسان، ولكن "إير" تركية بمعني الإنسان، وهنا يبدوان اسم التتار يعود بجذوره إلى اللغة التركية، في حين نجد كلمة "ترتر" في الأساطير الإغريقية تعني عالم الغيب أو الجحيم، في حين عرفت شعوب أوروبا اسم التتار بمعني ترتر، وكان في مفهومهم قومًا يجلب الأهوال والموت والعذاب ويأتي بيوم القيامة ونهاية العالم(٢).

---

(١) البولجار: اختلف العلماء والمؤرخون في تحديد أصولهم، فيري بعضهم أن أصولهم تركية ويرى البعض الآخر أن أصولهم هونية، أي تنحدر من قبائل الهن وهذا يعني أن أصولهم تركية أيضا، وهناك من يري أن البولجار يستمدون أصولهم من السلاف.

ويشير المؤرخ الروسي سيروتينكوه –Sirotenko– أن بعض الكتاب يتخذون من المخطوط "أيام ميلاد حكام البولجار" دليلا لادعائهم، ويرى العالم سير نوف –Smirnov– أن البولجار هم أهل البلاد الأصليون الذين يستمدون أصولهم من قبائل صرمات تفرعت من قبائل صرمات والآن، والذين تعرضوا للتأثير التركي في بداية الألف الأول الميلادي ، ويشاركه الرأي سيروتينكو الذي يري أن البولجار القدامى قبائل تفرعت من قبائل صرمات وآلان، وكانت تسكن شمال القوقاز وهي منطقة تمتد بين نهري الفولجا والدون قبل الزحف الهوني.

وقد تعرض البولجار في رأيه للتتريك عـقب هجره القبائل التركية إلى هـذه المناطق منذ القرن الثاني الميلادي.

انظر في ذلك :

- إيرار كريم الله : المرجع السابق، ص٣١.

(٢) إيرار كريم الله : المرجع السابق، ص٢٥.

ويرى الكثيرون أن اسم التتار مشتق من اللغة الصينية، إذ كانت هناك قبيلة مغولية يطلق عليها اسم "تاتا" أو "دادا" أو "تاتان" تسكن منطقة مانجوريا شمال شرقي منغوليا في القرن الخامس الميلادي.

وكانت بعض الهجمات الصينية التي يتوفر فيها صوت(ر) تطلق على "ترتار" أو "تتار"، وقد تميزت تلك القبيلة بروح قتالية عالية، مما جعلها تهدد القبائل المغولية المجاورة أو القريبة منها، وكانت غارات قبائل "تاتا" تجلب للصينيين الأقوياء كثيرًا من التعب والعناء، لذلك كان الصينيون يقصدون تصويرهم بالبرابرة الهمجيين.

وبفضل خفة يد الصينيين انتقل اسم التتار كمرادف للبرابرة المتوحشين إلى المصادر العربية والفارسية والأوربية(١).

أما المغول أو المغل أو الماغول اسم أطلق على شعب ظهر في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي؛ وهي تمتد في أواسط أسيا جنوبي سيبريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرق التركستان بين جبال التاى غربًا وجبال جنجان شرقًا.

وقد أقام هذا الشعب في المنطقة الممتدة بين بحيرة بايكال غربًا ونهر كارولين شرقًا(٢).

وقد ارتبط اسم المغول باسم التتار ارتباطًا شديدًا في المصادر التاريخية حتى سار الاسمان "مغول" و"تتار" مترادفين، يطلق أحدهما ويراد به الآخر على تلك القبائل التي انطوت تحت لواء جنكيز خان، وقامت بتلك الهجمات البربرية الشرسة في القرن الثالث عشر

(١) إبرار كريم الله : المرجع السابق، ص٢٦.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٠، نعمان الطيب سليمان : المغول وغزواتهم في بلاد المسلمين، ط١، القاهرة، ١٩٨٨، ص٩.

الميلادي، فأبادت أقوام وأسقطت عــروش ودمــرت مــدن عــامرة بالحضارة، وأقامت إمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ في مدة قصيرة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان، وأن كــان أصل كلمة مغول "مونجول" ومعناه في الصينية الباسل أو الشجاع(١).

وإذا أردنا البحث عن أصل المغول وعلاقاتهم بالتتار قبل جنكيز خان فإننا سنجد بعض الآراء ومنها:

بعض المؤرخين يرى أن التتار غير المغول ولا يجوز إطلاق اسم التتار على المغول والعكس(٢).

ويذكر بروكلمان "أن التتار غير المغول حيث أن التتار من الشعوب التركية التي لعبت دورًا هاما في التاريخ، وهم الغزاة الذين روعوا وسط أسيا والشرق، والشرق الأدنى.

وضم التتار في القرن الثامن الميلادي نحو تسع وثلاثين قبيلة شكل قسم منها تسع قبائل وشكل القسم الثاني ثلاثين قبيلة، واتخذ المغول اسم التتار خاصة في فترة الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر(٣).

وعُرف المغول كذلك بالتتار في الصين وفي العالم الإسلامي وفي روسيا وفي غرب أوروبا بعد أن أُطلق هذا الاسم على أسلاف جنكيز خان فــي زمن يسبق الفتوحات المغولية، بينما صار اسم المغول يطلق على الشعوب التي خضعت إلى جنكيز خان بعد قهرها، ثــم لــم تلبث لفظة التتار أن غلبت عليها الأسماء في الجهة القريبة من الإمبراطورية المغولية، بعد أن كان لفظ المغول والتتار يشير إلى

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى : العرب والتتار، دار القلم، القاهرة، ١٩٧٥، ص٢١، فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص٢١.
(٢) هارولد لامب: جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، ترجمة بهاء الدين نوري، بغداد، ١٩٤٦، ص٢٤.
(٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب، صــ٣٨٧.

طائفتين كانتا تعيشان في الشطر الشرقي من أسيا الوسطيي وفي الشمال الغربي من الصين.

بينما يرى البعض أن المغول هم أصل التتار، وأن التتار هم قبيلة مغولية كانت تسكن منطقة منشوريا شمال شرق منغوليا في القرن الخامس الميلادي، وقد تميزت تلك القبيلة بروح قتالية عالية، مما جعلها تهدد القبائل المغولية المجاورة أو القريبة منها، وتزعج الصينيين الأقوياء.

وقد أطلق مؤرخو الصين هذا الاسم "التتار" على الشعوب الشمالية المجاورة لهم أو على الشعوب المعادية للصين بصفة عامة، وكان منها قبائل غير مغولية الأصل.

وبفضل الصينيين أنتقل اسم التتار كمرادف للبرابرة المتوحشين إلى المصادر العربية والأوربية(١).

وواضح أن شهرة التتار ذاعت كثيرًا أكثر مما صادف المغول من شهرة؛ نظرًا لأن مضارب التتار كانت تقع على طريق التجارة الرئيسي بين الصين في الشرق وبلاد المسلمين في الغرب، فضلا عن شدة بأسهم في الحرب؛ حتى إنهم أجبروا إمبراطور الصين على إقامة سور الصين العظيم ليمنع غاراتهم المدمرة على ممتلكاته القريبة منهم، وظل لفظ التتار يطلق على كافة القبائل التي تجاور الصين وتقطن الأقاليم الممتدة في أواسط أسيا وذلك حتى ظهور جنكيز خان(٢).

وعلى الرغم من شهرة المغول بعد جنكيز خان فقد ظل صيت التتار القديم هو الغالب، وأطلق أيضا على المغول أنفسهم في كثير من البلاد(٣).

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، ص٢٤.
(٢) أحمد محمود السادتي : الدولة الإسلامية، ص٥٤-٥٥.
(3) Morgan : the Mongols,p.57.

أما عن إطلاق اسم التتار على المغول مع أنهم فرع منهم، فيذكر المستشرق الروسي –بارتولد– نقلا عن المؤرخ –رشيد الدين الهمذاني– أن إطلاق كلمة "تتار" على نطاق واسع يرجع إلى قوة التتار الحقيقيين الذين كانوا يعيشون في القرن الثاني عشر الميلادي حول بحيرة بوير نور –Bouirnor–، وأثبت بارتولد عن طريق الدراسات أن استعمال هذه الكلمة "تتار" على هذا النطاق* الواسع يرجع إلى زمن أبعد من ذلك، ويرجع إلى عهد نقوش أورخون.

وقد ورد هذا الاسم في القرنيين العاشر والحادي عشر في بعض المحفوظات ويُحتمل كثيرًا أن يكون هذا الاسم "التتار" علمًا على الناطقين باللغة المغولية بوجه عام، ومنهم التتار والنايمان وشعب أويرات(١).

---

* نقوش أورخون أو آثار أورخون نسبة إلي نهر أورخون في منغوليا ، وهي أقدم آثار تركية أنشأها الترك لأنفسهم عن تاريخهم ، فأصحاب هذه الآثار قد سموا أنفسهم لأول مرة في التاريخ بالترك ، وتتناول هذه النقوش فترة نصف قرن من تاريخ الترك فيما بين سنتي ٦٣٠–٦٨٠م وهي الفترة التي كان أتراك الشرق فيها تحت حكم الصين ، وقد اكتشفت هذه النقوش بالقرب من نهر أورخون المذكور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

انظر في ذلك :

– بارتولد : تاريخ الترك في أسيا الوسطى ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ص١–٤ ، العريني : المغول ، ص٢٨–٢٩

ولقد حددت ورود كلمة التتار في نقوش أرخون في سنة ٧٣١.

انظر في ذلك :

– أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرة الحاكمة ، جـ٢ ، ص٤٦٥

(١) بارتولد : تاريخ الترك في أسيا الوسطى، ص ١٥٢.

وبعض المؤرخين يري أن التتار والمغول اسمان لقبيلتين تركيتين كانتا تعيشان في الشطر الشرقي من أسيا شمال غربي الصين، ولما كان التتار هم الأقوى في البداية وسيطروا على غيرهم من القبائل التركية الأخرى المجاورة لهم، فقد عم اسمهم كل من خضع لهم ومنهم المغول[1].

وانطلاقًا من الحديث السابق ذكره فإن بعض المؤرخين يذكر أن أحد ملوك الترك قديمًا وكان يدعى "النجه خان"[2]، كان له توءمان "تتر" و"مغل" واستمر الوئام بين ذريتهما وقت طويل من الزمن حتى وقع الشقاق بينهما في عهد "إيلخان" ملك المغل و"سونج خان" ملك التتر، وأدى ذلك إلى حروب بينهما انتصر فيها التتر في البداية على أبناء عمومتهم المغل واستعبدوهم مدة طويلة، حتى نهض المغل فثاروا وحاربوا التتر، وانتصروا عليهم في عهد "كابل خان" وأصبح لهم السيادة على أملاكهم؛ لذلك غلب إطلاق اسم المغول على التتار واختلط الاسمان فأصبح يطلق اسم المغول على التتار واسم التتار على المغول أيضًا[3].

ويرى معظم المؤرخين أن المغول والتتار كانا في الأصل شعبًا واحدًا، وبينهما اتحاد في الجنس، ثم تميز كلا منهما عن الآخر حتى صار بينهم عداء مستمر وحروب طويلة، تبادلا فيها النصر والهزيمة، فأصبح يطلق اسم المنتصر على المهزوم، وكانت دائمًا الغلبة للتتار،

---

(١) العريني : المغول، ص٢٨ – ٢٩.

(٢) رشيد الدين الهمذاني: جوامع التواريخ، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٩٦٠، م٢، جـ١، ص٢٣ – ٢٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن: التاريخ السياسي، دار النهضة المصرية، جـ٤، ١٩٨٢، ص١٣٠ – ١٣١.

حتى جاء جنكيز خان فأخضع القبائل في شرق أسيا لحكمه ومنها قبائل التتار، واتخذ قرارًا بأن يُطلق اسم المغول على جميع الأقوام التركية الخاضعة له[١].

والحقيقة أن جنكيز خان نفسه كان يكره اسم التتار؛ لأنه كان مرادف للبرابرة المتوحشين، لذلك أطلق على شعبه اسم المغول، فقد أعلن جنكيز خان غضبه على قبائل "تاتا" أو التتار بقوله: "كان التتار يقتلون آباءنا وأجدادنا من قديم الزمان، فسوف نأخذ بثأر هؤلاء السلف".

وجمع جنكيز خان جيوشه وقضى بالفعل على تلك القبائل. ويذكر المؤرخ الروسي كيتشانوف -Kichanov- أنه تم القضاء على قبيلة تتار قبل ظهور المغول على مسرح التاريخ؛ تلك القبيلة التي تركت مجرد اسم يطلق على جميع القبائل المغولية.

وعقب مرور ما يقرب من ثلاثين عامًا ارتفع صياح التتار أثناء مجازر المغول في مدن وقري الغرب النائية، مع أن التتار لم يبق منهم في جيوش الغزاة الجارفة إلا القليل، ولم يبق منهم سوى الاسم الذي كان يثير الرعب بين الشعوب المختلفة، في حين أنهم كانوا مدفونين منذ زمن بعيد في تراب أوطانهم[٢].

وتعقيبًا على ذلك أصدر جنكيز خان أمرًا بمنع استخدام اسم التتار الذي كرهه من أعماق قلبه، وحينما قام الرحالة الأوروبي روبرك -Rubruk- بزيارة جيش المغول في سنة ١٢٥٤م حذروه

---

(١) هارولد لامب : جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، ص٥، هارولد لام: جنكيز خان وجحافل المغول ١١٦٢ – ١٢٢٧، ترجمة متري أمين مراجعة وتقديم د/ ذكي نجيب محمود، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢، ص٧٢.

(٢) إبرار كريم الله : المرجع السابق، ص١ – ١١.

بشدة من ذكر اسم التتار أمام المغول، ولكن هذا الاسم كان قد انتشر في ذلك الوقت انتشارًا واسعًا شمل مناطق أسيا وأوربا بكافة بلادها حتى المحيط الأطلنطي، ولم تستطع مثل هذه الإجراءات الإدارية أن تمحو هذا الاسم مـــن ذاكرة الشعوب[(١)].

أما من الناحية غير الرسمية، ومن جهة الشعوب التي تعرضت لغزوات المغول، فقد ظلوا يطلقون اسم التتار على هؤلاء، ثم اختلط الاسمان وأطلق كل منهما على تلك الأقوام التي خضعت لجنكيز خان وأحفاده من بعده[(٢)].

والثابت أن تاريخ المغول الفعلي كإمبراطورية عُظمى لم يبدأ إلا في زمن تيموجين بن يسوكاي، حيث عم لفظ المغول كعلم على هذه الإمبراطورية في سنة ١٢٠٦م، ووافق الجميع على منح تيموجين لقب جنكيز خان وعلى أنه ينبغي أن تعرف أقوامه في مجموعها باسم "المغول" ومنذ ذلك الوقت غلب اسم المغول على التتار في عهد جنكيز خان، ثم اختلط الاسمان؛ ولذا فإن كثيرًا من المؤرخين المسلمين المعاصرين للتوسع المغولي يعدون كلمتي "تتار" و"مغول" لفظان لمدلول واحد، يطلق إحداهما ويراد به الآخر على تلك الأقوام التركية التي خضعت لحكم جنكيز خان[(٣)].

في حين يذكر "بارتولد" أن لفظ مغول لم يكن على عهد جنكيز خان سوى مصطلح رسمي وكان مجهولاً تمامًا لدي بقية الشعب، بل

---

(١) إبرار كريم الله : المرجع السابق، ص ١١.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٧، جـ١، ص٣٩٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، ص٣٩٩، هارولد لامب : جحافل المغول، ص٧١ – ٧٢، القلقشندي : صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٥٤، جـ٤، ص٣٥.

إن الوثائق الرسمية لأسره اليوان -Yuan- تطلق على المغول والشعوب التي اندمجت فيهم ببلاد الصين اسم المغول (المنغول)، وبينما عرفوا في منغوليا نفسها باسم تتا (تتار).

وباتخاذه اسم المغول علمًا على قبيلته فإن تيموجين قد أعلن بذلك نفسه خلفًا لقوتوله خاقان، وأكد في الوقت نفسه ادعاءه الانتساب إلى ذلك الخان(١).

أما علاقة " المغول" أو " التتر" بالترك فإن غالبية المصادر تؤكد أن المغول(التتار) ينتمون إلى يافث بن نوح عليه السلام، وقد انتشر أبناء يافث في أواسط أسيا وشرقها وشمالها، ومنها شعوب الصين والهند والترك والمغول والقبجاق والهون والبلغار وغيرهم(٢).

ويذكر -رشيد الدين الهمذاني- أن الأتراك والمغول وشعبهم يتشابهون في طباعهم وحياتهم المعيشية، وأطلق عليهم في الأصل لقب واحد، وأن المغول صنف من الأتراك، ومع ذلك فقد حدث بينهم تفاوت واختلاف شاسع بسبب أن تواريخ المغول والترك قد اتسمت بالغموض وعدم التحقيق نظرًا لبداوتهم(٣).

---

(١) بارتولد . كلمة " ترك " لم تكن موجودة قبل القرن السادس الميلادي، أما معني الكلمة فهناك عدة معان لها هي: أنها اسم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح اسم لأسرة حاكمة، ويحتمل أن يكون المعني الأول للكلمة "تورك" أو "توروك" هو القوة والأحكام. أما في نقوش أورخون فقد وردت كلمة ترك بمعنى "أقوام" وقد تكون لها علاقة بكلمة " تورو" بمعنى الجماعة المحتفظة بالقانون والتقاليد.

انظر في ذلك :

- بارتولد : الترك في أسيا الوسطى، ص٢٨-٢٩.

(٢) المسعودي : مروج الذهب، جـ١، ص١٤٩، ابن الأثير الكامل، جـ١٠، ص٤١، رشيد الهمذاني جامع التواريخ، م٢، جـ١، ص٣١٣ - ٣١٢.

(٣) رشيد الدين الهمذاني، جوامع التواريخ، م٢، جـ١، ص٢٤ - ٢٧.

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن الأتراك والمغول والتونجوز* جميعهم من الجنس الألتائي(١)، في حين يري بعض الباحثين أن المغول لم يكوّنوا عرقًا مستقلاً كالعرق الصيني، وأنهم تسللوا من عرق غير أصلي، وقد اختلطت فيهم الدماء الإيرانية والتركية، واسم هـذا القـوم في الوقت الحاضر العرق "الأورإلي–الألتائي"، ويذكـر –بارتولد– أن الأسرة "الأورلتائية" تتكون من خمسة أقوام هم من الشرق إلى الغرب: القن؛ الصاموبيد التورك، المغول.

والمغول كانوا بدو أسيا العليا الذين نعتهم الإغريق بالسيثيين، في حين يري المستشرق –ل.أ. سيديول– أن المغول كالترك قبيلة من الأرومة السيثية وأنهم سكنوا بلاد التتر(٢).

ومن خلال استعراض آراء المؤرخين نجد أن قبائل المغول والترك والتونجوز كانت هي العناصر الرئيسة التى يتكون منها سكان منغوليا وماجاورها شمالاً وغربًا، وأن هذه الشعوب في الأصل أرومة واحدة، ثم تفرقوا وتباينت شعوبهم، ثم تداخلت بعض هذه الشعوب فاشتبه الأمر على المؤرخين، حتي وجدنا بعض القبائل تنسب مرة إلى الترك، وأخرى إلى المغول، ومرة ثالثة إلى التونجوز.

فقبيلة الخطأ مثلاً يذهب البعض إلى أنها من المغول، والراجح أنها من التونجوز، أما شعب النايمان فيبدو اسمهم مغولي وألقابهم

---

* التونجوز: من قبائل البدو والرحالة التي عاشت في منطقة الأستبس الآسيوي، وهم قسم من تتار المانجو، وقد أطلق عليهم الروس اسم التونجوز ويسمون أحيانًا "صولون" بمعني الصيادون والرماة.

انظر في ذلك :

– الصياد : المغول في التاريخ، صـــ٢٥.

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص٧.

(٢) ل.أ سيدبول : تاريخ العرب العام، ص٢٣١، العريني : المغول، ص ١١– ١٢، الصياد : المغول في التاريخ، ص ٧ – ١٠.

تركية؛ لذا يذهب بعض المؤرخين إلى صحة اعتبارهم من الترك والمغول، أما قبيلة الكرايت فيقول البعض أنها من المغول، ثم يعود فيقول أنها من الترك، وهذا الالتباس راجع إلى عوامل عديدة: منها كثرة تنقل القبائل في تلك الجهات من موطن إلى آخر، وما يتبع ذلك من حروب تؤدي إلى دمج القبائل في بعضها، وانتساب المهزوم إلى المنتصر، ومنها الغموض الذي انتاب تاريخ هذه الجموع واختلاطه بالأساطير (١).

وليس من اليسير معرفة المواطن الأصلية لهذه الجماعات الكثيرة في أسيا الشرقية كالترك والمغول والتونجوز، ولكن يمكننا بصفة عامة وبطريقة تقريبية أن نحدد أماكن الاستقرار لأشهر هذه القبائل، ففي الوقت الحاضر ينزل التونجوز في جماعات صغيرة في شمال منغوليا وفي شرق سيبيريا ووسطها، ابتداء من نهر ينيسي حتى شبه جزيرة كمشتكا إلى الجزء الشمالي من جزيرة سخالين، على حين أن المغول يحلون في منغوليا الأصلية بينما يعيش الترك في غرب سيبيريا في تركستان الصينية وتركستان الروسية، وإن كان من المعروف أن الترك لم يقدموا إلا حديثًا إلى تركستان، إذ ظهروا في جبال التاي في القرن الأول الميلادي.

والمعروف أيضا أن جنكيز خان قد أضفى الصفة المغولية على قبائل لا شك أنها قبائل تركية كالنايمان بجبال التاي والكرايت في جوبي، والأونجوت في تشاقاهار على أن حدوث ذلك كان قبل قيام جنكيز خان بتوحيد كل القبائل تحت زعامته، وأن جانبًا من منغوليا كان تركيا، بل إن قومًا من الترك الياكوت يسكنون حاليا شمال التونجوز في أحواض أنهار لينا وأنديجيركا وكوليما(٢).

---

(١) محمد عبد الحميد راغب : جنكيز خان وتأسيس دولة المغول، القاهرة، ١٩٩٩، ص١١-١٢، فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٩-١٠.

(٢) محمد عبد الحميد راغب : المرجع السابق، ص ١٢ - ١٣.

وما هــو حادث الآن مــن نزول هذه الكتلة الضخمة من الترك في شمال المغول والتونجوز، وفــي اتجاه مضيــق بهرنج على المحيط المتجمد الشمالي، ويوقفنا على المواطن الأولى للترك والمغول والتونجوز، كما أن انعزال هذه الأقوام الثلاث في الوقت الحاضر كل منها مستقل عن الآخر يدعونا إلى التفكير في أن هذه الأقوام التي خضعت مجتمعة في بعض العصور التاريخية لسلطان واحد، يصح أنها كانت مثلما هو حادث اليوم تعيش متفرقة في الأستبس بشمال شرق أسيا(١).

حياتهم وعاداتهم وقوانينهم ومعتقداتهم :

من المعروف أن الأقاليم الشمالية الشرقية من قارة أسيا كانت الموطن الأصلي للقبائل الرعوية المتبربرة التي اندفعت في تحركاتها صوب غربي أسيا، وذلك بسبب زيادة أعدادها زيادة هائلة، أو نشوب الصراع بينهما، أو التغيرات المناخية التي أثرت على حياتها الرعوية، وأدي ذلك إلى هجرة الكثير منها مثل هجرة الهون إلى سهول روسيا، حيث أثارت القلاقل والفوضى ونشرت الرعب والفزع، وكانت من العوامل الهامة التي أدت إلي سقوط الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الخامس الميلادي(٢).

ولقد عاش المغول في المنطقة التي عرفت بمنغوليا وهي جزء من الهضبة الآسيوية وعاش التتار على شاطئ بحيرة بويور في أقصي الشرق من منغوليا(٣) التي كانت تطوقها هي والتركستان سلسلتان من الجبال، سلسلة في الشمال الغربي وهي سلسلة جبال تيان

= - Morgan, The Mongols, P. 57.

(١) العريني : المغول، ص ١١ – ١٢.

(2) SCott, Madieval Europe, P. 275.

(٣) مصطفى بدر : محنة الإسلام الكبرى، ص٧٣.

شان والتاي، والأخرى هي الأشهر في الجنوب وهي سلسلة جبال الهيملايا التي تعرف بسقف الدينا، وهي في تشعبها وتفريعاتها كانت بحق حاجزًا بين القبائل التي لا تزال على البداوه والشعوب المتحضرة في جنوبها(١).

وهاتان السلسلتان تطوقان منطقة منغوليا وتركستان وتعزلاهما عن بقية أنحاء أسيا، وامتدت هضبة منغوليا التي عاش فيها أغلب قبائل التتار في أواسط أسيا طولاً من جنوب سيبيريا حتى شمال التبت، وعرضًا ما بين غرب منشوريا وشرق تركستان(٢).

ويمكن تقسيم منغوليا إلى قسمين : قسم شمالي غربي مرتفع به جبال كثيرة توجد بها هضاب ووديان تغطيها الحصباء، وقسم جنوبي شرقي منخفض يشمل صحراء جوبي أو شاموا التي ليست إلا سهلاً متسعًا مسطحًا أو متموجًا تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة، قد جردتها الرياح من المواد الدقيقة من الطين والرمل، ومن تحتها تظهر في بعض الجهات مساحات من الصخور كالجزائر في البحار، وتنساب من بين جبال المنطقة الشمالية الغربية الفروع العليا لأنهار أوبي وينسي ولينا، بينما المنطقة الجنوبية لا يوجد بها أنهار إلا على الحافات فقط، وتسير من جبال خنجان بعض نهيرات لا تلبث أن تجف حتى تصل إلى جوبي، وبالإضافة إلى ذلك يوجد بمنغوليا قليل من البحيرات، كما تنفجر بعض الينابيع، ولكن المسافر -رغم ذلك- لا يعدم الماء لأنه إذا حفر وجده قريبًا من سطح الأرض(٣).

---

(١) أحمد محمود السادتي : الدول الإسلامية، ص٥٤.
(٢) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، دار المعرفة الجامعة، ٢٠٠٢م ص١٦٨.
(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص١٠-١١.

وتسبب بعد هذه المنطقة عن البحار -فضلا عن ارتفاعها فوق مستوي سطح البحر ارتفاعًا شديدًا- في جعل مناخ هذه المنطقة مناخا شديد القسوة صيفًا وشتاءً(١)، حيث تتميز بشتاء طويل قارس البرودة تنخفض فيه درجة الحرارة إلى أبعد الحدود وتتجمد المياه، فإذا ما حل الصيف القصير اشتدت الحرارة، وعلى ذلك فإن الظروف المناخية القاسية لمنغوليا جعلت منها إقليما فقيرًا انعدمت الزراعة في أكثر جهاتها وقلما نشاهدها إلا في أماكن قليلة ومتباعدة، وذلك لأن الجبال العالية المحيطة بتلك الهضبة منعت عنها الرياح الدافئة المطيرة في فصل الصيف، علاوة على البرودة العالية في فصل الشتاء(٢).

ولكن قسوة المناخ لا تقف عند هذا الحد، لأن هناك أيضا الرياح الشديدة التي تهب في معظم أيام السنة فتحمل الحصا وترسله إلى مسافات بعيدة، وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة، وأحيانا تتحول إلى أعاصير عاتية لدرجة يصعب معها بقاء الرجل في سرجه، ثم أن هذا المناخ لا يثبت على حال واحد حتى لو كان الوقت صيفا(٣).

وكان واضحًا قارية المناخ بين الفصول بعضها البعض وحتى بين الليل والنهار، والأمطار القليلة بوجه عام، الأمر الذي سبب جفافا في تلك البقاع خاصة في أواسط الصيف وأواسط الشتاء، وتفاوت درجات الحرارة في بعض جهات منغوليا تفاوتًا كبيرًا بين شدة الحرارة وشدة البرودة، ولهذا دخلت هضبة منغوليا في نطاق منطقة الأستبس(٤).

ولم تكن الظروف المناخية القاسية التي عاش فيها المغول هي السائدة، بل يُستثنى من ذلك هضبة التبت التي تتدرج فيها النباتات في

---

(١) العريني : المغول، ص٦.
(2) Sounders,TheHist.of Mongol Conquest, P. 44.
(٣) هارولدلامب : جنكيز خان.إمبراطور الناس كلهم، ص٦.
(٤) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، ص١٦٩.

المنطقة القطبية، وكذلك المناطق الجبلية التي تتساقط فيها الثلوج في الشتاء والأمطار في الصيف، ولهذا نمت الأشجار في بعض الجهات لتؤلف نطاقاً من الغابات، وانتشرت المراعي الصيفية الغزيرة في الأحواض العليا على جوانب التلال(١).

وهناك أيضا أحواض بعض الأنهار، مثل حوض نهر التاريم وغيرها من الأحواض التي اشتهرت بعض واحاتها بنشاط تجاري مميز، على الرغم من أن هذه الواحات كانت متناثرة إلى حد بعيد، كما اشتهرت هذه الواحات بوجود بعض المدن على طول طرقها، خاصة حوض نهر التاريم الذي كانت تعترضه صحاري وجبال، ولكنه حافظ على اتصال الحضارات منذ القدم كطريق تجاري حيوي(٢).

ويذكر "العريني" أن هذا الطريق سلكه الحجاج والبعثات التبشيرية فضلا عن طرق أخرى للرعاة التي وطأتها أقدام المتبربرين على مدى أزمنة طويلة، بالإضافة إلى الطرق التي وطأتها أقدام الفرسان القادمين من منغوليا(٣).

وفي هذه المنطقة كانت تعيش قبائل المغول مستقلاً بعضها عن بعض، وكانت تتقاتل فيما بينها، كما كانت تتقاتل مع جيرانها وخاصة مع التتار، وبين هذه القبائل كانت هناك طائفة صغيرة اسمها " قيات" وتعرف باسم "يورجقين"، هذه الطائفة بعينها هي التي نشأ فيها جنكيز خان مؤسس أعظم إمبراطورية رآها العالم(٤).

والحقيقة أن البيئة القاسية التي عاش فيها المغول والتتار انعكست آثارها على صفات هذه الشعوب وتكوينهم الجسمي والنفسي وعلى حياتهم ذاتها، فقد كانوا قصار القامة، رءوسهم عريضة،

---

(1) Morgan, op.cit., P. 37.
(2) Morgan, op.cit., P. 33-35.

(٣) العريني : المغول، ص٨-١٠.
(٤) الصياد : المغول في التاريخ، ص١١.

وجباههم مرتفعــة، وبشرتهــم صفــراء سميكـــة، وأنوفهــم فطساء، وعيونهم منحرفة، وجفونهم ثقيلة(١)، وشعورهم خشنة مرسله، وذقونهم جرداء، وسيقانهم مقوسة، وأجسامهم ممتلئة(٢).

وكانت أوروبا القرون الوسطي تقدم "الترتار" لتخويف الجماهير في صورة أناس مقوسة سيقانهم، لهم قرون وعيون ضيقة مرتفعة، ومن أكلة لحوم البشر، وبهذا تسببت في تضليل كل الشعوب الأوروبية التي أتت في الزمن اللاحق، فأصبح اسم "الترتار" ظاهرة عامة لدي كافة الشعوب المسيحية(٣)، واتصفوا بالقذارة وعدم النظافة انعكاسًا لبيئة المكان، واظهروا من العناد والغطرسة والكبرياء ما أخرجهم من نطاق الشعوب التي كان تعيش بجوارهم، وأنهم اتصفوا بصفات بدنية ونفسية تتناسب والبيئة التي يعيشون فيها(٤).

وكان أهالي الأستبس الرُحل في أسيا، وإن كانت أول طلائعهم الهون الذين كانوا يعيشون في الصين الشمالية أو منغوليا، وأجبر الصينيون الهون على التحرك صوب الغرب، فمروا شمالي بحر قزوين والبحر الأسود ثم مروا خلال منطقة جنوب روسيا نحو البلقان، ولم يتمكن أحد من الصمود أمام هذه الجيوش التي كان أفرادها يحاربون من فوق ظهور الخيل(٥).

وقد وصف مؤرخ روماني معاصر الهون بأنهم شياطين لا تقهر، لا يحاربون فقط من فوق ظهور الخيل، وإنما يعيشون فوقها أيضا،

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار ص١٧٠.
(٢) فؤاد الصياد : المغول في التاريخ، ص٧-١٩.
(٣) إبرار كريم الله : المرجع السابق، ص٢٨.
(4) Walker : Jeghi 2 Khan, P. 33.
(5) Tacitus, Germaina : Trans by, H. Matlingly, penguins, 1970, P. 100.

وزعم أنهم لا ينزلون عن خيولهم لكي يأكلوا، ولكنهم يدفئون اللحم المقدد تحت سروجهم ثم يواصلون المسير(١).

وكان أسلوبهم في العيش مختلف حيث إنهم كانوا لا يأكلوا الخبز بل يعيشون على اللحم واللبن، وأحسن ما يشتهون لحم الخيل التي ينقعونها في الماء المملح ثم يجففونها فيمكنهم قطعها كما لو كانت خبزًا أسود، وكان أحب مشروب إليهم وأقواه لبن إناث الخيل بعد أن يعطروه بالأعشاب، وقد قدَّم أحدهم إلى ملك التتار العظيم حصانًا محملاً بالدقيق(٢).

وهؤلاء التتار يأكلون لحم جميع أنواع الحيوانات التي تنفق بالمعسكر، أما النساء اللائي عندهن أطفال فيشرفن على حفظ هذه اللحوم والعناية بها، كما يقمن بإعداد طعام المحاربين، وهم يضعون اللحم النيىء بين سروجهم وعذبات ملابسهم، حتى إذا خرج كل ما به من دم أكلوه نيئًا، أما ما لا يستطيعون أكله بين آن وآخر فيضعونه في حقيبة من الجلد، فإذا جاءوا فتحوا هذه الحقيبة وأكلوا –أولاً– أقدم ما بها من قطع اللحم، وذكر رسول الملك لويس أنه رأى تتاري كان يقوم بحراستنا أثناء أسرنا يفتح الحقيبة، فسددنا أنوفنا لعدم استطاعتنا تحمل رائحة النتن المتصاعد منها(٣).

ويذكر –هارولد لام– أن المغول والأقوام الرحل كانوا يدخلون الرعب في نفوس أعدائهم وهم على ظهور الخيل، ويصل الأمر بهم أن يناموا ويميلوا رءوسهم على أعناق دوابهم، وهم لا يزرعون حقلاً

---

(١) نورمان كانتور : التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، جـ١، ص١٨٥.

(٢) جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ص٢١٧.

(٣) جوانفيل : المرجع السابق، ص٢١٧ ــ ٢١٨.

أو يحرثون أرضًا بل هم في تجوال دائم(١)، بل شغل القتال والفروسية كل حياتهم، بل اشتق اسم المغول نفسه من -Mong- الصينية ومعناها الباسل الشجاع، على الرغم من أن هذا الاسم كان موضع خلاف بين المؤرخين(٢).

أما عن نوع الحياة التي كان يحياها المغول فإنه يمكن تقسيم القبائل المغولية في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي إلى قبائل رعوية في جوار المراعي، وإلى قبائل الصيادين من المغول الذين يزاولون مهنة الصيد في صور مختلفة؛ فهناك فئة تعكف على صيد الأسماك، وأخري من سكان الغابات تركب الزحافات من الخشب أومن العظم وتطارد الحيوانات ذوات الفراء للحصول على فرائها، وفئة ثالثة من رعاة الحيوان تطارد الظباء بواسطة الحبال أو النبال(٣)، ومن ثَمَّ دأبوا على التنقل والترحال من مكان إلى آخر سعيًا وراء الصيد أو العشب والكلأ، لا يدركون معنى للحضارة، ولا يعرفون الاستقرار، وإنما يقضون حياتهم في النزاع والتنافس(٤).

وفي الواقع يلاحظ على سكان المغول أنهم على الحدود المغولية السيبيرية كانوا منقسمين بين منطقة المراعي التي صارت بعد ذلك صحاري، وبين منطقة الغابات في الشمال والجنوب.

ويرى بعض المؤرخين أن أصل المغول لا يثبت أنهم كانوا جنسًا من سكان المراعي، ولكنهم كانوا شعبًا يسكن الجبال المكسوة بالغابات، والدليل على أنهم من المناطق الخشبية هو استعمالهم الواسع لعربات اليد الخشبية( ).

---

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، ص٣٩.

(٢) العريني : المغول، ص٣٩.

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص١٢.

(٤) أرنولد تونيي : الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥١.

(5) Grousset, L'mpire des steppes; P.249 ; Saunders، The Mongol conquests, P.44.

وتنازع المغول وغيرهم من القبائل في أسيا للحصول على المراعي وطلبًا للرزق، والطمع في فرض سلطانهم على الجموع الأخرى، وتنازع الترك والمغول وتخاصموا لتوفير المراعي لقطعانهم والهيمنة على المساحات الشاسعة التي تهيئ للفرسان ما يلائم نشاطهم، وما يوفر لهم الحياة التي تناسبهم، وتهيئ للبدو والرعاة وجموع الأستبس ظروف الحياة التي يبتغونها.

ويُعد هبوط الرعاة من مضاربهم وارتحالهم إلى جهات أخرى قاعدة طبيعية وأمرًا مألوفًا عبر الحقب التاريخية المختلفة، وخاصة وان منغوليا تدخل في نطاق منطقة الأستبس(١).

ومن المعلوم أن القبائل التي تسكن منطقة الأستبس هي قبائل رحالة بصفة خاصة تتنقل في فترات متتابعة طلبًا للمراعي، وخلال رحلاتهم كانوا ينصبون خيامهم المصنوعة من اللباد، بينما كانت القبائل التي تسكن الغابات تقطن أكواخًا مصنوعة من ألياف الأشجار، لكن هذا التقسيم نظريًا فقط؛ لأنه تبعًا لحياة القبائل التي تحيا حياة بدوية كانت أية قبيلة تستطيع أن تنتقل من لون إلى آخر من ألوان الحياة، فجنكيز خان ينتسب إلى قبيلة من الرعاة، غير أنه اضطر في شبابه بعد أن اغتصب منه أقاربه وعشيرته القطعان أن ينضم إلى أمه وأخوته في حياة بائسة هي حياة صيادي الحيوانات وصيادي السمك، وذلك قبل أن يتمكن من إعداد ثروته من الخيل والأغنام(٢).

ولقد مارس المغول أجداد جنكيز خان الرعي وكذلك الصيد في سهول وغابات أسيا في منطقة منغوليا والتركستان، فأصبحوا من شعوب السهول التي غلب عليهم حرفتي الرعي والصيد(٣)، وكان

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ : التتار وأوربا، صــ ١٧١.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ١٢، ١٣.
(3) Morgan, op. cit., P. 32.

عليهم أن يتغلبوا على مصاعب الصحاري المترامية الأطراف وأن يجتازوا الجبال أو أن يعبروا البحار والأنهار، وأن يقهروا قسوة المناخ، وأن يعبروا على ما تفشي فيهم من أوبئة ومجاعات.

ولهذه الأسباب حدثت الحركات المنتظمة للرعاة -أولاً- داخل مواطنهم، ثم تطورت إلى غارات على البلاد المجاورة لحدودهم[1].

ويلاحظ بصفة عامة أن القبائل التي تقطن الغابات كانت تبدو أكثر بدائية وأكثر توحشاً، وليست لهم علاقة بالحياة المتمدينة إلا عن طريق القبائل الرحالة.

أما هؤلاء الرحالة فإنهم كانوا يستفيدون من جوارهم الأويغور في منطقة جوبي أو إمبراطورية كين في بكين، ولم تكن لهم مدن، ولكنهم أثناء ترحالهم كانوا يضربون مجموعات من الخيام والأكواخ المصنوعة من اللباد والمقامة على عربات ذات عجل لكي يسهل نقلها من مكان إلى آخر، وأثناء تجمعهم في أماكنهم المؤقتة كانوا يضعون البذور لمدن المستقبل.

ويسجل علماء الأجناس التقدم الذي حدث بالانتقال من الكوخ الحقير للمغول سكان الغابات إلى كوخ من اللباد يسهل طيه وتركيب[2].

ويمكننا أن نقول أن بيئة الأقاليم الشرقية من أسيا قد فرضت على طوائف الأتراك والمغول أن يعيشوا عيشة بدوية كلها نزاع وصراع بسبب تنازع البقاء.

وقد استلزمت هذه الحياة كثرة الهجرة والانتقال من مكان إلى مكان جريًا وراء المراعي والأعشاب، حيث يطيب لهؤلاء الناس العيش وتتوافر لهم موارد الرزق.

---

(١) العريني : المغول، ص ١٣.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص١٣.

وكان المغول من هذه القبائل لا يدركون معنى للحضارة ولا يفهمون معنى الاستقرار، وإنما يقضون حياتهم في التنازع والتنافس، لا منطق بينهم إلا للقوة ولا حكم إلا للسيف.

ولا شك أن ما كانت تمارسه هذه الأقوام البدوية من ضغط على الإمبراطوريات المتمدينة القريبة منها وخاصة في الجنوب قد يتطور إلى غارات للضم والتوسع على يد المتبربرين الذين كانوا على بداوتهم الأولى(١).

وقد استدعت هذه الحياة ضرورة الإغارة على الممالك المتمدينة في الصين وما وراء النهر وإيران.

ورغم الضربات الشديدة التي كان ينزلها حكام هذه الممالك بهؤلاء المتبربرين من وقت لآخر، فإنهم كانوا لا يكفون عن الإغارة عليها وإنزال الكثير من المحن والبلايا بها.

ولعل هذه الغارات هي السبب في إقامة سور الصين العظيم الذي شيده أهل الجنوب في العصور الأولى من التاريخ لمنع غارات القبائل المتبربرة في الأقاليم الشمالية الشرقية من القارة الآسيوية(٢).

ومع وجود الغارات والفوضى، وعزلة العالم التركي المغولي بسبب ما كان يحيط بمنغوليا والتركستان من سلاسل جبلية، إذ انفصل هذا العالم عن بقية أنحاء أسيا، وأجبر على مواجهة ظروفه الصعبة ومواجهة أقداره ومحاولة التواؤم مع ما كان يعيشه من ظروف صعبة قاسية(٣)، هذا فضلا عما أحدثه وقوع نهر سيحون بين العالم التركي المغولي والعالم الإسلامي من عزل هذا العالم، وفصله عن جيرانه سكان البلاد الإسلامية(٤).

---

(١) رالف لنتون : شجرة الحضارة، جـ٢، ص ١٦٩.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص١٤.
(٣) مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى، ص ٤٩.
(4) Morgan, Op. cit., P. 41.

كل هذه الحروب والفوضى الاجتماعية والسياسية التي كانت عليها القبائل المغولية لابد وأن تتمخض في النهاية عن وجود شخصية قوية توحد شتات هذه القبائل، وتجبر سائر الطوائف على الخضوع لها، وتكون من الجميع دولة واحدة.

وقد شاء القدر أن تتمثل هذه الشخصية في شاب مغولي اسمه "تميوجين" استطاع بفتوحاته أن يهز أركان روسيا وشرق أوروبا(١)، وهذا ما سوف نستعرضه في الفصل القادم.

أما قانون المغول فهو يعتبر دستورًا وضعه جنكيز خان حاكم المغول ويُدعى "الياساق" تتضح فيه الخطوط العريضة لسياسته وأهدافه، وهو دستور يدعو إلى التعصب العنصري وإلى الإباحية، واختفاء شخصية الفرد بحيث يصبح كل فرد عبدًا للإمبراطورية والدولة، وجنديًا يطيع إمبراطوره طاعة عمياء ويوجه حيث شاء(٢).

وتبدو العنصرية عند جنكيز خان في تلك العبارة التي وردت في "الياساق" وهي: "فليساعد الواحد منكم الآخر ولنقض على سائر الأجناس". وكان هدف المغول هو القضاء على أجناس الأرض بحيث يسود الجنس المغولي، أي: أنه لم يهدف إلى اتساع الحكم المغولي أو نشر حضارة أو تحرير شعب، وبذلك اختلف الفتح المغولي عن سائر الفتوحات التي شهدها العالم عبر العصور التاريخية(٣).

ويدعو دستور المغول إلى الإباحية، ويهدم أركان الأسرة، وهي خلية المجتمع فيعطي " الياساق " الرجل المغولي حق شراء الزوجات، ويبيح له الزواج من أختين واتخاذ ما شاء من المحظيات، كما أن الدستور المغولي يحتم على كل مغولي في رأس كل سنة أن يعرض

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص١٤.

(٢) على حسن الخربوطلي : بين المغول وإليهود، القاهرة، ١٩٦٩ ص٤٧.

(٣) على حسن الخربوطلي : المرجع السابق، ص ٤٧ – ٤٨.

على الإمبراطور جميع بناته الأبكار ليختار الإمبراطور له ولأولاده ما شاء من البنات(١).

وتميز الدستور المغولي بالقسوة، إذ يدعوا إلي التقشف الشديد وحرمان المغول من ثمار عملهم وكفاحهم، فهو مثلاً يدعو إلى تحريم غسل الثياب، بل يجب أن يرتدي المغولي ملابسه حتى تبلي، ويرى الدستور أن " جميع الأشياء طاهرة، وليس هناك شيء نجس"(٢).

ويقضي الدستور على حرية الفرد، ويجعل الفرد يذوب تمامًا في المجتمع، فيرى الدستور "ألا ينفرد أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يجب عليه تقسيم الطعام مع الآخرين بالتساوي، ولا يجوز أن يتخطى أحد نارًا أو مائدة أو طبقًا يؤكل عليه، وإذا مر فرد وهم يأكلون فله أن ينزل في ضيافتهم يأكل بدون إذن منهم، وليس لأحد أن يمنعه عن الأكل........" (٣).

وتطرق "اليساق" إلي أمور كثيرة ثانوية، فهو مثلاً يرسم للمغول طريقة أكل اللحوم، وينهاهم عن إتباع الطريقة الإسلامية في ذبح الحيوانات فيقول الدستور: "إن الحيوان تكتّف قوائمه ويمرض قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه، وإن من ذبح حيوانًا كذبيحة المسلمين عوقب بالذبح"(٤).

وتحدث القلقشندي عن "اليساق" دستور جنكيز خان فقال: "وهي قوانين ضمها من عقله وقررها من ذهنه ورتب فيها أحكامًا وحدد فيها حدودًا، وربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك........"(٥).

---

(١) المقريزي : كتاب الخطط، جـ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢٤.
(٢) الخربوطلي : نفس المرجع ص٤٩.
(٣) الخربوطلي : نفس المرجع ص٤٩.
(٤) الخربوطلي : المرجع السابق ص٥٠.
(٥) القلقشندي : صبح الأعشي، جـ٤، ص٣١٠ - ٣١١.

وأصبح الياساق دستورًا واجب التنفيذ، وعلى المغول جميعًا إطاعته طاعة مطلقة، وكان على جميع الأمراء والحكام تنفيذه حرفيًا وإلا خلوا من مناصبهم(١).

وكانت معظم نصوص "الياساق" تخالف تمامًا الشريعة الإسلامية التي تحترم حقوق الفرد، وتمنع الطغيان والاستعباد، وتلك هي السمات التي نراها بارزة في شريعة جنكيز خان.

والحقيقة أن كثيرًا من عادات المغول وطباعهم تدعو إلى الاشمئزاز، وتثير في نفس المسلمين النفور والكراهية لمنافاتهم لتعاليمهم(٢).

وكان المغول على استعداد لأن يأكلوا الحيوانات الدنسة، وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال، وحرموا غسل الثياب والأيدي في المياه الجارية، ولذلك كانوا يتركون الثياب حتى تبلي، ومن خالف هذه التعليمات أعتبر مجرمًا خارجًا على القانون وعقوبته الإعدام. كذلك اعتبر المغول ذبح الحيوان بقطع حلقه من الجرائم التي لا تغتفر، وأيضا حرموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقًا للطريقة التي أجازها الشرع، واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الخاصة فكانوا يشقون بطن الحيوان، ثم يمدون أيهديهم إلى جوفه، فإذا وصلوا إلى قلبه امسكوه ونزعوه من مكانه(٣).

واهتم "الياساق" بإعداد المغول جميعًا أعدادًا حربيًا، وجعلهم كلهم أداة هائلة للتدمير واكتساح من يقف في سبيلهم من الشعوب الأخرى.

وذكر "الياساق" جميع التعاليم التي يجب على المقاتل من المغول اتباعها قبل المعركة وأثناءها وبعدها في دقة تامة، حتى صارت عجلة

---

(١) رحلة بن بطوطة، القاهرة، ١٩٣٨، جـ ١، ص٣١٠.
(٢) الخربوطلي : المرجع السابق ص٥٠.
(٣) الصياد : المغول في التاريخ، ص٣٤٤.

التتار الحربية قوية الانطلاق تشبه في حركاتها دوي الزلازل والبراكين أو انهمار السيول الجارفة من أعلي قمم الجبال.

وتبدو صفات المغول الرعوية في نظمهم الحربية التي أكسبتهم بيئتهم القاسية الشجاعة والإقدام، وقوت فيهم روح المخاطرة ومنحتهم الجلد والصبر وتحمل الجوع[١] خلال الحروب أيامًا، فيكتفون بأقل القليل، وعوّدتهم البيئة القاسية أيضا تحمل البرد القارص والحر اللافح[٢].

أما حلبات الصيد عند المغول فهي ميدان التدريب العسكري، ومباريات الصيد هي حلقات تدريب الجيش، وكان قتل الحيوانات خلال الصيد هو تدريب على قتال الأعداء في ميادين القتال[٣]، وكان الجندي إذا أخطأ في إصابة الهدف أمر قائده بضربه بالعصا أو بقتله أحيانًا، كما كان القتل أيضا عقاب كل من يرتكب خطأ ولو يسيرًا[٤].

وجعل "اليساق" الجندي مسئولا عن سلاحه، وسلاح سائر الجندي فيقول: " ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال وإن كان خلفه أحد، فإن عليه أن يترجل ويناول صاحبه ما يسقط منه، فإن لم يفعل قتل"[٥].

وكان وضع خطط القتال من أهم الأعمال في حياة المغول الذين لم يعرفوا شيئًا غير التدمير والهجوم على ما جاورهم من بلاد، وبلغ من اهتمامهم بخطط القتال أنهم كان يدرسونها في مؤتمر عام هو(القور يلتاي) يجتمع فيه كبار رجال الجيش تحت رئاسة جنكيز

---

(١) هارولد لامب: جنكيز خان، إمبراطور الناس كلهم، ص٣٩.
(2) Howorth, Hist; of Mongols, VoL.1، P. 18.
(٣) الخربوطلي: المرجع السابق ص ٥٢.
(٤) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد ٧، العدد ٤ ص١٣٧.
(٥) المقريزي: الخطط: جـ٢، ص٢٢.

خان نفسه، وفيما بعد تحت إشراف أولئك الذين خلفوه على عرش التخريب والفساد.

وكانت تعرض على المحاربين المجتمعين في المؤتمر خطة الحرب والبلد المقصود تدميرها أو الهجوم عليها، ويشترك الجميع في المناقشة بحرية تامة، ومن ثم اتصفت خطط المغول الحربية التي وضعت في(القوريلتاي) بالدقة والعنف، ودُرست دراسة مستفيضة، واعتمدوا فيها على المعلومات التي جلبها جواسيسهم المدربون المنتشرون في الأقطار المجاورة.

وقد جرت عادة التتار على إحكام خططهم حتى يفاجئوا بها العدو، ولا يدعوا له فرصة للإفلات من شباك الموت التي ينصبونها له(١).

وكانت تعاليم "الياساق" تحتم الطاعة التامة، فنصت على: "يعاقب بالموت كل من يشرع في نهب العدو قبل أن يصدر القائد العام الأمر بذلك، على أن يصبح لكل جندي نفس الحق الممنوح للضباط بمجرد صدور هذا الأمر، ويحق للجندي الاحتفاظ بما استولي عليه من أسلاب، وذلك بعد نصيب القائد".

كما شمل "الياساق" نصوصًا تثير الرعب في قلوب الجند وتخوفهم من المصير المؤلم الذي ينتظرهم إذا خالفوا الأوامر، فكانت "الياساق" تحتم على الجندي حضور المؤتمر العام(القوريلتاي) الذي يُعقد لرسم خطة الغزو، أما من يتخلف عن هذا المؤتمر، فقد نص "الياساق" على عقابه إذ يقول: "أن كل من تحدثه نفسه بالبقاء في خيمته بدلاً من المجيء إلى المؤتمر للاستماع إلى أوامري فمصيره الصخر، يُلقى في قاع البحر أو يقتل بالسهم في وسط الغابات"(٢).

---

(١) العدوي : العرب والتتار، ص٤٠.

(٢) الخربوطلي المرجع السابق، ص٨١ – ٨٢.

لقد تعرضنا لقوانين المغول الخاصة بالحرب لنبين أن الجيش المغولي كان أداة تدمير وتخريب وسفك دماء، وخير ما يصور ذلك عبارة جنكيز خان قالها لجنده خلال غزواته: "مزقوا هؤلاء الأعداد إربًا إربًا، اطردوهم أمامكم، استولوا على ممتلكاتهم، علقوا من تحبونهم على أسلحتكم، حطموا نساءهم وبناتهم".

وكانت أسعد أوقات جنكيز خان هي التي يحطم فيها أعداءه ويستولي على ممتلكاتهم ويرى الدموع تتساقط من عيون نسائهم وأطفالهم(١).

أما عن ديانة المغول ومعتقداتهم فلم يكن للمغول دين واحد بعينه يجتمعون عليه، بل كانت طوائفهم تتنازع الديانات من وثنية وبوزيه وشامانية(٢).

ويشير المؤرخون إلى أن المغول لم يعرفوا في البداية دينًا واضحًا، أو يؤمنوا بعقيدة معينة، نظرًا لما عاشوه من بداوة وعزلة في منغوليا، ونظرًا للظروف التي عاشوها وقسوة الطبيعة حولهم وجفاف البيئة وجبروت الطقس وفقر الصحاري، التمس المغول قوة تحميهم من الأخطار وتمنحهم ما كانوا في حاجة إليه من وسائل العيش وترعى ما يملكون من حيوانات(٣).

ورغم اعترافهم بإله عظيم قادر، إلا أنهم لم يؤدوا له الصلوات، وكانوا يعبدون طائفة من الآلهة المحنطة، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يقدمون لها القرابين والضحايا، واعتقدوا فيها من النفوذ والقدرة على إيذائهم، كما عبدوا أيضا أرواح أجدادهم القدامى لاعتقادهم أنها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم(٤)، وسجد بعضهم

---

(١) الخربوطلي : المرجع السابق، ص ٨٢.

(2) Morgan، Op. cit., P. 41.

(٣) مصطفى طه بدر : المرجع السابق، ص ٥٦.

(٤) أرنولد توينبي : الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥١.

للشمس عند شروقها، وعظَّم بعضهم النجوم وعبدوها، ومنهم من عبد النار وقدَّس أرواح الأجداد[1]. وكان من أبرز عقائدهم عبادة الكواكب والشمس، وكانوا يعبدون الكلاب ويأكلونها وكذلك الدواب والخنازير. وكانوا إباحيين لا يعرف الولد منهم أباه، وكانوا يعبدون آلهة محنطة، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا، لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم[2].

أما الشامانية –Shamanism– فهي نوع من الديانة الوثنية، كانت تتمثل في عبادة كل ما يخشونه ويرهبونه، وكان جنكيز خان على دين الشامان أسلافه الأقدمين[3]. ولكي يوفق المغول بين القوي السماوية والعالم السلفي، فإنهم كانوا يلجئون إلى الكهنة وهم الشامان –Shamans– والسحرة أو إلى رجال الطب الذين كانوا يعتبرون ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم، وعندما خرج المغول لغزوالشعوب المجاورة في عهد جنكيز خان فـإنهم تأثـروا بمدنية تلك الشعوب، وخرجوا عن بداوتهم الأولى حين وجدوا أنفسهم جنبًا إلى جنب مع أصحاب الديانات السماوية الراقية[4].

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شـذرات الذهـب، جـ٥، ص٥٤٢، ابن الأثير: الكامـل في التاريخ جـ٢، ص١٣٨، إبراهيم العدوي : العرب والتتار، ص ٢٧.

(٢) الخربوطلي : المرجع السابق ص ٧٨ ـــ ٧٩.

(٣) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام بين المغول والتتار، صحيفة الجامعة المصرية، ١٩٣٣، ص٢٦، الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٣٤.

(٤) رنولد توينبي : الدعوة إلى الإسلام، ص١٩١(بحث).

ويذكر "بارتولد" أن الشامانية ديانة وثنية بدائية، وإن اشتملت على فكرة البعث والحساب ولكن بطريقة مختلفة(١).

وكانت هذه فرصة لانتشار السحرة والمشعوذين وتغلب الخرافات وسيطرة القسيسين الشامان السحرة على عقول البسطاء وغدت لهم بمرور الوقت مكانة لدى الحكام. وقد اتفق على أن الشعوب التي اختلط بها المغول على أثر فتوحاتهم كان يقيم بين أفرادها عدد كبير من المسلمين والبوزين والمسيحيين(٢)، وتنافس أتباع هذه الديانات الثلاث الكبرى لتحويل أولئك الغزاة إلى دينهم. ولما هدأت ثائرة

---

(١) بار تولد : الترك في أسيا الوسطى، ص١٨٦.

(٢) البوزية : لقد كانت ديانة منتشرة بين القبائل التركية في شرق أسيا حيث جاء أصحابها من الهند وأشاعوها في الصين والبلاد المجاورة، وبالنسبة للمسيحية فيبدوان المبشرين بها قد وصلوا لمنطقة ما وراء النهر قبل عهد قسطنطين العظيم، واعتنقت بعض القبائل التركية النصرانية على يد الأساقفة النساطرة في أواخر القرن الثامن الميلادي.

وتوجد دلائل أثرية مكتوبة بالصينية والسريانية عام ٣٨١م توضح ورود النساطرة إلى الصين منذ عام ٦٣٥م، ولكن الصينيين طردوا النساطرة وغيرهم من الأجانب عام ٨٤٥م.

والمهم أن قبيلة الأيغور التي كانت تسكن جبال قراقورم حتى جنوبي سمر قند قد تنصرت، واقتدت بها قبيلة الكرايت، وكان ملوكها نصارى يسمى كل منهم " أونك خان " ومعناه: الملك يوحنا.

وقيل إن الأساقفة النساطرة كانوا يسمونهم ملوكًا وكهنة معًا، ولذلك عرفهم الأوربيون باسم الكاهن يوحنا -Prester Johen- ومنهم أحد عماله المسمى تيموجين الذي غلبه على ملكه سنة ١٢٠٣م، وهو المشهور في التاريخ بجنكيز خان، وقد تزوج ابنة شقيق أونك خان وهي نصرانية، وأنجب منها منكوخان.

انظر في ذلك :

- لويس شيخو اليسوعي : النصرانية بين قدماء الأتراك المغول، مجلة الشرق، السنة ١٦، ١٩١٣، ص ٧٥٤ -٧٧٢، بار تولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزوالمغولي، ص ٦٥.

المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية وتركوا التخريب والتدمير وظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى، فأعفوا رجال الدين من الضرائب، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، بل واعتاد الخانات العظام للمغول حضور الاحتفالات الدينية الخاصة بالمسلمين والمسيحيين والبوزيين ضمانًا لالتفاف الجميع حولهم وتأييدهم لهم(١).

ومما يذكر أن عددًا كبيرًا من المغول قد تحول إلى المسيحية، ولذلك فمن المحتمل أن وانج خان ــ Wang khan ــ زعيم قبائل الكرايت المغولية التي كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال وتدين بالمسيحية، وهوبرستر يوحنا – John–rester – الذي ذاع صيته في أوروبا، ودارت الأساطير حول مملكته المسيحية الفخمة في قلب أسيا التي ألهبت خيال أهالي أوروبا في العصور الوسطى، هذا فضلاً عن أن المغول عرفوا المانوية(٢).

---

(١) أرنولد توينى : الدعوة للإسلام، ص١٩١، جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط، ص٢٦١.

– برسترجون : أسطورة تاريخية قديمة عن التتار. **انظر في ذلك :**

– مذكرات جوانفيل القديس لويس، ترجمة حسن حبشي، ط١، دار المعارف، ١٩٦٨، ص٢١٢ ــ ٢١٩.

(٢) المانوية : من أشهر الفرق الدينية التي كثر أتباعها، وقد ولد ماني مؤسس المانوية سنة ٢١٥م أوسنة ٢١٦ م، وعاش مذهبه برغم ما لقي من اضطهاد حتى القرن الثالث عشر، وكان له أتباع كثيرون في أسيا وأوربا، وكانت تعاليمه مزيجًا من الديانة المسيحية والذردشتية، ويتلخص مذهبه في أن العالم –كما قال ذردشت– نشأ عن أصلين وهما : النور والظلمة، وعن النور نشأ كل الخير وعن الظلمة نشأ كل شر.

وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم امتزاجًا تامًا، وهو بهذا لا يخرج عن تعاليم ذردشت، ولكن يخالفه في نزعته وهي أشبه ما يكون بالرهبنة،=

قبل أن تنتشر المسيحية النسطورية بينهم، وإن كان الإسلام لم ينتشر بينهم، وذلك أنه لم يرد عن الدعوة إلى الإسلام شيء رغم وجود كثير من التجار المسلمين في عاصمة جنكيز خان وهو لا يزال في شرق منغوليا، إذ ليس لدينا في هذا الصدد سوى رواية واحدة فقد كان شقيق زوجته أحد زعماء الماركيت ويحمل اسمًا إسلاميا وهو "جمال خوجه"(١).

وقد عرف المغول بعد ذلك عقائد أخري اختلفت عن الوثنية الشامانية وأصنام البوزية، فقد نفذت إليهم المسيحية والإسلام، ولم يوالوا اليهودية أي اهتمام(٢):

وذكر "جوانفيل" أنه يوجد بين التتار كثير من المسيحيين الذين يعتنقون عقيدة الإغريق إلى جانب النصارى الذين تنصروا، وإذا أراد التتار محاربة المسلمين عمدوا إلى إرسال هؤلاء العيسويين لقتالهم كما يصطنعون الإسلام في أي حرب ضد النصارى، وجرت عادتهم أن يصحبوا إلى ميدان القتال جميع صنوف النساء غير المعيلات، وهم يأجرون هؤلاء النسوة كما يؤجرون الرجال على السواء تبعًا لقوتهن وضراوتهن، وذكر لنا رسل الملك أن الرجال والنساء يأكلون معًا في معسكرات الشيوخ الذين يعملون في خدمتهم، ولا يجرؤ الرجال على

= فحرم النكاح حتى يستعجل الفناء، ودعا إلى الزهد، وشرع الصيام سبعة أيام في كل شهر، وفرض صلوات كثيرة ونهى عن ذبح الحيوان.

وكان أتباع المانوية يتسترون بالإسلام أو النصرانية؛ حتى يكونوا بمأمن من الاضطهاد. وقد أطلق المسلمون على أتباع المانوية "الزنادقة".

انظر في ذلك :

- أحمد أمين : فجر الإسلام، ص ١٠٦ ــ ١٠٨.

(١) بار تولد : تاريخ الترك في أسيا الوسطى، ص ١٥٤.

(٢) بار تولد : تاريخ الترك في أسيا الوسطى، ص ٦٤.

مس النسوة بأية صورة، وذكر رسل الملك لويس أنه شاهد معسكر التتار به ثمانمائة كتيبة صغيرة محملة على عربات خشبية[1].

ولم يكن انتشار المسيحية ثم الإسلام بين المغول أمرًا سهلاً وإنما احتدم الصراع بينهما وبين الشامانية والبوزية فترة طويلة، حتى نفدت إليهم المسيحية والإسلام في النهاية واعتنقها فريق منهم[2]، ولكنهم لم يولوا اليهودية أي اهتمام[3].

ولم يكن انتشار المسيحية ثم الإسلام بين المغول أمرًا سهلاً وإنما احتدم الصراع بينهما وبين الشامانية والبوزية فترة طويلة حتى نفذت إليهم في النهاية واعتنقها فريق منهم.

خلاصة القول: أنه لم تكن ديانة المغول معدودة ضمن تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم جهود الأديان الكثيرة لإتباع الأنصار، وأن هذا اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل وهذه الهيئات المنظمة للمعلمين الدينيين[4].

ويذكر المؤرخ -أبو المحاسن- أن المغول لم يكونوا يدينون بدين واحد، بل كانوا يأخذون عقائد المسيحية والبوزية والإسلام، ويمارسون بعض طقوسها جميعًا دون أن يؤمنوا بها ككل، والدين وحدة لا تتجزأ، وهكذا أصبح المغول يدينون بعقائد جزئية تحمل كثيرًا من الأسماء، لا يجمعهم دين واحد يمكن أن يكون الرباط الذي يربط المغول جميعًا، ويصلح لأن تقوم عليه دولتهم.

والدين ليس فرائضًا أو طقوسًا فحسب، بل هو نظم وحضارة أيضا، وتعدد الأديان يؤدي إلى تعدد النظم والحضارات[5].

---

(١) جوانفيل : القديس لويس، ص ٢١٧.
(٢) أرنولد توينبي : الدعوة إلى الإسلام، ص ١٩.
(٣) بار تولد : تاريخ الترك في أسيا الوسطى، ص ٦٤.
(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، جـ٤، ص١٣٣.
(٥) أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٧، ص ٢٢.

وللأمانة كان علينا أن نوضح أن الغزو التتاري لم يكن كله شرًا على الرغم مما أحدثه من تدمير واعتداء على الحضارة المدنية، فقد أعقب الغزو حركة إحياء ضخمة انبعثت من بين أنقاض وآثار الحضارة التي دمرتها غارات هؤلاء البرابرة(١)، إذ ترتب على سقوط بغداد حاضرة الدولة العباسية في أيدي هؤلاء البرابرة في عام ١٢٥٨م التي لم يسلم منها سوى المماليك في مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا المسلمة أن انتقل مركز الدراسات الإنسانية إلى مصر، حيث تفرق علماؤها في كل أنحاء العالم الإسلامي فأضاف ذلك إلى الحركة العلمية في الجهات التي حلوا بها، وجاء انتعاش الحركة العلمية في مصر وبعض البلاد الإسلامية الأخرى، وأفاد ذلك الغرب الأوروبي الذي كان معنيًّا بثقافة وعلوم الشرق(٢).

روسيا قبل الغزو المغولي:

من هم الروس :-

أثبت العلماء الأوائل أن الأراضي التي تتكون منها روسيا* ظهرت منذ أكثر من نصف مليون عام، وعاشوا في المناطق الجنوبية في القفقاس والقرم وأسيا الوسطي، ومنذ حوالي مائة ألف عام بدأ تجمد الأراضي في أوروبا واسيا. وغطت الكتل الجليدية التي تحركت من الشمال مساحة تصل حتى المجري المتوسط لأنهار الدنيبر والدون والفولجا، وانتصر الروس في كفاحهم مع الطبيعة، فتعلموا الحصول على النار.

ومنذ حوالي أربعين ألف عام بدأ التكوين البدني للإنسان ومنظره الخارجي في الاقتراب مما عليه الآن(٣).

---

(١) العريني : المغول، ص ٢٥ ــ ٢٦.

(2) Camb.Med. Hist., Vol.8,L.667.

(٣) روسيا : من الضروري أن نذكر أن لفظ روسيا لم يوجد في لغة من اللغات الأوروبية أو غيرها للدلالة على البلاد المعروفة الآن بهذا الاسم، إلا إبان=

وقد كشف العلماء في القرم في المنطقة الوسطي من روسيا، وفي سيبريا وبقايا المستوطنات القديمة التي سكن فيها هؤلاء، واكتشفوا فيها سكاكين حجرية ورماحًا ومقاشط وابر من العظم، وساعدتهم هذه الأدوات في الصيد ليبقوا في مكان واحد مدة طويلة وكانوا يجهزون الكهوف للسكنى.

ومع تراجع الجليد ترك الناس إلى الشمال، حيث بحر البلطيق، ونشأت الزراعة البدائية والرعي، وتعلم الإنسان أن يصنع الأواني الفخارية والأدوات المعدنية، وأصبح هناك عائلات كونت قبائل، وامتلكت الأراضي والمراعي والماشية[1].

وكانت القبائل تدخل في حروب ضد بعضهم البعض، وتحول الأسرى الذين كانوا يُقتلون من قبل إلى عبيد، وتكونت أول دولة أورارتو التي وصلت إلى قمة ازدهارها في القرن الثامن قبل الميلاد، وفي نهاية هذا القرن دخلت في صدام مع الدولة الآشورية القوية واستولت عليها، وتكونت على أراضيها دولتا أرمينيا وجورجيا[2].

=القرن التاسع الميلادي، وان المؤلف استخدم لفظ روسيا تجوزًا فيما كتب عن أحوالها قبل ذلك من القرون، وان معظم الروسيين أهل روسيا الحالية من الصقالبة الشرقيين، تميزًا لهم عن الصقالبة الغربيين الساكنين فيما يعرف الآن ببولندا، بوهيميا، وتشكوسلوفاكيا.

انظر في ذلك :

- هـ. أ.ل فشر : تاريخ العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني ، القسم الثاني ، ط٢ ، دار المعارف ، ص٤٠١، حاشية١.
- الكسييف كارتسوف : موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، موسكو، دار التقدم، ١٩٧٤، ص٤.

(١) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـ٤ – ٥ .

(٢) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـ٥ – ٦.

وقد تكونت بعد ذلك القبائل السلافية السكان الأصليون في أوروبا الشرقية، وعلى الأراضي الواسعة التي تمتد من بحر البلطيق حتى المنطقة الشمالية للبحر الأسود، وعلى ضفاف نهر الدنيبر والدنيستر، وفي أعالي نهري أوكا والفولجا عاش السلاف الشرقيون، سلالة الروس والأوكرانيين والبيلوروسين[١]، واستقرت كتلة سلافية فوق مساحات شاسعة من شرق أوروبا بعد أن انسابت إلى هذه البقاع في هجرتها صوب الغرب.

والمعروف أن السلاف يرجع أصلهم إلى الجنس الهند –أوربي –Indo–Europene وهاجروا إلى تلك البقاع في أوروبا، وشكلوا كتلة كبيرة أخذت تتوسع تدريجيًا نحو الغرب والجنوب في أوروبا لتغطي أجزاء كبيرة من شرق القارة وشمالها وجنوبها الشرقي، وخضعت جموع كثيرة منهم لقوى أخرى استعبدتهم وأنزلتهم إلى مرتبة العبودية، أي جعلتهم عبيدًا –slaves–[٢].

ومن هذه الرتبة استمدوا (سلاف) خاصة أنهم لم يظهروا مقاومه كبيرة لدفع العناصر الأقوى منهم، بل جنحوا إلى المسالمة إيمانًا منهم بأن إمكاناتهم خاصة بالإمكانات السياسية لا تؤهلهم للوقوف في وجه تلك العناصر[٣].

---

(١) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، ص٦.

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، ص٢٢١.

(٣) أجمع الباحثون على اعتبار البلغار ضمن المجموعة السلافية على الرغم من اختلافهم عن السلاف في الأصل والعرق، حيث أن البلغار تأثروا إلى حد كبير بتنظيم السلاف وأساليبهم في الحياة والعادات. ويرجع بعض الباحثين مثل –بارتولد– أن البلغار نتاج الاختلاط الجنسي بين السلاف والترك.

انظر في ذلك : –

– سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، صـ١١٦.

- morfill، Russia، op. cit., P.4 ; Orton، op. cit., P.300.

وإذا أردنا تحديد البقاع والأقاليم التي انتشر فوقها السلاف، وكيف كانت حركتهم التوسعية في شرق أوروبا وروسيا، وجدنا أنهم نزلوا في البلقان(١)، والمناطق التي عرفت بعد ذلك ببلغاريا وكرواتيا وصربيا وهنغاريا ومورافيا وبوهيميا وبولندا وشرق ألمانيا فضلاً عن روسيا، ولم تكن حركة السلاف قاصرة على الشعوب السلافية وحدها وإنما شملت شعوبًا أخرى تأثرت بالسلاف وسايرتهم في العادات وأساليب الحياة والنظم مثل البلغار والصرب والهنغاريين أو المجريين وبعض الشعوب الأخرى(٢).

حياتهم وعاداتهم وقوانينهم ومعتقداتهم :

أما عن معيشة السلاف التي كانت تقع أراضيهم على ضفة النهر في متاهات الغابات الكثيفة المظلمة، وكانت جذوع الأشجار تحميهم من الوحوش المفترسة والأعداء.

وكانت الزراعة هي العمل الرئيسي للأسلاف القدماء، وكانت زراعة الأرض أمرًا صعبًا خصوصًا في مناطق الغابات، فكان عليهم التخلص من الأشجار بالعمل المشترك بقطع الأشجار بالفئوس، حتى تجف ثم يضرمون النار فيها، حتى تصبح رمادًا وتسمد به الأرض، ويكونون جماعات لحرث الأرض بالمحراث الخشبي، وكانت لديهم ماشية قليلة، قدمت لهم الغذاء والجلد وغيره(٣).

وبعد هذه التجمعات كانت كل قبيلة تختار لها قائدًا أو أميرًا، وهناك حرس الأمير الذين يدافعون عنه، وخاصة عندما دخل السلاف في حرب ضد البيشينيغ الرحل وانتصروا عليهم وبدأت عليهم حياة الاستقرار، وتعلموا صهر المعادن وطرقها في ورش الحدادة، وأصبح

---

(1) Camb. Med. hist, vol. 3, P. 327.

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، ص٦-٧ .

(٣) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، ص٦-٧ .

هناك تعاون مشترك في الزراعة والصناعة، وأصبح هناك فائض من الغذاء.

وبدأت عائلات الأمراء تتميز بثرائها، وكان الأمير يحتفظ حوله بحرسه في وقت السلم والحرب وكان يخرج مع حرسه لجمع الإتاوة، وكانوا يستولون بالقوة على ما يحصل عليه أفراد قبائلهم بعملهم الشاق(١).

وانقسم السلاف إلى قسمين: السلاف الغربيين والسلاف الشرقيين، ويبدو أن السلاف الشرقيين كانوا أوفر حظا من الغربيين، فقد بقوا في شرق أوروبا حتى القرن التاسع الميلادي، أي حتى قدوم الفيكنج السويديين، الذين اندفعوا بعد عبورهم البحر البلطي في الاتجاه الجنوبي الشرقي تجاه نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود، واختلط السويديون بالعناصر السلافية الشرقية في تلك البقاع حيث أطلق عليهم السلاف لفظ –Rus– أي: الحمر(٢)، وأسس الروس دوقية كييف –Kiev– منذ أوائل القرن التاسع الميلادي، حيث أصبحت هذه الدوقية نواة الدولة الروسية(٣).

وقد كانت إمارة كييف ومركزها مدينة كييف تشغل مساحة تمتد من بحر البلطيق في الشمال حتى البحر الأسود في الجنوب، ومن أعالي مجرى نهر الفولجا والدون في الشرق إلى أعالي أنهار دفينا الغربية ونيمان وفستول في الغرب، وفيما بعد أصبحت تابعه أيضًا لإمارة كييف، وكانت السلطة قد تمركزت في يد الأمراء الأغنياء وملاك الأراضي الذين فرضوا الإتاوات بقوة. حتى أنه في يوم من الأيام بعد أن جمع أمير كييف إيغور الإتاوة قرر وهو عائد إلى منزله

---

(١) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، ص ٨–٩.

(2) Camb. Med. Hist., vol.3، P. 327.

(3) Moss، the Birth of middle Ages, PP. 266 – 267.

أنه من الممكن جمع إتاوة أكبر، وعندما عرف الناس أن الأمير عائد إليهم لجمع المزيد من الإتاوة قالوا لأنفسهم: "عندما يبدأ الذئب بسرقة الغنم فإنه يسرق شيئًا فشيئًا القطيع كله، وإذا لم نقتل الأمير فسيجرنا إلى الهلاك جمعيًا".

ونكل الشعب بحرس الأمير وقتل إيغور، ولكن أرملته أرسلت حرسًا جديدًا وعوقب الثوار بقسوة(١).

وظهر زعيم أكثر قوة ارتبط اسمه ببداية تاريخ روسيا وهو روورك –Ruric– وأتباعه الذين سماهم جيرانهم الأصليون في فلندا قبل رحليهم جنوبًا باسم روتسي، وهي تسمية التصقت بهم وصارت علمًا جغرافيًا على جميع البلاد التي حلوا بها منذ سنة ٨٦٢م، وما عدا تسميتهم باسم الفارانجين، ومعناها الأحلاف في لغات الشماليين، ذلك أن جميع الأنهار والبحيرات الممتدة بين البحر البلطي والبحر الأسود لم تلبث أن غدت في قبضة أولئك الشجعان الشماليين بعد أن ثبتوا أقدامهم في نوفجورد –Novgorod– وكييف وأسسوا تجارة واسعة للرقيق، وبنوا أساطيل وجيوشا وإمارات، وأغاروا على القسطنطينية ست مرات(٢).

ومنذ أن ظهرت الدولة الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، واتخذت نوفجورد مركزًا لها أخذت هذه الدولة في التوسع حتى أخضعت الخزر شمالي البحر الأسود(٣)، وامتد نفوذها في تلك الجهات فضلاً عن سيطرة الروس على الطريق التجاري بين البحر البلطي وعاصمتة بيزنطة القسطنطينية، وهكذا بدأ التاريخ الروسي حول شواطئ البحر الأسود، وتكونت أول حكومة للروس

---

(١) الكسيف كارتسوف: المرجع السابق، ص١٠.

(٢) فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، القسم الثاني، ص ٤٠٤-٤٠٥.

(٣) محمد محمد مرسي الشيخ: أوروبا والتتار، ص ١٣٤.

ليكون مجال نشاطها حول الأنهار العظيمة الواصلة بين البحر البلطي والأسود(١).

وقد تزايدت عظمة دوقيه كييف بصفة خاصة بعد أن صارت عاصمة للدولة الروسية منذ أواخر القرن التاسع الميلادي(٢)، وأصبحت كييف واحدة من أكبر وأعظم المدن في أوروبا، وكان يحيط بها سد ترابي ضخم، ويمتد فوقه حائط خشبي عال، وكان السد والحائط يحميان المدينة من هجمات الرحل الذين كثيرًا ما كانوا يهجمون على روسيا من شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين(٣).

وكانت هذه القبائل النصف همجية تسيطر على روسيا الجنوبية، وهذه القبائل هي: الكومان -Cumans- والبلغار - والخزر -Khazars- والبلوفتسي، والبتزينا -Patzinaks-...... أما ما بقي من روسيا الأوروبية فكان مقسمًا إلى أربع وستون إمارة، أهمها إمارة كييف، وفلهينيا -Volhynia- ونوفجورد وسزداليا -suzdalia- وأسمولنسك -somolensk- وريازان -Ryazan- وشرنيجوف - chernigov - وبرياسلافل- pereyaslavl وكانت معظم هذه الإمارات تعترف بسيادة كييف عليها(٤).

وكان أمراء كييف يديرون الدولة فيصدرون القوانين التي تحمي الأغنياء وتجبر المزارعين والحرفيين على الخضوع في كل شيء للأمير، أما من كانوا يرفضون هذه القوانين الظالمة، فقد كان الأمراء يحاكمونهم ويعاقبونهم بقسوة(٥).

---

(1) Fisher, A Hist. of E urope, P. 375.

(2) Tompson, The middle Ages, Vol. 1, P.325.

(٣) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، ص١٠ - ١١.

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة، م٤، جـ٤، عصر الإيمان، صـ١٥٣.

(٥) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـ١١.

أما عن الديانة واعتناق الروس المسيحية، فنجد أن السلاف الغربيين قد اعتنقوا المسيحية في قالبها الغربي اللاتيني، أما السلاف الشرقيين أو الروس كانوا يرتبطون بالكنيسة اليونانية أو الأرثوذكسية وظلوا شديدي الارتباط بالعالم البيزنطي(١) .

وكان من الطبيعي أن تتوثق العلاقات بين الروس والإمبراطوريه البيزنطية، نظرًا لأن الطريق التجاري بين البلطيق والقسطنطينية يمر بأراضيهم، ولكن هذه الصلات لم تكن سلمية طوال الوقت(٢) .

ولقد بنى الروس الأساطيل البحرية وكونوا الجيوش وهيمنوا على الأنهار والبحيرات بين البحر البلطي والبحر الأسود، واتسعت تجاراتهم وتضاربت مصالحهم مع جيرانهم حتى بدءوا في الإغارة على المناطق المحيطة، حتى انشغلت بيزنطة بمحاولة ترويضهم وإدخالهم في المسيحية(٣).

وقد اتسعت تجارة الروس مع بيزنطة خاصة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، فقد كانوا يجلبون لها منتجات الشمال مثل الفراء والأخشاب والأسماك واللحوم والشمع والرقيق، ويعودون حاملين معهم المنسوجات والتوابل والحلي والزجاج والبخور وغير ذلك من المنتجات، كما برعوا في النواحي الإدارية السياسية، فأصبحوا سادة روسيا(٤).

وإلى جانب العمل بالتجارة كانوا أيضًا محاربين أشداء، اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جندًا مرتزقة، وفرقًا للحرس الإمبراطوري، وفي هذا الإطار السلمي جرت العلاقات مع بيزنطة، لكن هذه العلاقات ما

---

(1) Camb. Med. Hist. vol. 4, P. 2.7.

(٢) سعيد عاشور : التاريخ السياسي، جـ١، صـ٦١٧.

(3) Morfill, Russia, P. 119.

(٤) محمد محمد مرسي الشيخ ؛ أوروبا التتار، صـ١٣٦.

لبثت أن ساءت، وتحكمت في هؤلاء الروس نزعتهم الحربية وميلهم للقتال، وكانت أول هذه الغارات الروسية على بيزنطة سنة ٨٦٠م، وتكررت هذه الغارات وفي كل مرة كانت بيزنطة تدفع الكثير من الأموال لفك الحصار عن العاصمة البيزنطية(١) ·

ويعتقد البعض أن العلاقات التجارية كانت سبب مباشر في دخول الديانة المسيحية إلى روسيا، ويبدوان ذلك تم على يد فلاديمير دوق كييف (٩٨٥-١٠١٥م) وهو سليل أسرة رورك(٢) ، ويضرب به المثل في الوحشية والشهوانية، إذ جاء على الدوقية فوق جثة آخر إخوته، وكان حرسه من الحريم يبلغ حوالي ثمانمائة(٣) ، على أن هذا أو ذاك لم يمنع من تسجيله كقديس في عداد القديسين بالكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية، لأن الرجل قد جعل من كييف مدينة مسيحية، وجعل من الروسيين شعبًا على دين المسيح، وزعم بغفران ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر·

ويقال فيما يقال أنه تراءى لهذا المتبربر القدير في مرحله من مراحل حياته الصاخبة أن يفحص لنفسه أصول الديانات الكبرى، كما أنه كره الديانة الإسلامية لا لسبب سوى أنها تحرم الخمر، وقال: "الخمر لذة الحياة وعندنا نحن الروسيين لا معنى للحياة بغير هذه اللذة"، فلما رد عليه أحد الكاثوليكين يقول: "ما يأكله الإنسان ويشربه دليل على عظمة الله"· فأسكته فلاديمير بقوله: "إن آباءنا لم يسيروا على مثل هذا المبدأ"· ولم ير في الكاثوليكية الرومانية ما يغريه بها أو يشتهيه، وعندما أجابه أحد اليهود في خجل وحسره بأن بيت المقدس

---

(1) Camb. Med. Hist. vol، IV، P. 2.7 ; ostrogorski، oP. cit., P.229.
(2) Orton, op. cit., p. 3.2.
(3) Camb. Med. Hist. IV، P. 2.8.

في يد أجنبية، علق فلاديمير على إجابته بقوله: "لو أن الله أحبكم وآباءكم ما كتب عليكم أن تتشتتوا في الأرض. هل تريدنا أن نكون يهودًا، ليكون مصيرنا مصيركم؟!". ولم يتبق لدى فلاديمير سوى الأرثوذكسية وكنيستها البيزنطية، وأيقوناتها المقدسة، وزخارفها من الفسيفساء، وتراتيلها المقدسة الموسيقية الخاشعة، ومباخرها الفائحة بالبخور، وطيالسها الأكليروسية الفاخرة، وصلواتها النظيمة، وطقوسها الجليلة، ما حملته أخبار وفود المبشرين البيزنطيين إلى كييف[1]، الأمر الذي عجل فلاديمير على إرسال وفدًا يستطلع الأرثوذكسية ليسرع ببناء الكنيسة الروسية على نسق الكنيسة البيزنطية[2].

وذهب هذا الوفد إلى القسطنطينية؛ ليروا رأي العين ما وصل إليهم من أخبار عن طريق السماع، فامتلأت قلوبهم إعجابًا بما شاهدوا في أيا صوفيا وصلواتها وقداساتها من الجلال، وكتبوا إلى فلاديمير

---

(١) فشر : أوروبا العصور الوسطى، جـ٢، صـ٤٠٦.

(٢) حققت كنيسة بيزنطة أعظم انتصار لها باعتناق الروس في كييف المسيحية في عهد الإمبراطور باسيل الثاني(ت١٠٢٥م) فقد تلقى الإمبراطور البيزنطي مساعدات حربية هامه من الأمير الروسي فلاديمير للقضاء على ثورة بارداس فوقاس في أسيا الصغرى، ووعد باسيل الثاني الأمير الروسي بأن يزوجه أخته الأميرة أنة Anna، أملاً في أن يعتنق فلاديمير وشعبه الديانة المسيحية ورغم المساعدة التي قدمها الروس للإمبراطور حتى انتصر على ثورات أسيا الصغرى، إلا أنه تردد في أن تصبح ابنته زوجة حاكم بربري، لذلك أغار فلاديمير على الممتلكات البيزنطية في كريميا غير أن ذلك من ناحية أخرى أدى إلى خضوع الروس لتأثيره وإن كان اعتناق الروس للديانة المسيحية الأرثوذكسية جاء نتيجة لنشاط المبشرين البيزنطيين.

انظر في ذلك :

- حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ بيزنطة، صـ٦١.
- ostrogorski، op. cit., PP. 229 – 23.

يشيرون عليه باعتناق المسيحية الأرثوذكسية دون غيرها من الديانات، فإنهم رأوا المسلمين في بعض بلادهم ولم يعجبهم حالهم وهذا نص ما كتبوا للدوق: (ومررنا في طريقنا إلى القسطنطينية ببلاد البلغار المسلمين، ورأينا كيف تكون صلاتهم في معبد يسمونه مسجد، حيث يقفون صفاً صفاً، ثم يركعون ويسجدون ويجلسون، حتى إذ انتهوا من الصلاة تلفتوا يميناً ويسارًا كأنما مسهم الجن، وحياتهم خلو من البهجة، طافحة بالكآبة والرائحة، ولا خير في دينهم. ولما ذهبنا إلى الألمانيين رأيناهم يحتفلون الاحتفالات الكثيرة في معابدهم الوثنية غير أننا لم نشهد بينهم ما يثير روعه وإجلالا، ثم ذهبنا على القسطنطينية وجدنا عمائر شاهقة يعبدون فيها زبهم، فلم ندر إلى السماء ارتفعنا أم ظللنا على وجه الأرض).

وتكررت هجمات الروس على بيزنطة، واستولوا على مدينة حرسون درة التاج البيزنطي واستقطبت عدد كبير من الروس للعمل في بحريتها نظرًا لخبرتهم في الميدان.

وهدد فلاديمير صديقه الإمبراطور باسيل؛ إلا أنه بزواجه من أخته الأميرة أنة، حيث تغلبت مصلحة الإمبراطورية على رفض الأميرة، وتم الزواج في حرسون ٩٨٨م، وتم تعميد فلاديمير، وبذلك صار القرصان الوثني المغامر بعلاً مسيحيًا لسليلة المجد الإمبراطوري التليد، ثم رجع فلايمير إلى كييف وقلبه عامر بحماسة الحديث العهد بالدين، فأمر إثني عشر رجلاً من رجاله الأشداء بكسر صنم الإله "نرون" وهوأحب الآلهة للروس وأوسعها نفوذًا، كما أمر بتعميد أهل دوقية روسيا كلهم مرة واحدة في مياه نهر دنيبر، وعقد النية على أن يجعل كييف مدينه حافلة بالكنائس(١).

---

(١) فشر : تاريخ العصور الوسطى، جـ٢، صـ٤٠٧.

وعلى الرغم من اعتناق الروس الأرثوذكسية فقد ظلوا على فطرتهم، ولم يصبغهم في تلك الفترة ما أصاب الغرب الأوروبي من ظواهر حضارية وما شاب تاريخهم من حروب دينية وهي الحروب التي هزت عروش كثير من الملوك والحكام في الغرب الأوروبي، ولم يعرف الروس أيضًا ما عرفه الغرب من نزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، وترتب على ذلك من صراع بين البابوية والإمبراطورية، وهو النزاع الذي أضاف إلى خبرات الغرب الأوروبي وصقل تجارب شعوبه، ولكن روسيا هذه بقيت في عزله في الشرق بعيده عن المؤثرات الروحية التي تأثرت بها شعوب أوروبا، وبقيت كذلك حتى القرن العاشر الميلادي(١).

على أن الكنيسة البيزنطية جلبت معها إلى روسيا فوائد كثيرة لا سبيل إلى إنكارها، من موسيقى دينية وأدب ومعمار بديع، ومستوى نظيم في شئون الحكم، وآراء ناضجة في القانون، فضلاً عن قيم أخلاقية عالية، وهي قيم تتحلى بها المسيحية كائنة ما تكون كنيستها، وتختلف تمام الاختلاف عن العرف السائد بين الروسيين قبل أن يصبحوا أرثوذكسيين، والدليل على ذلك أن النضال ضد تعدد الزوجات في روسيا المسيحية، وهو نضال طويل وعسير، لم يلق ما لقي من نجاح مجزوء إلا بفضل الكنيسة الروسية الأرثوذكسية وحدها، وبذلك بدت كنيسة قومية خاصة، لا فرعًا من كنيسة عالمية، غير أن هذه الفوائد كلفت روسيا ثمنًا باهظًا، وهو عزلتها التامة عن غرب أوروبا، فضلاً عن عجز كنيستها بسبب خضوعها للدولة(٢).

وكانت روسيا خاضعة للحكام من سلالة روريك، الذين يعتقدون أن الإمارات الروسية إرث لا يتجزأ، بل توزع على أفراد الأسرة

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، صـ١٣٤.
(٢) فشر : أوروبا العصور الوسطى، جـ٢، صـ٤٠٧.

الحاكمة حسب السن، بحيث يكون الأكبر سنًا هو الأعظم جاهًا والأوسع سلطانًا، ورغم أن ياروسلاف القانوني -yaroslav- أمير كييف الأكبر حاول توحيد الإمارات تحت سيطرة كييف من عام (١٠١٥: ١٠٥٤م) إلا أنه لم يستطع ذلك.

ولما قاربت منية ياروسلاف قام بتوزيع الولايات الروسية بترتيب أهميتها بين أبناءه حسب سنهم، فأعطى أكبرهم إمارة كييف، ثم وضع نظامًا دوريًا يقضي بأنه إذا مات ينتقل الباقون من الأمراء كل منهم إلى الولاية التي تلي ولايته في الأهمية، وانقسمت طائفة من الأمراء على أبنائهم، ثم أصبحت هذه الإقطاعيات وراثية على مر الزمن، فكانت أساسًا للنظام الإقطاعي المعدل الذي تعاون فيما بعد(١).

وكانت سلطة كل أمير وراثية في العادة، ولكنها كانت تحددها جمعية شعبية تسمى الفيشي -veche- ومجلس أعيان البلاد ويدعى بوياسكايادوما -Boyayskayaduma- وتركت معظم الشئون الإدارية والقانونية في أيدي رجال الدين، وكانت معرفة القراءة والكتابة تقتصر على هؤلاء وهم عدد قليل من الأعيان والتجار والمرابين.

وقد استعان هؤلاء بالنصوص أو النماذج البيزنطية، فأنشئوا لروسيا آدابها وقوانينها ودينها وفنونها، وبفضل جهودهم هُذبت وحُددت الحقوق أوالقوانين الروسية - Pravda –russkaya - التي وضُعت أول مرة في أيام ياروسلاف، وجعلت للكنيسة الروسية الولاية التامة على شئون الدين ورجاله، وشئون الزواج والأخلاق والوصايا، فكان لها سلطان مطلق على الأرقاء وغيرهم من الموظفين الذين يعملون في أملاكها الواسعة(٢).

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة، صـ١٥٣.
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، صـ١٥٣- ١٥٤.

وساندت الكنيسة المسيحية الأرثوذكسية مدينة كييف بقوة، حتي أن الأمراء وفقا لشهادة المعاصرين بنوا بها حوالي أربعمائة كنيسة، وقد بنيت هذه الكنائس على ارتفاع أعلى من المباني الأخرى، الأمر الذي كان يرمز إلى قوة الدين المسيحي وكانت الأشكال المعمارية الكاملة وجمال الزخارف الداخلية في كاتدرائية أيا صوفيا المبنية من الأحجار البيضاء لا تزال وحتى أيامنا تدعو إلى الإعجاب الشديد(١)٠

وقد أنشئت في كييف ونوفوفجارد وفي المدن الأخرى أول المدارس التابعة للكنيسة، وأخذ يزداد في روسيا عدد المتعلمين، وكانت الكتب تكتب باليد بريش الأوز، ولم يُعرف الورق في ذلك الوقت، واستخدم بدلاً منه جلد العجول المدبوغ بدقة والمسمى ورق الرق وللمراسلة استخدم كذلك لحاء شجر البتولا، ووجد العلماء بضعة مئات من مثل هذه الرسائل أثناء التنقيب في نوفوفجارد، وبقيت حتى يومنا هذا كتابات عن أهم الحوادث في تاريخ روسيا الكيفية(٢)٠

وشهد هذا القرن نفسه اضمحلال مدينة كييف وسقوطها، فقد كان للفوضى الإقطاعية السائدة في غرب أوروبا مما يمثلها من الفوضى السائدة بين القبائل والأمراء، وشبت بين عامي ١٠٥٤:١٢٢٤م ثلاث وثمانون حربًا أهلية في روسيا، وأغير عليها ست وأربعون مرة، وشنت دول روسية ستة عشر حربًا على شعوب غير روسية، وتنازع مائتان وثلاث وتسعون أميرًا عرش أربع وستين إمارة، وحدثت في سنة ١١١٣م اضطرابات ثوريه في كييف كان سببها ما حل بالأهليين من فقر جراء الحروب، وارتفاع سعر الفائدة على الديون، والاستغلال والتعطيل لمصالحهم، وهاجمت الجماهير الحانقة الثائرة بيوت رجال الأعمال والمرابين ونهبت، واحتلت الدواوين الحكومية، وبسطت سيادتها عليها(٣)٠

---

(١) الكسيف كارتسوف : المرجع السابق، صـ١١- ١٢٠

(٢) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـ١٢٠

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة، ص١٥٤٠

واستدعت الجمعية البلدية مونوماخ –Monomoka– الأكبر أمير برياسلافل ليكون أمير كييف الأعظم، وجاء الأمير وهو كاره، فقد قام بخفض سعر الفائدة على القروض، وقيد بيع المدينين المفلسين أرقاء من تلقاء أنفسهم، كما قيد سلطة أرباب الأعمال على العمال والموظفين فاستطاع بفضل هذه الوسائل التي لم يرضى عنها الأغنياء ووصفوها بأنها مصادرة لأموالهم أن ينجي المدينة من الثورة ويعيد تنظيم السلام في ربوعها، وبذل جهودًا كبيرة للقضاء على نزاع الأمراء وحروبهم، وتوحيد روسيا من الوجهة السياسية، ولكن هذا العمل كان أكبر من أن يقوم به في حكمه الـذي لـم يدم أكثر من اثني عشر عامًا(١).

وتولى الحكم بعد ذلك أمير كييف فلاديمير الثاني مونوماخ (١١١٣–١١٢٥م) وهو أخر واحد من أمراء كييف يحكم جميع قبائل الروس، وأعقب ذلك حاله من الفوضى والانقسام سادت جميع أنحاء البلاد(٢)، حيث عاد النزاع بين الأمراء وبين الطبقات بعد موته، حيث سيطرت القبائل الأجنبية سيطرة مستمرة على المجاري الدنيا لأنهار الدنستر والدنير والدن، وكان نمو التجارة بعيدًا عن الأراضي الروسية ودويلات البحر البلطي، ومن جراء ذلك بدأ الهمج منذ عام ١١٢٥م يغيرون عليها وما حولها من الضواحي وينهبونٍ الأديرة، ويبيعون أسراهم الفلاحين بيع الرقيق، وأضحت كييف مكانًا غير آمن فتناقص سكانها، وأدى ذلك إلى نقص الأيدي العاملة فيها والمدافعين عنها(٣).

وفي أثناء هذه الحروب انتهك أحد أبناء الأسرة الحاكمة في كييف حرمة المدينة في سنة ١١٦٩م ونهبها وخربها عامدًا متعمدًا مع سبق

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة، صـ١٥٤.
(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، صـ١٥٤–١٥٥.
(3) Camb. Med، Hist. vol، 7، PP. 607 – 608.

الإصرار، وهي المدينة ذات الكنائس الأربعمائة، كل ذلك لأن هذا الابن رأى أن ينقل عاصمة الدوقية من كييف الواقعة على نهر الدنيبر إلى مدينة اختارها لنفسه في جوف الغابات التي جاء منها وكان اسم هذا الابن أندري بوجوليوسكي سوذال، وهو جدير بشيء من العناية إذ إليه يرجع الفضل في تركيز الجهود الروسية مرة أخرى في الغابات النائية بسهول روسيا الوسطى، وهي السهول التي طالما سعى الروسيون الغربيون في مناكبها طلبًا للعيش، وأنجتهم من غارات القبائل المتنقلة(١)٠

وقام جيش بجوليوسكي بنهب كييف وخربها تخريبًا كاملاً، واسترق آلافًا من أهلها حتى كادت(أم المدائن الروسية) يغفو ذكرها من التاريخ مدة ثلاثة قرون، وأتم هذا الخراب الذي حل بكييف استيلاء البناقة الفرنجة على القسطنطينية وغارات المغول على روسيا(٢) ٠

وبسقوط كييف نختتم المرحلة الأولى من تاريخ روسيا، وهي مرحلة أتم الفارانجيون السويديون أثناءها كثيرًا من الأعمال، على حين ما حاولوا إتمامه كان أكثر، إذ أسسوا دولة روسية عظيمة بتأسيسهم دوقية كييف، وشنوا حربًا عنيفة ضد البيزنطيين والبلغاريين وعلى قبائل البولوفسيتين أو الكومان المتبربرين بجنوب روسيا، كما شنوا حروبًا عنيفة ضد بعضهم البعض(٣) ٠

وبعد سقوط مدينة كييف اتخذت مدينة سوزدال –suzdal– الروسية في الشمال الشرقي من روسيا أهمية فائقة(٤) ٠

---

(١) فشر : أوروبا العصور الوسطى، جـ٢، صـ٤٠٨ – ٤٠٩٠

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة، صـ١٥٥٠

(٣) فشر : أوروبا والعصور الوسطى، جـ٢، صـ٤٠٩٠

(4) Morfill، Russia، P. 36 ; camb. Med. Hist. vol، 7, P. 609.

وانقسم الروس بعد ذلك إلى مجموعتين كبيرتين: الروس الصغار في الجنوب والروس الكبار في الشمال، واستطاع الفريق الأخير أن يتوسع شمالاً ويكتسب أراضي جديدة، ولم تكد هذه الدولة تفيق حتى دهمتها غزوات المغول في القرن الثالث عشر لتوقف تقدم هذه القوة الأوروبية [1].

□ □ □

(1) Orton، op. cit., P. 3.3.

الفصل الثاني

الغزو المغولي

لجنوب روسيا ١٢٢٢–١٢٢٣م

أولاً : ظهور جنكيز خان وتوحيد منغوليا :

ولد تيموجين في منغوليا سنة ١١٥٥م على الضفة اليمنى لنهر الأونون في منطقة دولون بولداق –dwlwn - Boldhq– وتوجد اليوم في الأراضي الروسية على خط ١١٥ شرقي جرينتش(١)، وكان أبوه رئيسًا لقبيلة "قيات" من القبائل المغولية.

ويذكر –هارولد لامب– أن سبب تسميته "تيموجين" يرجع إلى أنه عندما ولد كان أبوه غائبًا في غارة على عدوله اسمه تيموجينا، وقد حالف الحظ الوالد في البيت وفي الغارة، إذ أنه أسر عدوه وأصبح والدًا أيضًا، فلما رجع داره سمي ولده باسم عدوه الأسير.

ويقال أنه عندما ولد تيموجين وجدت إحدى يديه قابضة على قطعة متجمدة من الدم، فلما تداول الحاضرون الحديث عن غرابة ذلك، قال أحدهم إن هذا الطفل سوف يكون ملكًا عظيمًا(٢).

وكان هذا المولود الذي سماه والده باسم تيموجين موضع اهتمام والده يسوكاي، فكان يصحبه معه في رحلاته، وصحبه معه وهوفي التاسعة من عمره لزيارة أخواله، فالتقى أثناء الرحلة بزعيم قبيلة "القنقرات" المغولية والذي أعجب كثيرًا بالطفل تيموجين، وتنبأ له بمستقبل عظيم، وعزم على أن يزوجه من ابنته عندما يكبر، فلم تكن

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـــ١٥.

(٢) هارولد لامب : جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، صـــ ٨.

ابنته تتجاوز العاشرة من عمرها في ذلك الوقت(١)، وعند عودة والده مرة أخرى لمضارب أعدائه من التتار، استضافوه ودسوا له السم فمات لتوه سنة ١١٧٦م بعد حياة حافلة في قيادة قبيلة قيات وقبائل المغول(٢).

وبعد وفاة يسوكاي انفض أكثر الأقارب والأتباع عن تيموجين لصغر سنة، وأعلنوا التمرد والعصيان وتخلوا عنه(٣)، وساءت أحوال هولون –Elwn– أرملة يسوكاي وأطفاله، وكان لزامًا على تلك المرأة النشطة العاقلة أن تبذل كل ما تستطيع من جهد لتوفير الأمان لأسرتها(٤)، وإن عارضت كل القبائل لخلافة تيموجين لوالده وخاصة قبائل التايجوت، وعبر بعضهم عن موقفه بقوله: "لا حاجة للقوم إلى امرأة ضعيفة وأطفال مساكين"، وأن الصخرة التي كنا نحتمي وراءها قد تحطمت، ولم يبق إلا المرأة وأطفالها فما بالنا وإياهم"(٥).

وجاهدت الأرملة كثيرًا لتحصل على الزاد الضروري لهذه الأسرة، مما يؤكد انصراف الناس عنهم وحرمانهم من أي مساعدة ممن حولهم، حتى قيل إن هذه الأرملة كانت تلتقط الثمار، وتحصل عليه مما تخرجه الأرض، ولم يزد ذلك كله الأسرة إلا إصرارًا على الحياة وصبرًا على المكاره(٦).

---

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، صـ١٣–١٤.
(٢) العريني : المغول، صـ٤٣، ٤٤.
(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ٤١.
(٤) رشيد الهمذانى : تاريخ خلفاء جنكيز خان، صـ١٧٠–١٧١، العريني: المغول، صـ٤٣–٤٤.
(٥) عبد الحميد راغب : جنكيزخان وتأسيس دولة المغول صـ٤٢.
(٦) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول صـ١٦.

وسط ما تعرضت له أسرة تيموجين من مصاعب، لم تتردد قبيلة التايجوت في شن غاراتها على هذه الأسرة لإذلالها والحط من شأنها، فاضطرت الأسرة إلى الهروب إلى المناطق الجبلية لتحتمي بالجبل، وكان لذلك أثر في نفسية تيموجين وتكوينه النفسي والجسدي، فأجاد فن الرماية، وذاعت شهرته(١)، حتى ذهبت الروايات بأن الأسرة لم تكن تملك سوى تسع أفراس نجح المغيرون من قبيلة التايجوت في الاستيلاء على ثمان منها، فاضطر تيموجين إلى مطاردة المغيرين لاستخلاص الأفراس من أيديهم، وأظهر تيموجين شجاعة وبراعة في ذلك بمساعدة شاب يُدعى بواورتشو -Boortchou- حتى نجح في إجبار الأعداء على التخلي عن الأفراس، فعاد بهم إلى أسرته بمساعدة ذلك الشاب الذي بدأت الصداقة تربط بينهما لتخط بداية مرحلة جديدة في حياة الشابين(٢).

وقبل الخوص في تفاصيل حروب جنكيز في أوروبا كان لابد أن نتعرض إلى تكوينه الشخصي حيث كانت شخصيته تميل إلى سفك الدماء، فالتقلبات التي صادفها جنكيز في شبابه والتجارب والمحن التي مر بها في حياته، ومقاومته للمناخ القاسي وما فيه من برد قارس وحرارة خانقة وعدم اهتمامه بما يصيبه من جروح وآلام، أوبسوء معاملته في أوقات الضعف والهزيمة، كل ذلك قد أكسبه قوة على تحمل الشدائد والصعوبات، وصنع منه رجلاً صلبًا حديديًا أدهش العالم.

ويصف المؤرخ الفارسي -الجوز جاني- جنكيز خان فيقول: " كان رجلاً طويل القامة، قوي البنية، ضخم الجثة، له

(1) Morgan, op. cit., P. 60.

(٢) هارولد لام: جنكيز خان وجحافل المغول صـ٢٦.

عينان كعيني القط، غاية في الجلد والذكاء والعقل والدهاء والهيبة، وكان محاربًا عادلاً حازمًا شديد الوطأة على عدوه، شجاعًا وسفاكًا متعطشًا للدماء"(١)·

كل هذه الصفات جعلت منه رجلاً قاسي القلب شديد المراس، حيث كان في استطاعته أن يبقى ثلاثة أوأربعة أيام بدون طعام، وكثيرًا ما كان يشعر بألم الجوع قبل أن يعثر على طعام جديد، وفي بعض الأحيان كان يخرج سكينًا ويقطع وريدًا من أورده فرسه الذي يركبه، ويشرب قليلاً من دمه، ثم يسد الوريد، ويواصل السير في طريقه·

وحدث ذات مرة أن سُرِق من تيموجين عصفور وسمكة، وكان المتهم أخًا له من أبيه يدعى بكتار، فأقدم تيموجين على قتله دون شفقة أو رحمة مما يدل على البؤس والشقاء الذي تعانيه الأسرة، وعلى عنف تيموجين وحبه لسفك الدماء في سبيل فرص سيطرته من حوله(٢)·

ولما تأكد تيموجين من نهاية بؤسه تقدم ليتزوج من ابنه أحد رؤساء القنقرات وتدعي "بورتا" ووافق والدها، وبعد أن كان هذا الفتى شريرًا تتلقفه أيدي من يشفق عليه من أصدقاء أبيه بدأ نجمه يلمع، وانتقل هو وأسرته وقبيلته إلى منابع نهر كيرولين حيث القنقرات المغول، وذلك بعد أن نجا من أسر التايجوت(٣)·

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، صـ١٦·
(٢) عبد الحميد راغب : جنكيز خان وتأسيس دولة المغول، صـ٤٢، ٤٣·
(3) Morgan, op. cit., PP. 60 – 61.

وبعد ذلك ظل تيموجين يعيش فترة في حماية أونك خان رئيس قبيلة كرايت الذي كان يدين بالمسيحية، ولما كان هذا الرجل تربطه بوالد تيموجين علاقة المحبة والمودة فقد غمره بعطفه، وتوطدت بينهما أواصر الود والصداقة، ورفض التعرض له ومقاومته حين استعدى عليه إمبراطور الصين(١).

وطلب ملك الكرايت أونك خان من تيموجين أن يصبح أحد أتباعه، وفي مقابل ذلك يسانده في الهجمات ضد أعدائه من الماركيت التي أغارت على معسكر المغول وأسرت زوجته، وتمكن من استردادها، وقام بإعلان الحرب على التتار والتايجوت الذين زحفوا نحو معسكرات تيموجين في ثلاثين ألف محارب، أما جند تيموجين فلم يزيدوا عن ثلاثة عشر ألفا، ومع ذلك تمكن بحنكته وحسن تدبيره من تحقيق نصر حاسم على أعدائه في معركة قاسية، فأوقع في صفوف أعدائه خسائر بلغت نحو ستة آلاف قتيل، وتم أسر سبعين قائدًا من قوادهم، فأمر تيموجين بقتلهم بطريقه بشعة، وذلك بغليهم في القدور أحياء، وهذه قسوة لا يمكن تصورها، ولكن تيموجين لا يشفق ولا يرحم، وكان ذلك في سنة ١١٨٨م(٢). لكن هذه الصداقة مع أونك خان لم تستمر طويلاً لأنه وجد تيموجين يقوى يومًا بعد آخر، وخشي أن يطغى عليه هو نفسه، فحاول أن يتخلص منه بحيلته ودهائه، غير أن تيموجين سرعان ما فطن إلى ما يدور بخلد أونك خان فنجا بأتباعه في اللحظة المناسبة.

ولما تبعه أونك خان على رأس جيوشه قامت الحرب بين الفريقين فانتصر تيموجين وقتل خصمه، وزادت تلك المعركة من شوكة تيموجين، وأعلت شأنه ورفعت قدره، فأسرعت القبائل التي كانت متمرده على الدخول في طاعته(٣).

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ١٨.
(٢) عبد الحميد راغب : جنكيز خان وتأسيس دولة المغول، صـ٤٥.
(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ١٨.

وسارع بعد ذلك تيموجين للقضاء على قبيلة النايمان، وكان رئيسها يدعى تايانك خان، فبادره تيموجين بالهجوم وتغلب عليه وأصابه بجرح بالغ، فتُوفي متأثرًا بجراحه، وسيطر بذلك تيموجين على تلك الطائفة، وشرع يؤلب القبائل الواحدة منها على الأخرى، ويتحالف مع القوي ضد الضعيف، وبتلك الوسائل استطاع التغلب على أقوام المغول الذين ينزلون في منطقة التبت وشرق تركستان(١).

ونجح تيموجين في كسب صداقة رجال كثيرين على المستوى الشخصي الذين لعبوا دورًا كبيرًا في دعمه وتأييده في الفترة التالية، ومنهم زعيم إحدى القبائل المغولية وهي قبيلة جاجيرات ويُدعى جاموكا-Jamaka- الذي ربطت الصداقة بينه وبين تيموجين فصارا كالأخوين، إلا أنهما اختلفا بعد ذلك وتنازعا وانفرط عقد التحالف بينهما(٢)، ولكن تيموجين أفاد من ذلك أيضًا إذ انحاز كثير من أتباع جاموكا إلى صف تيموجين لما لمسوه فيه من إصرار على الانفراد بالزعامة الكبرى، وطموح لبلوغ هذه الزعامة وإصرار على ذلك(٣).

وبدأت القبائل تسعى لصداقة تيموجين والانضمام إليه والدخول في طاعته لما ذاع حينئذ من أن الزعامة الكبرى سوف تئول إليه، فانحازت كثير من القبائل إليه من العشائر المغولية والتركية فبسط سيطرته على منطقة شاسعة من إقليم منغوليا تمتد حتى صحراء جوبي

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ١٨-١٩.
(٢) عبد السلام فهمي : المرجع السابق، صـ٣٢-٣٣.
(٣) هارولد لام : جحافل المغول، صـ٦٦.

حيث مضارب التتار(١)، ولما انحاز إليه أربعة أمراء مغول تجري في عروقهم الدماء الملكية من الذين انفصلوا عن جاموكـا، خاصـة وأن تيموجين كان ينتمي إلى أسرة ملكية قديمة(٢).

وجرت أهم خطوة في حياة تيموجين بعد ذلك، حين أجمع الأمراء الأربعة على اختياره خانا أعظم على المغول، واضعين في الاعتبار انتماءه إلى الأسرة الملكية القديمة من ناحية، ومؤملين فيه حسن القيادة من ناحية أخرى، وأنهم بذلوا له التبعية وأكدوا له الإخلاص، وتعاهدوا على خوض المعارك إلى جانبه، بل تعهدوا بالطاعة له وتقديم كل عون، فإذا عصوا أوامره أوبرموا به، حق عليهم العقاب، واستحقوا ما ينزل بهم من عقاب، بل أعطوه الحق في أن يفرق بينهم وبين زوجاتهم وينزع منهم متاعهم ويعزلهم ويجعلهم منبوذين، فالتزموا بما وعدوا به واختاروه خانا(٣)، وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان(٤).

---

(١) عبد السلام فهمي : المرجع السابق، صـ٣٢.

(2) Morgan, op.cit., P. 60.

(٣) خان: لقب أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من الإمبراطورية المغولية، وهويختلف عن لقب " خاقان" الذي أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه الخان الاعظم. وقد استعمل المغول لقب "خان" أيضا بمعنى " خاقان " وربما كان ذلك من باب الرغبة والاختصار.

انظر في ذلك:

- المقريزي: السلوك لمعرفة دولة الملوك، جـ١، ق٢، صـ٣٠٧ حاشية٤.

(٤) أشار مؤرخ المغول - رشيد الدين - إلى أن هذا اللقب الملكي مشتق من لفظه صينية هي- Tching - وتعني القوي، وأشار مؤرخ صيني أنها تعني ابن السماء، وفي رواية أخرى تعنى المحارب الكامل، وهي تعني الخان الأعظم the Greatest of rulers أو إمبراطور كل البشر The Emperor of All Men واتخذ تيموجين اسم جنكيز خان بعد انتصاره-

وبعد انتخابه شرع في توزيع الوظائف الهامة على معاونيه سواء الحربية أو المدنية منها:⁻

١) أربعة رجال وظيفتهم حمل القسي والسهام، وعرف المنصب باسم "قورجي" رامي السهام.
٢) مشرف على رعي الماشية وعرف باسم " أختجي" راعي خيول البلاط.
٣) أربعة مشرفين على الطعام والشراب وعرف باسم "بكاول أوباورجي" .
٤) مشرف على تجهيزات العربات الملكية وعرف باسم "اليورتجي" .
٥) شخص يشغل وظيفة الحاجب أو الموظف الخاصة ويعرف باسم "جربي" .
٦) أربعة رجال وظيفتهم "حمل السيوف في موضع واحد" وعلى رأسهم أخيه جوجي.
٧) مشرفان على تدريب الخيول ويعرفان باسم "أختا" وعلى رأسهم أخيه بلغوطاي.
٨) ثلاثة مشرفين على قطعان الخيول في المراعي.
٩) أربعة رجال يطلق عليهم " أسهم قريبة وبعيدة" ويعرفون باسم "خولا " وهم مبعوثو أو سفراء الإمبراطور.

⁻على الكرايت ١٢٠٣م. وأصدر قانونه الشهر الياسا، وفي رواية أخرى اتخذه سنة ١٢٠٦ م بعد انتصاره على النايمان.

انظر في ذلك :

- محمد محمد مرسي الشيخ: أوروبا والتتار، صـــ١٩٠، العريني: المغول، صـــ٥٤-٥٥.

١٠) وعين اثنين من النبلاء كمستشارين وهم أعلى من القادة العسكريين(١)·

أما حرس جنكيز خان فقد تم تنظيمه بصورة ثابتة سنة ١٢٠٣م، عقب انتصاره على الكرايت، وبعد ما أصبح هو الشخصية الأولى في منغوليا الشرقية· وتم اختيار سبعين رجلاً للحراسة النهارية وثمانين للحراسة الليلية، وأطلق على المجموعة الأولى تركووت Tergewut وعلى الثانية اسم كبتووت -Kebtewut- وكلتا المجموعتين تكون حرس الحماية كشيكتن -Keshikten- أما شئون القصر ومتطلباته فكان يديرها الجربي الذي رفع عددهم إلى ستة، وإلى جانب هؤلاء تم إعداد ألف شجاع (بهادور) كحرس شخصي للخان، وهذه المجموعة كانت تشكل طليعة الحرس في وقت القتال وقسمًا من حرس البلاط في وقت السلم، وكان عسس الحرس يستبدلون كل ثلاثة أيام(٢)·

وأبدى جنكيز خان اهتمامًا كبيرًا بقوة الحرس التي بلغت حوالي عشرة آلاف رجل، وحُددت بدقة واجبات هؤلاء الحراس، فضلاً عما عُرفوا به من اليقظة والحذر الشديد وشدة البأس، وعُهد إليهم بحفظ النظام في معسكر الخان، وتميز جنود الحرس في رتبهم عن بقية جنود المغول(٣)·

وتألف جيش المغول من وحدات محددة قوامها العشرات والمئات والألوف، ولكل وحدة مشرف أو قائد تسهيلاً وتنظيمًا لسريان الأوامر، وتبسيطًا للإجراءات الحربية، واشتهر الجيش المغولي بالقوة وسرعة التعبئة والتحرك، وما أظهره جنود هذا الجيش من القوة وشدة البأس

---

(١) بار تولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، صـ٥٤٦-٥٤٧·
(٢) بار تولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، صـ٥٤٨-٥٤٩·
(٣) هارولد لام: جحافل المغول، صـ٦٩·

ملأ قلوب معاصريهم رعبًا وخوفًا(١)، وجعل أعداءهم في خوف دائم، خاصة وقد عرف عنهم المبادرة بالهجوم قبل أن يتهيأ الأعداء للدفاع، وقبل أن يصل التحذير والإنذار(٢)، فضلاً عما لجأ إليه المغول من استخدام الجواسيس، والعملاء ومثيري الفتن والمؤامرات في جبهات الأعداء، وما اشتهروا به من طرق في استخلاص الأخبار والمعلومات التي تفيد الجيوش لاسيما من التجار وعابري السبيل ومن لهم صلة بالأعداء(٣).

ولقد استفاد المغول ممن خضعوا لهم من نقل أدوات الحصار ومعدات الجيش وأثقاله، وكانوا دائمًا يعرضون على أعدائهم إما الاستسلام أو الإذعان أو التعرض للقتل والنهب والتدمير، وضمن لهم ذلك في كثير من الأحيان توفير الجهد والتقليل من الخسائر والإمعان في القهر والإذلال، بعد أن حرص سكان البلاد الخاضعة لهم على التفاني في تقديم الخدمة(٤).

وبعد أن استقرت الأمور إلى حد كبير بدأ جنكيز خان يوجه أنظاره إلى المناطق الخارجة عن نطاق المغول، وذلك بالتوسع في الجنوب على حساب مملكه الصين، ولكن قبل المضي في ذلك رأى أن التقاليد المغولية لا تفي بمتطلبات حكومته الجديدة، فأعاد النظر فيها، وأضاف بعض الأحكام في سنة ١٢٠٦م وهي مجموعة قوانين صارمة عرفت بالياسا أو اليساق، وهي مجموعة قوانين أصدرها ليجمع القبائل تحت نفوذه، ويلزمها بحكمه حتى يقضي على الفوضى،

---

(1) D'ohsson, op.cit., Tom.3,p.372.
(2) morgan, op. cit., P. 59.

(٣) العريني : المغول، صـ٥٧.
(٤) فان بان الصيني : جنكيز خان سفاح المغول، صـ٩٦.

ويجعل منها قوة منظمة تكون أساسًا لدولة المغول(١)، ولقد نظمت الياسا العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة تقوية للكيان الاجتماعي القائم على الأسرة، كما عالجت أمر الزواج، ووضعت قواعد لذلك تتناسب مع طبيعة هذا المجتمع، فقد جعلت الزواج رهنًا بموافقة المرأة، وأحلت الجمع بين الأختين، وأحلت كذلك زواج الابن من زوجات أبيه بعد وفاته باستثناء أمة، فبدت الياسا وقد دعمت الروابط الاجتماعية بين المغول ودعتهم إلى الالتزام بالأخلاق ليقوى المجتمع ويأمن شرور الأعداء، وحظرت نصوص الياسا على أي فرد من المغول أن يشبع وغيره جوعان، بل عليه أن يقتسم معه الطعام، فمن أكل ولم يطعم من عنده جاز قتله، بل عليه أن يسلم الطعام بيده إلى الآخرين ولا يرميه لهم، ومن يكذب يتعرض للموت، ومن يمارس السحر كذلك، لما يمكن أن يلحق الناس بسبب ذلك من أضرار، وكذلك من يتجسس على الآخرين لمعرفة عوراتهم، ومن يسرق يعدم أيضًا في أغلب الأحيان، وكذلك من يلوث المياه يعاقب بالموت(٢).

***

ثانيًا : فتوحات جنكيز خان التي مهدت لغزو أوروبا :

وجه جنكيز خان أولى حملاته إلى إمبراطورية الصين العظمى ذات الحضارة القديمة المعروفة، حيث كانت الصين تنقسم إلى قسمين: الصين الشمالية وكانت تحكمها أسرة سونج، وكانت الصين هدفًا لحملات جنكيز خان خاصة الصين الشمالية التي كان لها السيادة على التتار وغيرهم من القبائل، ونجح جنكيز خان في إنزال هزيمة ساحقة بجيش أسرة كين(٣)، ثم تبعها بحملات أخرى، ففي ربيع سنة ١٢١٤م

---

(1) saunders, op. cit., P. 69.

(٢) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، صــ٢٠١ – ٢٠٢.

(٣) عبد السلام فهمي : المرجع السابق، صــ٣٧.

هاجم جنكيز خان إمبراطورية الصين من عدة نقاط، والتحم مع الصينيين في معركة حاسمة سقطت على أثرها مدينة بكين عاصمة إمبراطورية كين الصينية في سنة ١٢١٥م(١) .

وبعد الانتهاء من فتح الصين اتجهت أنظار المغول لفتح العالم الإسلامي، وكان الغزو عنيفًا شديد الوطأة، فقد ضرب المغول الأقاليم الإسلامية، وتُجمِع الروايات على أن غزوات المغول كانت مصحوبة بالقتل وسفك الدماء والدمار والخراب للمدن والحضارات. ومن المؤرخين المعاصرين للأحداث الذين صوروا ما قاساه المسلمون المؤرخ -ابن الأثير- إذ يقول: " لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها وكارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلاً وأأخر أخرى، فمن يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين! ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا، لكن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلقه الله سبحانه وتعالى منذ آدم إلى الآن لم يُبتلى بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها أو يدانيها، وهؤلاء (المغول) لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، **فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم** لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح..." (٢) .

---

(1) Hworth, op. cit., vol.1, PP. 66-70.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، صـ٣٩٩.

أما السيوطي فيقول: "هو حديث يأكل كل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ ينسي التواريخ، ونازلة تصغر كل نازلة، وفادحة تطبق على الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض(١)٠ وبهذه الصورة المفزعة زحفت جيوش المغول على الجانب الشرقي من العالم الإسلامي، وفي وقت وصل فيه العالم الإسلامي إلى مرحلة بالغة من التفكك والضعف، جعلته يعجز عن صد السيل المغولي الجارف تحت قيادة جنكيز خان٠ ومن هنا ينبغي القول أنه من الخطأ الاعتقاد أن جنكيز خان حقق انتصاراته الساحقة على البلاد الإسلامية معتمدًا على كثرة رجاله فحسب، دون أن نعمل حسابًا لمهارة المغول في الفروسية واستخدام الخيل في الحرب، فضلاً عن براعتهم في التكتيك الحربي واستعمال الآلات الحربية بطريقة لم تألفها بقية الجيوش التي اصطدم بها المغول في ذلك العصر(٢)٠

وقام جنكيز خان بنفسه بالهجوم على البلاد الواقعة بين نهري سيحون وجيحون اللذين يصبان في بحر آرال، على حين عهد إلى قواده وأبنائه مهمة الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية٠ وقد كان جنكيز خان مثالاً لوحشيه الغازي البربري، ويبدو ذلك واضحًا عندما ذهب إلى مدينة بخاري المشهورة بعلمائها، فقد نزلها في فبراير سنة ١٢٢٠م، وحاصرها عدة أيام متتالية، حتى عجزت حاميتها عن القتال، ولم تلبث المدينة أن فتحت أبوابها للغزاة ولفت نظر جنكيز خان عند دخوله مسجدها الجامع الفخم، فدخله على صهوة جواده، ووقف بإزاء المنبر، وظنه أول الأمر قصر السلطان، فلما قيل له بأنه بيت الله نزل إلى أرض المسجد واعتلى المنبر ثم دعا المغول الذين

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء، صـ٤٣٠٠
(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطي، جـ١، صـ٦١٩ ٠
- rton, op. cit., PP. 384-385.

كانوا يقفون من خلفه إلى أن ينهبوا المدينة، ولم تفلت من أيديهم الآثار المقدسة، إذ مزقوا المصاحف، وداسوها بحوافر خيولهم، وسيق كبار الشيوخ والعلماء البارزين ليقوموا بخدمة الجند في مجالس الشرب[(١)]، وأمر جنكيز خان بإشعال النيران في المدينة، فأحرقتها النيران عن آخرها، لأن معظم منازلها كانت مبنية بالخشب، ولم يبق منها سوى المباني الحجرية من القصور والمساجد، وهرب القليل من سكان بخاري، وحكى ما حدث لبلاده من دمار وخراب ونهب وسلب[(٢)].

ويذكر –ابن الأثير– تحت عنوان "خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر": في هذه السنة ٦١٧م ظهر التتر في بلاد الإسلام، حيث كان ملكهم قد فارق بلاده، وسار إلى نواحي تركستان، وسيَّر جماعة من التجار الأتراك، ومعهم كل شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلاد ما وراء النهر وسمرقند وبخاري ليشتروا له ثيابًا للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار، وهي آخر ولاية خوارزم مشاه، وكان له نائب هناك، فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر، أرسل إلى خوارزم مشاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من أموال، وإنفاذه إليه، فقتلهم وسير ما معهم، وكان شيئًا كثيرًا، فلما وصل إلى خوارزم مشاه فرقة من تجار بخاري وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم، وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطأ قد سد الطرق عن بلاد تركستان، وما بعدها من البلاد، وأن طائفة من التتر أيضًا كانوا قد خرجوا قديمًا للخطا، فلما ملك خوارزم مشاه البلاد بما وراء النهر من الخطأ وقتلهم، واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلا

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول صـ٢٣٣–٢٣٤، فامبرى : تاريخ بخاري صـ١٧.

- saunders, op. cit., PP. 56-57; Howorth, op.cit., vol., 1, P. 77.

(٢) ابن العبري: نفس المرجع، صـ٢٣٤، فامبرى: نفس المرجع، صـ١٧١–١٧٢.

ساغون وغيرها، وصاروا يحاربون عساكر خوارزم شاه، ولما قتل نائب خوارزم شاه أصحاب جنكيز خان في مذبحة أوترار(١)، كشف جنكيز خان عما عهد فيه دومًا من ضبط النفس وكبح جماح الغضب، فأرسل مبعوثًا إلى خوارزم شاه يلومه ويطالبه بتسليم إينالجق الذي قتل الرسل· ولم يقف خوارزم شاه عند رفضه الاستجابة لهذا الطلب بل أمر بقتل المبعوث، أما رفيقاه فقد أطلقهما بعد حلق لحيتهما، وبهذا أضحت حملة جنكيز خان على بلاد خوارزم شاه أمرًا لا مفر منه(٢)·

وشاور خوارزم شاه أرباب المشورة في الحرب، وأشار بعضهم بالذهاب إليهم، وأشار البعض الآخر انتظارهم حتى يعبروا نهر سيحون، وقرر خوارزم شاه الذهاب إليهم· ويذكر "ابن الأثير" ذلك فيقول: "فمضى وقضى أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم فلم يروا فيها إلا النساء والصبيان والأطفال، فأوقع وغنم الجميع، وسبى النساء والذرية، وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم محاربة ملك من الترك يقال له كشلوخان وهزموه، وعادوا بأمواله فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه، فجدوا في السير، فأدركوه قبل أن يخرج من بيوتهم، وتصافوا للحرب، وتقاتلوا قتالاً لم يسمع بمثله وبقيت الحرب ثلاثة أيام بلياليها، ولم ينهزم أحد، وكان القتال شديدًا، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيول تنزلق من كثرته، وسئم الجميع القتال، بعدما قتل من المسلمين عشرون ألفًا، ومن الكفار عدد لا يحصى، فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها، وكذلك فعل المسلمون فرجعوا إلى بخاري"·

وأمر خوارزم شاه أهل بخاري وسمرقند بالاستعداد للحصار، وجعل في بخاري عشرين ألفًا وفي سمرقند خمسين ألف، ولقيت

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : جـ١، صـ٤٠١-٤٠٢·
(٢) بار تولد : تركستان من الغزو المغولي للفتح العربي، صـ٥٧·

سمرقند حاضرة بلاد مـا وراء النهـر وأعظـم مـدنها فـي عهـد الخوارزميين نفس المصير المدن الإسلامية السابقة، وذلك بعد صمود استمر ثلاثة أيام أمام المغول، وذكر -ابن الأثير-: بعد الاستيلاء على المدينة في مارس سنة ١٢٢٠م ذلك بقوله: "فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم، ومن تأخر قتلـوه، فخـرج جميـع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخاري من النهب والقتل والسبي والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيـه وأحرقوا الجامع، وتركوا باقي البلد على حالـه، وافتضـوا الأبكـار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، وقتلوا من لـم يصـلح للسبي". وبانهيار بلاد ما وراء النهر، انهارت الخطوط الدفاعية التـي اعتمد عليها الخوارزميون، وسهل على المغول بعدئذ الاستيلاء علـى الأقاليم الخوارزمية دون عناء(١). وجد جنكيـز خـان -لعنـه الله- وسير عشرين ألف فارس، وقال لهم اطلبوا خوارز مشاه، ولو تعلـق في السماء حتى تدركوه(٢)، وقرر جلال الدين أن يقتحم البحر، وقبل أن يقتحمه رأى ولدته وأم ابنه وحريمه يصحن "بـالله عليـك اقتلنـا وخلصنا من الأسر". فأمر بهن خوارز مشاه فغـرقهن، وهـذه مـن عجائب البلايا ونوادر الرزايا(٣). ولما كان المغول يعدون الشـجاعة والبطولة من أخص صفات المحارب، فقد أعجبوا ببسالة جلال الدين، ووقف جنكيز خان وسائر جنود المغول فاغرين أفواههم عجبًا ودهشة عندما أبصروا هذا المنظر، وتوجه الخان إلى أولاده قائلاً: "ينبغي أن يكون للأب ابن مثل جلال الدين" ووصل جلال الدين إلـى الشـاطئ الآخر بعد صراع طويل مع الموت استطاع أن يقهره، ووصل سـالمًا مع أربعة آلاف رجل من أتباعه كانوا حفاه عراه. وفي الهند جـرى

---

(١) حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول، صـ١٢٦.
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، صـ٤٠٦.
(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ٨٦.

بينه وبين أهالي تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين، واستطاع أن يكون جيشا كبيرًا يعود به إلى إيران لاسترداد عرشه ومجالدة المغول من جديد.

ولما يأس التتر من إدراك خوارز مشاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران، فملكوها في أسرع وقت... بعد أن نهبوا وسلبوا وحرقوا البلاد، وسلكوا طريقهم نحو الري، فرأوا في الطريق والده خوارز مشاه والنساء بأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها تريد أن تذهب إلى الري. وفي سنة سبع عشر وستمائة وصل التتر إلى الري، وعندما بلغ خوارز مشاه محمد نبأهم مضى منهزمًا نحو الري، ووصلوا الري على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا إلا وقد وصلوا إليها وملكوها، ونهبوها وسبوا الحريم، واسترقوا الأطفال وفعلوا الأفعال التي لم يسمع بمثلها، ولم يقيموا ومضوا مسرعين في طلب خوارز مشاه، فنهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها، وفعلوا بالجميع أضعاف ما فعلوا بالري... ثم وصلوا إلى مدينة قزوين فاعتصم أهلها منهم في المدينة، واقتحموها وقتلوا من أهل قذوين ما يزيد على أربعين ألف قتيل(١).

وبعد ذلك التهم المغول أذربيجان وهمذان والكرج وغيرها، واندفعت الجيوش المغولية لعبور نهر جيحون، على حين بقى جنكيز خان في بلاد ما وراء النهر يدعم فتوحاته. وفي خريف سنة ١٢٢٠م أصدر جنكيز خان أوامره إلى ولده تولوى بالسير إلى خراسان في جيش قوامه سبعون ألف مقاتل، وما اقترفه تولوى من تخريب ودمار في خراسان أثبت أنه لا يقل وحشية عن أبيه، فقد أجهز على سكان المدينة جميعهم نساء ورجالاً وأطفالاً، حتى قيل إن عدد من قتل بلغ حوالي سبعمائة ألف(٢)، وتوجه بعد ذلك القائد تولوي إلى مرو

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، صـ٤٠٨-٤٠٩.
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، صـ٤٠٨-٤٠٩.

عاصمة خراسان، وقد اشتهرت بالثروات العظيمة والتجارة الواسعة، وكانت حاضرة السلاطين السلاجقة فسقطت المدينة في أيديهم في فبراير سنة ١٢٢١م وأحرقوها وقتلوا جميع سكانها، بحيث لم يبقوا إلا على أربعمائة من الصناع المهرة للانتفاع بهم(١).

وبعد أن احتل المغول معظم أملاك الدولة الخوارزمية، وتتبعوا الخوارزميين في كل مكان تقتيلاً وتشريدًا، ولما اطمأن جنكيز خان إلى تحقيق أهدافه، صمم على العودة إلى منغوليا خصوصًا عندما علم أن ثورة قامت ضده في شمال الصين والتبت، وأن الظروف تستدعي وجوده هناك، فسلك طريق هراه، كما أمضى ثلاثة شهور في أطرف بيشاور وولاية البنجاب، ثم توجه إلى كابل وحدود نهر جيحون في فصل الخريف، ووصل إلى سمرقند حيث أمضى الشتاء في سنة ١٢٢٣م بالقرب من نهر سيحون، وأرسل في استدعاء أبنائه ليقوموا بالصيد والقنص وليتفاوض معهم في مهام الأمور التي تتعلق بتدبير شئون الممالك التي استولى عليها المغول، فلحق به جغتاى وأوكتاى عند هذا النهر(٢).

وعند حدود الدولة الخوارزمية، وقف جنكيز خان فترة مع تركان خاتون والدة السلطان محمد خوارزم شاه، لتلقي آخر نظره على أراضي وطنها ولتنتحب على ملكها الضائع، ولتكفر عن صلفها وقسوتها عندما وجدت الأمور تفلت من يدها فأمرت بقتل البقية الباقية من أمراء السلاجقة والغوريين، وكانوا رهائن لديها لا يملكون من أنفسهم شيئًا(٣).

---

(1)sounders, op. cit., P. 60.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـــ٨٨.

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، صـــ٥٧٠.

وفي سنة ١٢٢٣م عقد جنكيز خان اجتماعًا (قوريلتاي) للتشاور مع أبنائه وحضره ابنه جوجي، لرسم الخطط للمستقبل، وبعد انفضاض الاجتماع عاد جوجي إلى بلاد القبجاق، أما جنكيز خان فقد قضى أشهر الصيف في صحراء قلان باشي، وكذلك أمضى صيف العام التالي سنة ١٢٢٤م، ولم يعد إلى موطنه الأصلي في منغوليا إلا عام ١٢٢٥م. وفي هذا العام نفسه قام بحملته الأخيرة على ولاية التانجوت في شمال التبت، لإخضاع ملكها الذي كان قد ثار على الحكم المغولي. ولكن المرض كان قد لحقه في تلك الفترة فأعجزه عن مواصلة القتال(١)، ولما اشتد المرض على جنكيز خان وعرف أن منيته قد حانت، استدعى أولاده وأوصاهم أن يخلفه ابنه أوكتاي وهذا نص وصيته لأولاده: "اعلموا يا أولادي الجياد أنه قد قرب سفري إلى دار الآخرة، ودنا أجلي، وأنا بقوة الآلهة والتأييد السماوي، استخلصت مملكة عريضة بسيطة، بحيث يُسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم يا أولادي، وهيأتها لكم، فأوصيكم بأن تشتغلوا بعدي بدفع الأعداء ورفع الأصدقاء، وتكونوا جميعًا على رأي واحد، حتى تعيشوا في نعمة وعزة ودلال، وتتمتعوا بالمملكة"(٢).

وتوفي جنكيز خان في الخامس والعشرون من أغسطس سنة ١٢٢٧م عن اثنين وسبعون عامًا، تاركًا خلفه إمبراطورية واسعة تمتد من أقصى حدود الصين على شاطئ المحيط الهادي شرقًا إلى قلب أوروبا وإلى عواصم الأوربيين غربًا. ومما يذكر أن الحركة التوسعية للمغول قد توقفت قليلاً عقب وفاة جنكيز خان.

وقبل موت جنكيز خان بستة أشهر توفي أكبر أبنائه جوجي في وادي القبجان، وقد تضاربت الأقوال في كيفية موته: فمن قائل بأن

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـــ٨٨.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـــ٨٨-٨٩.

جوجي كان أصفى نفسًا من أبيه، فلم يرض عن الوحشية التي ارتكبها أبوه في حق البشرية، بما سفك من دماء وأزهق من أرواح وخرب من بلاد لدرجة أنه صمم على الانضمام إلى المسلمين، والعمل معهم على الخلاص من أبيه، فوقف أخيه جغتاي على ما يدور بخلد أخيه، وأطلع أباه على سر هذه المؤامرة، فدس له جنكيز خان السم سرا. ومن قائل بأن جنكيز خان كان يسيء الظن بجوجي، فعندما رجع إلى منغوليا أرسل يستدعى ابنه جوجي فاعتذر لمرضه، وتصادف في ذلك الوقت أن شخصًا من قبيلة التانجوت قدم إلى منغوليا من وادي القبجاق، وأخبر جنكيز خان بأن جوجي في صحة جيدة، وأنه قصد الصيد لأنه منشرح ومسرور، فأرسل جنكيز خان ولديه أوكتاي وجغتاى إلى القبجاق وكلفهما بالقضاء على جوجي، ولكنهما قبل أن يصلا لتنفيذ هذا الأمر علما بوفاته[1].

***

ثالثًا : أسباب غزو المغول لروسيا :

كانت هناك العديد من الأسباب التي دعت المغول لغزو الروس، حيث كانت عوامل الضعف والانحلال تنخر في الأقاليم الخصبة الغنية المجاورة لأملاك جنكيز خان، ومن ثم عمل جاهدًا للاستيلاء عليها، ومن هنا نجد أن هناك عوامل خاصة بالمغول، وعوامل خاصة بالروس أنفسهم، أما عن العوامل التي دعت المغول لغزو روسيا هي:

١ – المناخ :

لقد نشأ المغول الأصليون في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وهي تمتد في أواسط أسيا جنوبي سيبريا وشمال التبت وغربي منشوريا، وشرقي التركستان من جبال

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٨٩ – ٩٠.

التاي غربًا وسلسلة جبال خنجان شرقا(١)، وهذه الأرض التي نشأ عليها المغول تتميز بمناخها القاري، شتاء طويل قارس البرودة، حيث تنخفض درجة الحرارة إلى أدنى حد حتى تصل في بعض الجهات إلى ٥٨ درجة تحت الصفر، فتتجمد المياه ويُرى الجليد، وإذا حل الصيف القصير تشتد الحرارة حتى تصل إلى ٦٠ درجة· وعلى ذلك فان الظروف المناخية جعلت من منغوليا إقليما فقيرًا، وانعدمت الزراعة في أكثر جهاتها، بحيث لم تظهر إلا في أماكن متفرقة، لأن الجبال المحيطة بتلك الهضبة منعت عنها الرياح الدافئة الممطرة في فصل الصيف، علاوة على البرودة الشديدة في فصل الشتاء(٢)·

لكن قسوة المناخ لم تقف عند هذا الحد، بل كان هناك أيضًا الرياح الشديدة التي تهب في معظم أيام السنة فتحمل الحصا وترسله إلى مسافات بعيدة، وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة (وهذه الرياح هي التي أتلفت بعض المناطق الزراعية القليلة)، وأحيانًا أخرى تتحول الرياح إلى أعاصير عاتية لدرجة يصعب معها بقاء الرجل في سرجه، ثم إن هذا المناخ لم يثبت على حال واحد حتى ولو كان الوقت صيفًا(٣)·

وتسبب بُعد هذه المنطقة عن البحار فضلاً عن ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر ارتفاعًا شديدًا في جعل مناخ هذه المنطقة مناخا شديد القسوة، مناخا قاريًا شديد الحرارة صيفا قارس البرودة شتاءً(٤)، بل إنه كان واضحًا في قاريتة بين الفصول بعضها وبعض وحتى بين

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـــ١٠·

(2) saunders, the Hist. Of the Mongol conquest, P.44.

- فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، صـــ١١، حافظ أحمد حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، صـــ١٠٨·

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد، المرجع السابق، صـــ١١·

(٤) العريني : المغول، صـــ٦·

الليل والنهار، والأمطار قليلة بوجه عام، الأمر الذي سبب جفافًا في تلك البقاع، خاصة في أواسط الصيف وأواسط الشتاء، وتفاوتت درجات الحرارة في بعض جهات منغوليا تفاوتًا كبيرًا بين شدة الحرارة وشدة البرودة، ولهذا دخلت هضبة منغوليا في نطاق منطقة الأستبس.

ولم تكن هذه الظروف الجغرافية والمناخية هي السائدة في كل المناطق التي عاش فيها المغول، بل يستثنى من ذلك هضبة التبت التي تتدرج فيها النباتات حتى تصل إلى نباتات المنطقة القطبية، وكذلك المناطق الجبلية التي تتساقط فيها الثلوج في الشتاء والأمطار في الصيف، ولهذا نمت الأشجار في بعض الجهات لتؤلف نطاقًا من الغابات، وانتشرت المراعي الصيفية الغزيرة في الأحواض العليا وعلى جوانب التلال، فضلاً عن المناطق التي تغطيها الأعشاب شتاءً وتجف صيفًا لتتصل بمناطق البراري والصحراوات في جهات متعددة(١)، هذه الظروف المناخية الصعبة جعلت فرص قيام الزراعة ضئيلة وكذلك المراعي مما جعل المغول يقومون بغزو البلاد المجاورة لهم، وكانت هذه الظروف أهم أسباب الغزو المغولي لروسيا.

٢- المراعي :

يرجع ابن الأثير الغزو المغولي لروسيا إلى كثرة المراعي حيث يقول: " أقام التتر في بلاد قفجاق، وهي أراضي كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المراعي، وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المراعي، وهي غياض على ساحل البحر "(٢).

---

(١)محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، صــ١٦٩.
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جــ١٠، صــ٤١٧.

أما عن نوع الحياة التي كان يحياها المغول فإنه يمكن تقسيم القبائل المغولية في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي إلى قبائل رعاة في جوار المراعي، وإلى قبائل صيادين يصيدون السمك من الأنهار والحيوانات من الغابات.

ويرى بعض المؤرخين أن أصل المغول لا يثبت أنهم كانوا جنسًا من سكان المراعي، ولكنهم كانوا شعبًا يسكن الجبال المكسوة بالغابات. ومن المعلوم أن القبائل التي تسكن مناطق السهوب هي قبائل رحالة بصفة خاصة تنتقل في فترات متتابعة طلبًا للمراعي، ومن ثم دأبو على التنقل والترحال من مكان إلى آخر سعيًا وراء العشب والكلأ، لا يدركون معنى للحضارة ولا يعرفون الاستقرار، وإنما يقضون حياتهم في التنازع والتنافس(١).

وكان تقسيم أعمال القبائل تقسيمًا نظريًّا فقط؛ لأنه تبعًا لحياة القبائل التي تحيا حياة بدوية كانت أي قبيلة تستطيع أن تنتقل من لون إلى آخر من ألوان الحياة، فجنكيز خان ينتسب إلى قبيلة من الرعاة، غير أنه اضطر في شبابه بعد أن اغتصب منه أقاربه وعشيرته القطعان إلى أن ينضم إلى أمة وإخوته في حياة بائسة هي حياة صيادي الحيوانات وصيادي السمك، وذلك قبل أن يتمكن من إعداد ثروته من الخيل والأغنام(٢).

ويلاحظ بصفة عامة أن القبائل التي تقطن الغابات تبدو أكثر بدائية وأكثر توحشًا، ليست لها علاقة بالحياة المتمدينة إلا عن طريق القبائل الرحالة، فإنهم كانوا يستفيدون من جوارهم للإيغور في منطقة جوبي أو من إمبراطورية كين في بكين، ولم تكن لهم مدن ولكنهم أثناء ترحالهم كانوا يضربون بمجموعات من الخيام والأكواخ

---

(١) أرنولد توينبي : الدعوة إلى الإسلام : صـ٢٥١.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ صـ١٣.

المصنوعة من اللباد والمقامة على عربات ذات عجل لكي يسهل نقلها من مكان إلى آخر.

٣- طرق التجارة :

سيطر جنكيز خان على الكثير من أعدائه، وترجع السيطرة أساسًا إلى أنه ملك زمام جميع الطرق العامة، فكان أعدائه مضطرين إلى أن يبتعدوا عن الطريق، فلم يكن لهم بعد ذلك إلا أن يختبئوا في الجبال أو القرى النائية، وهكذا لم يكن في مقدورهم أن يتصلوا بسهولة بأصدقائهم الذين كانوا يقيمون في أماكن أخرى. ومن جهة أخرى لما كان في استطاعة المغول استخدام الطرق فقد كانوا على صلة مستمرة مع بعضهم البعض، كما كانوا على علم بكل ما يجري حولهم(١).

وعلى مر التاريخ اجتازت الدروب الشرقية في أسيا جماعات جافية في سعيها للحصول على المراعي وطلب الرزق، والطمع في فرض سلطانها على الجموع الأخرى(٢)، وتنازع الترك والمغول وتخاصموا لتوفير المراعي لقطعانهم والهيمنة على المساحات الشاسعة التي تهيئ للفرسان ما يلائم نشاطهم وما يوفر لهم الحياة التي تناسبهم، وتهيئ للبدو والرعاة وجموع الاستبس ظروف الحياة التي يبتغونها، ويُعد هبوط الرعاة من مضاربهم وارتحالهم إلى جهات أخرى قاعدة طبيعية وأمرًا مألوفا عبر الحقب التاريخية المختلفة خاصة وأن منغوليا تدخل في نطاق منطقة الاستبس(٣).

وعمل جنكيز خان على تأمين خطوط المواصلات والتجارة، فحيثما قاد جحافله أقام وراءه بريد الخيل السريعة، وكأن البريد أسلاك برق أو خطوط سكك حديدية تمتد على طول الطريق إلى جوبي وبلاد

---

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، صـ١٢٠.

(2) Morgan, op. cit., P. 33.

(٣) جمال حمدان : أنماط البيئات، صـ٥٤.

كاثاي، وكانت محطات البريد المغولية هي حلقة الاتصال بين الطرق جميعًا، وفي كل محيط كان يحتفظ بقطيع من الخيول الاحتياطية، كما كان يعسكر حراس الطرق المسلحون إلى جوار مرحات المحطات ليطهروا الطرق من الأعداء، وكانت تتهادى القوافل التي لا حصر لها عند مرورها بهذه المحطات، وهي تحمل الفضة والثمين من البضائع إلى مواطن المغول، كما كان يمر بها في الاتجاه المضاد الراحلون من فرق الشباب المحاربين المتلهفين على الانضمام للجيش، فقد كانوا يحسدون رجال الحرب المحنكين العائدين إلى الوطن وهم محملون بالغنائم من سيوف وجواهر ودروع(١).

وقام المغول بتأمين أحواض بعض الأنهار مثل حوض نهر التاريم وغيرها من الأحواض التي اشتهرت بعض واحاتها بنشاط تجاري مميز على الرغم من أن هذه الواحات كانت متناثرة إلى حد بعيد، كما اشتهرت هذه الواحات بوجود بعض المدن على طول طرقها، خاصة في حوض نهر التاريم الذي كانت تعترضه -على طول امتداده- صحاري وجبال، ولكنه مع ذلك حافظ منذ القدم على اتصال الحضارات مثل الحضارة الصينية والحضارة الفارسية، وشهد كذلك طريق الحرير وطريق التجار والحجاج، واجتازته البعثات التبشيرية، فضلاً عن طرق أخرى للرعاة التي وطأتها أقدام المتبربرين على مدى أزمنة طويلة، بالإضافة إلى الطرق التي وطأتها أقدام الفرسان القادمين من منغوليا(٢).

وكان جنكيز خان يعمل على تأمين الطرق التجارية، وعمل جاهدًا على إعادة فتح الطريق التجاري القديم بين إيران والصين، وعلى هذا لم يدخر وسعًا في القضاء على الدول والقبائل التي كانت تعترض هذا الطريق، وذلك لتأمين قوافل التجار.

---

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، صـ١٢٠-١٢١.
(٢) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، صـ١٦٩ : ١٧٠.

وعندما جاور جانكيز خان ممالك السلطان محمد خواز مشاه، حرص أن تكون علاقته بالسلطان قائمة على المودة وتبادل المنافع، ولكن ما ارتكبه السلطان محمد من أخطاء في حق المغول كانت هي السبب في تحريك جنكيز خان إذ جعلته يسارع في مهاجمة المماليك الإسلامية بدافع الانتقام، وكذلك لتأمين خطوط التجارة إلى أوروبا(١)، لذلك قام بغزو شرق أوروبا لتأمين طرق المواصلات بين إمبراطوريتهم الواسعة التي امتدت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

٤- الحاجة إلى الغذاء :

كان من أهم عوامل قيام المغول بغزو الروس الحاجة إلى الغذاء، سواء غذاء الحيوانات من المراعي، أو غذاء المغول أنفسهم فقد كان المغولي يتغذى بلحوم الحيوانات على اختلافها من خيول وكلاب وذئاب وثعالب وفيران. وكان غذاؤهم قليل لاسيما في الشتاء، إذ تقسوا عليهم الطبيعة وتهزل الحيوانات، فلا يكادون يحصلون على ما يسدون به رمقهم إلا بشق الأنفس، وكانت لهم مهارة في الرماية وصيد الأسماك ورعاية الماشية، وقد يقضون الليالي الطوال سائرين على الثلوج بحثًا عن طعامهم دون أن يوقدوا نارًا للتدفئة، إذ أن عنايتهم بالقوت أكثر من عنايتهم بالدفء، والمغول يستطيعون الصبر على الجوع فلا يأكلون طعامًا مطهيًا لثلاثة أيام أو أربعة. ولا شك أن هذه القدرة العجيبة قد أفادتهم في الحروب، لأن الجندي في المعارك القتالية يكون مهتمًا بالنزال والطعان أكثر من اهتمامه بالطعام وملء البطون.

ونظرًا لندره اللحم في هذا الفصل، فإنهم يستعيضون عنه بالدخن المطبوخ واللبن الرائب يتبلغون به حتى يحين الربيع(٢).

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ صـ٩٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ١٠، صـ٤٠٠.

ويذكر "ابن الأثير" في ذلك : " أنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فأن معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التي يركبونها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فإذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من الخارج"(١).

فإذا حل الربيع فإن أثداء الأفراس وضروع الأبقار تدر بلبنها ويصبح الكل قانعًا مسرورًا، وتسمن الأغنام أيضًا، ويكثر الصيد والقنص، ثم يُطهى الطعام ويُؤتى به إلى أفراد الأسرة لتلتهمه بعد فترة جفاف طويلة. وكان شباب الأسر المغولية مكلفون بالمحافظة على قطعان الخيل والبحث عن الدواب التي ضلت الطريق، والتفتيش عن المراعي الجديدة ومراقبة الطريق لاتخاذ حذرهم إذاء المغيرين(٢).

وكانت عادات المغول الوحشية هي التي مهدت لهم غزو روسيا، وأدت إلى سرعة اكتساح المغول للمدن الروسية وتدميرها وذبح سكانها، فقد كانوا يأكلون لحوم أعدائهم ويشربون دمائهم، وخصوصًا الذين يخوفونهم، أو يشتدون في مقاومتهم ويوقعون بهم الخسائر الفادحة. ويرى أنه عندما اتهم معين بروانه حاكم بلاد الروم من قبل المغول بالاتصال بالسلطان بيبرس والتواطؤ معه ضدهم، قبض عليه آباخان وأمر بفصل أعضائه عن جسده عضوًا عضوًا، ثم وضعت في أناء وصاروا يغلونها لشدة غيظهم وحنقهم ولم يتورعوا عن أكل لحمه(٣)، ويذكر "هورث" أن المغول في إحدى غزواتهم في الصين عندما نفد طعامهم، ضحوا بواحد من كل عشرة رجال في الجيش

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ٢٢٩.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ٢٢٩.
(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ٢٣٠.

ليكون طعامًا للباقين(١)، والحقيقة أن هذه الغلظة والوحشية عند المغول قد ألقت الرعب والفزع في قلوب سكان المدن الأخرى حتى شكوا في جدوى الصمود فاستسلموا لليأس، وبذلك عجلوا في الاستيلاء على روسيا وكل المدن الروسية(٢).

٥ - زيادة السكان عند المغول :

لقد كانت الزيادة السكانية أحد أهم عوامل التوسع المغولي ناحية الغرب بصفة عامة وروسيا بصفة خاصة. فقد نشأ المغول كما ذكرنا في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وهي تمتد في أواسط أسيا جنوبي سيبريا وشمال التبت وغربي منشوريا، وشرقي التركستان من جبال التاى غربًا وسلسلة جبال خنجان شرقًا، وهذه المنطقة كانت ضيقة بحيث لا تستوعب الزيادة السكانية المغولية.

ولقد ذكر -ابن الأثير- في ذلك: "أن المغول لا يعرفون نكاحًا بل المرأة يأتيها أكثر من واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه...(٣)"، ولقد كان المغول يأخذون بمبدأ تعدد الزوجات، بل إن الخان نفسه كان يتزوج بمن يشاء من النساء، وكانت عادتهم المتبعة أنه إذا تغلب على ملك أو أمير وعقد معه اتحادا أو تحالفًا فانه كان يتزوج امرأته. وكان جنكيز خان يسير على تلك الطريقة ويقال إن زوجاته قد بلغ عددهن خمسمائة زوجة، ولما كان المغول يتزوجون من عدة نساء، فقد كانت الزيادة السكانية كبيرة لديهم بمقياس ذلك العصر، لذلك فكر المغول في التوسع ناحية الغرب لسد احتياجاتهم ومتطلباتهم.

---

(1) Howorth, Hist. Of the mongol, vol, 4., P.33.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ١٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، صـ٤٠٠.

رابعًا : الخلاف بين جنكيز خان وابنه جوجي في روسيا :

كان جوجي بن الخان الأعظم قد طلب إذنا بالبقاء في الغرب بعيدًا عن الصيد ووالده، فأحزن هذا جنكيز خان، إذ كان يعز جوجي ويدللــــه منذ أيام الفقر عندما لم تكن زوجته بورتاى تملك إلا العجين لتحدد مهد الطفل. وتحدث لأولاده الثلاثة في غير وجود جوجي قائلاً: "تذكروا جيدًا أن الخلاف أو التطاحن مع واحد من دمكم ولحمكم إن هو إلا إخماد للنار التي في الموقد". ثم اخبرهم ما ينوي فعله فقال: "سأعطي كل واحد منكم أمة ليحكمها، ولكن لابد لكل واحد فيكم أن تكون له السيادة على الثلاثة الآخرين، وعليهم طاعته كما تطيعونني أنتم الآن". ولم يعرفوا مَنْ مِن الأربعة كان ينوي الخان أن يترك له السلطة على حساب الآخرين، وغضبوا عندما سمعوا أن جوجي سوف تكون له مملكة أيضًا(١) .

وكان جنكيز خان يهدف إلى دفع شعبه إلى الخروج إلى القصور والممالك والمدن الخارجية ليأخذوا منها ما يحلو لهم من ثروة، لكنه رأى أنه من الأفضل ألا يغيروا طرق معيشتهم القديمة وألا يتركوا صحاريهم. وكان يريد تولي أسرته؛ الأسرة الذهبية الجيش والوزراء الذين كان عليهم بدورهم أن يحكموا الرحل الذين يسكنون الخيام، وهؤلاء بدورهم يصبحون. سادة جميع الشعوب الخاضعة لحكمه. وهكذا قدم الجميع لحضور المجلس ما عدا جوجي الصلب الرأي، وبدلاً من أن يحضر بنفسه، أرسل من إقليم الأستبس الذي كان فيه قطيعًا يضم آلافًا من الجياد السريعة رسالة تتضمن أنه مريض إلى درجة تمنعه من الحضور. وسأل جنكيز خان الرسول قائلاً: " أصحيح أن ابني جوجي مريض؟" فأجاب الضابط المغولي بحذر وقال: "عندما تركت جانبه كان مشغولاً بالصيد"(٢) .

---

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، صـــ١٢٥–١٢٦.
(٢) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، صـــ١٣٨.

فلما وصل هذا النبأ إلى مسامع أبنائه الثلاثة الآخرين مثلوا بين يدي الخان وسألوه قائلين: "ألا يزال تعتبره في منزلتنا؟! وها هو قد ثار عليك وخرج على طاعتك". حقًا لقد عصى جوجي أمر الخان بحضور المجلس، فكان يستحق الموت عقابًا على ذلك، وأخذ الخان يتدبر الأمر، فقد كان مضطربًا حزينًا في قرارة نفسه، وأخيرًا أعلن أنه عند الانتهاء من أعمال المجلس فعلى الجيش المغولي أن يتقدم بالزحف إلى الشمال لشن الحرب على جوجي وأتباعه(١). وبعث الخان بساع من سعاته ليتوجه بأقصى سرعة إلى الغرب، وكان يحمل أمرًا إلى سوبوتاي الذي يقيم على بعد مئات الأميال.

وكان الأمر يتضمن البحث عن جوجي وإحضاره إلى المجلس، ولم يحدث أن فشل سوبوتاي مرة في تنفيذ أي أمر. ومرت الأيام تباعًا وهم ينتظرون أنباء من الغرب، وبعدئذ ظهر الفرسان وهم يتقدمون على طول النهر، كما ظهرت خلفهم أعلام أحد الجيوش، ولم يكن هذا إلا جيش سوبوتاي، وقد أحضر معه الأسرى من الروس والقبجاق، وأخيرًا تقدم الأورخان المنتصر إلى خيمة السيد الذي لم يكن قد رآه منذ ثلاث سنوات، وأنبأه أن جوجي قضى عليه المرض في بلاد الأستيس، ولكنه أحضر معه شابًا هو باتوابن الرجل الراحل(٢).

ويذكر الدكتور "الصياد" أن جوجي توفى قبل موت جنكيز خان بستة أشهر في وادي القبجاق، وقد تضاربت الأقوال في كيفية موته :

فمن قائل بأن جوجي كان أصفى نفسًا من أبيه، فلم يرض عن الوحشية التي ارتكبها أبوه في حق البشرية بما سفك من دماء وأزهق من أرواح وخرب من بلاد، لدرجة أنه صمم على الانضمام للمسلمين، والعمل معهم على الخلاص من أبيه، فوقف أخيه جغتاي على ما يدور

---

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، صـ١٣٧، ١٣٨.
(٢) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، صـ١٣٨.

بخلد أخيه وأطلع أباه على سر هذه المؤامرة، فدس له جنكيز خان السم سرًا(١)٠

وكان جوجي قد حكم الجزء الغربي من الإمبراطورية شمالي بحر قزوين، وهي القبائل المغولية التي سميت بالقفجاق أو القبيلة الذهبية، ولكن جوجي توفي قبل أبيه، فقسمت أملاكه بين أبنائه الأربعة عشر، وظهر من هؤلاء الابن الثاني باتو الذي ولته القبائل في القسم الغربي من المملكة –غربي نهر الفولجا– خانًا عليهم، ولم يلبث باتوان قام بغزوات واسعة النطاق في روسيا، مما ترك أثرًا كبيرًا في التاريخ الأوروبي في العصور الوسطي(٢)٠

وبعد موت الخان الأكبر وكذلك ابنه جوجي تولى منصب الخان أوكتاي، الذي قرر توجيه حملة لغزو روسيا وعلى رأسها باتوابن جوجي خان أستبس الأرال، وإن كانت القيادة الفعلية في يد سوبوتاى الذي سبق له أن أحرز النصر علي الروس(٣)٠

***

خامسًا : اعتقاد المغول أن زعيمهم مفوض من السماء :

كان المغول يعتقدون أن زعيمهم مفوض من السماء لحكم العالم شرقــه وغربه، ومن ثم فإن أي إقليم لا يعلن خضوعه الكامل للمغول ويسلمهم جــزء مــن رجاله وخيوله ومحصولاته يعتبر عدوًا للمغول –وفي نظرهم– يستحق التدمير وذبح سكانه، وأصبح يطلق على جنكيز خان اسم (غضب الله) حيث كانت نشأة جنكيز خان والظروف القاسية التي عاش فيها من عوامل اشتهاره بالشدة وحب القسوة

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صــ٨٩٠

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق، صــ٦٢٠٠

- Cam. Med. Hist، vol. 4، p 652.

(3) Brawdin، The Mongol Empire، p. 246، saunders, op. cit، pp. 8. - 81.

والعنف. وقد تلقى جنكيز خان منذ حداثته ما جعله يكره جميع الأديان والأجناس، ويتعصب للجنس المغولي وحضارته البدائية الرعوية ودينه الوثني.

ومسألة اعتناق المغول لفكرة السيادة على العالم لم تكن غائبة عن الغرب الأوروبي، فقد تلقى المغول أوامرهم من جنكيز خان بإخضاع كل العالم لهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فذكروا عبارات لملوك الغرب الأوروبي ذات قوة مثل (بقوة الرب)، (إمبراطور كل البشر)، (الرب في السماء والخان الأعظم في الأرض)، ودائمًا ما اختتموا رسائلهم بقولهم: (إمبراطور كل البشر).

ويفسر ذلك رفض إبرام المغول أي سلام مع أي شعب احتكوا به إلا بعد أن يعلن خضوعه التام لهم لاعتقادهم أنهم سادة البشر(١).

ولقد كانت رسائلهم إلى ملوك غرب أوروبا شديدة اللهجة، وتنم عن ثقة مفرطة في التفوق على الأعداء، وهذا مثال على رسالة أرسلها كيوك خان إلى البابا أنوسنت الرابع يقول فيها: (ولأن تقر بقلب مطمئن وتقول: "سوف أخضع لك وأخدمك، وأنت بنفسك(البابا) على رأس جميع الأمراء(ملوك الغرب) تأتون فورًا لخدمتنا، وتنتظرون على أبوابنا، في هذه الحالة سوف أقبل خضوعكم، ولو لم تطع أمر الرب، وإذا تجاهلت أوامري فسوف أعرف أنك من أعدائي، وعندئذ لا أعرف ماذا سيحل بك، فالرب وحده يعلم" (٢).

وأصبح جنكيز خان هو رب المغول الأعلى يتحكم في مصائرهم، ويوجههم للقضاء على سائر الأجناس.

---

(1) John of plano carpini, ' Hitory of The Mongol ' in Dawson(ed:) The Mongol Mission, New york, 1955، pp، 43 – 44.

(2) Dawson, op، cit., p. 86.

ووصف جنكيز خان نفسه في إحدى خطبه بأنه(عذاب الله) أرسله الرب إلى الناس عقابًا لهم على خطاياهم، لذلك كان هناك اعتقاد سائد بين المغول أن عليهم أن يغزو العالم شرقه وغربه.

***

سادسًا : غزو جنوب روسيا ١٢٢٢م – ١٢٢٣م :

بعد أن اكتسحت قوات جنكيز خان الدولة الخوارزمية، وبعد أن قاد جنكيز خان بنفسه الهجوم الأخير على أهم المعاقل والحصون، ووزع أولاده وقواده لمحاصرة بقية مدن فيما وراء النهر وخوارزم وأذربيجان وخرسان وغزنة لإخضاعها للسيطرة المغولية، ووصلت القوات المغولية إلى أذربيجان وشواطئ بحر قزوين الجنوبية أثناء مطاردة اثنين من الفرق المغولية بقيادة سوبداي –subudey– وجبي – Jebe– لفلول قوات السلطان جلال الدين خوارزمشاه سنة ١٢٢١م في شمال مملكته، ومن ثم استأذن قائدا هاتين الفرقتين جنكيز خان في التقدم شمالاً إلى القوقاز لاستكشاف المناطق الغربية والشمالية(١).

وعبر القائدان المغوليان على رأس جيش ضخم إلى المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى روسيا، وكان الكومان يعيشون في هذه المنطقة ويطلق عليهم اسم(بولفستي)* وهم الذين

(1)Vernadsky، The Mongols and Russia, New Haven, 1953,P. 40.

* البولوفستيين : كان تأثيرهم قويًا في تكوين الشعب الروسي في فترة روسيا الكيفية، كما كان هناك تأثير ضئيل الشأن من قبل الأسكندنافيين والإغريق والأرمن، وهذا الشعب أخذ الكثير عن الروس في الأصول واللغة وأساليب الحياة. وفي الوقت الذي بدأ الروس ينتشرون في مناطق تسكنها القبائل الأوغورية. ذابت معظم تلك القبائل في الشعب الروسي. أما القبائل الأخرى فقد هاجرت إلى الشرق والشمال، وفي فترة روسيا المسكوفية حدث امتزاج لأعداد هائلة من القبائل الأوغورية مع الروس، وتشكل الكيان الروسي من عنصرين السلافي والأوغوري، وعندما أطلق الأوربيين على روسيا اسم=

يقطنون تلك المنطقة، فأرسلوا إلى مستسلاف الشجاع أمير غاليسيا وأخبروه أن المغول قاموا بغزو أراضيهم من الناحية الجنوبية، وحذروه من خطرهم بقولهم: "لقد استولى المغول على بلادنا، وغدًا سوف يحل بكم نفس المصير إذا لم تمدوا لنا يد العون".

وكان مستسلاف في قرارة نفسه يأمل أن يقضي المغول على الكومان حتى يتخلص من شرهم ومتاعبهم، حيث دأبو على غزو أراضيه، وإحداث أضرار متكررة على بلاده، ولكنه انزعج من خطر المغول الداهم الذي يتهدده عن كثب، هذا ما جعله يرى أن الطريقة السلمية التي تمليها عليه مصلحة بلاده هي أن يهب لنجده أعدائه التقليدين من الكومان رغمًا عنه، وبناء عليه اجتمع مستسلاف بجيرانه من الأمراء الروس، واستطاع أن يقنعهم بالانضمام إليه في حملة لملاقاة الخطر المغولي الذي بات وشيكا ويهددهم جميعًا بكارثة مفجعة(١).

ويبدو أن الروس لم يكونوا يعرفون شيئًا عن المغول قبل ذلك إذ أن حولية نوفوجارد الروسية تشير إليهم لأول مرة سنة ١٢٢٣م عند غزو المغول لجنوب روسيا بالقول: وفي هذا العام أتت قبائل غير معروفة بسبب ذنوبنا، ولا أحد يعرف من هم ولا من أين أتوا، ولا أحد يعرف لغتهم وجنسهم أو دينهم، فأُطلق عليهم تاتار –Tattars–، وآخرون يقولون إنهم تورمان –Tourman– (تركمان)، كما وصفوا بأنهم شعب البشناق –pecheneg–.. والرب وحده يعلم من هم...

–"موسكوفيا" رفض الشعب الروسي هذه التسمية، واخذ كلمة روس تسمية لبلاده روسيا .

انظر في ذلك :

– إبرار كريم الله : من هم التتار، ص ٤٥.

(1) The chronicle of Novogord, 1.16 – 1471, Tras by Robert michell, london, 1914, PP. 66 – 68.

ولكننا سمعنا أنهم استولوا على كثير من البلاد، ودمروا مدنها وخربوا زروعها وروعوا سكانها وأن الرب الرحيم أراد تحطيم شعب الكومان الشرير أبناء إسماعيل Ismael الذين أراقوا دماء المسيحيين(١).

وهكذا نرى أن الانطباع الأول لدى الروس أن الرب أرسل لهم هؤلاء الغزاة لتخليصهم من قبائل الكومان الذين يعيشون في شمال القوقاز، والذين كانوا يغيرون على الأقاليم الروسية باعتبارهم قبائل رعوية غير مستقرة(٢).

والحقيقة أن أخبار المغول انتقلت إلى أوروبا عن طريق التجار والرحالة عقب عودتهم إلى ديارهم من بلاد الشرق، وبعد أن بلغت جيوش المغول قلب أوروبا عم سكانها الشعور بالفزع والقلق، واتجه ملك فرنسا لودفيك التاسع إلى مخاطبة المسيحيين يحثهم على لعنة التتار القادمين من الآخرة، ويدعوهم إلى الصلاة والصيام الجماعي ليستجيب لهم الرب الأعلى، وينقذهم من(نهاية العالم)، وكان الملك أثناء خطبته هذه يشبه المغول بأهل ترتر، ويفسر ظهورهم باقتراب يوم القيامة، وفتح باب جهنم للبشرية برمتها. وأخذ الناس منذ ذلك الحين يؤمون الكنائس للصلوات كي يحميهم الرب من هؤلاء الترتر، فكانوا يرددون بثقة وحماس اللعنات المنصبة على التتار، إذ أنهم لم يروا طريقًا آخر للإنقاذ. وعندما عاد المغول فجأة بعد وفاة خانهم إلى بلادهم، فسر الغرب سلوكهم بأن الرب استجاب لصلواتهم ودعواتهم، وأنقذ البشرية من اقتراب نهاية العالم، ومنذ ذلك الوقت اكتسب الملك لودفيك التاسع لقب "فيك المقدس"، وأصبح التتار موسومين بوصمة تاريخية كشعب همجي عند رجال الكنيسة والمؤرخين القدامى(٣).

---

(1) The chronicle of Novogord, P. 64.

(2) Sinor, History of Hungary, PP. 66 -67.

(٣) إبرار كريم الله : المرجع السابق، ص ٢٧.

وتمضي حولية نوفوجارد في سرد تفاصيل اكتساح القوات المغولية لمناطق روسيا حيث تقطن العديد من القبائل التركمانية. وقد أرسل ملك الكومان في طلب النجدة من الدوقات الروس، واتفق الروس والكومان على قتل السفراء المغول الذين طلبوا منهم الاستسلام، ودارت معركة حاسمة بين الفريقين في الحادي والثلاثين من مايو سنة ١٢٢٣م على شاطئ نهر كالكا -Kalka- الذي يصب في بحر آذوف -Azof- ألحق فيها المغول هزيمة منكرة بالقوات المتحالفة التركمانية والروسية وانتهت بمقتل معظمهم وأسر الباقي(١).

وعن غزو التتار لجنوب روسيا يذكر -ابن الأثير-: "لما عبر التتر دربند سروان ساروا في تلك الأعمال وفيها أمم كثيرة منها اللأن واللكذ وطوائف من الترك فنهبوا وقتلوا من اللكذ كثيرًا وهم مسلمون وكفار، وأوقعوا بمن عاداهم من أهل تلك البلاد، ووصلوا إلى اللأن، وهم أمم كثيرة، وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعًا من قفجاق فقاتلوهم، فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون : نحن وأنتم من جنس واحد، وهؤلاء الآن ليست منكم حتى تنصروهم، وليس دينكم مثل دينهم، ونحن نعاهدكم أننا لن نتعرض إليكم، ونحمل إليكم من الأموال ما شئتم، وتتركوا بيننا وبينهم، فاستقر الأمر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك، فحملوا إليهم ما استقر وفارقوا قفجاق وهم آمنون عندما استقر بينهم من الصلح، فلم يسمعوا بهم إلا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأول فالأول، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوه إليهم، وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر، ففروا من غير قتال، وأبعدوا، فبعضهم

---

(1) The Chronicle of Novgord, PP: 65 – 66, Howorth, vol, 1, P. 95.

أعتصم بالعياض، وبعضهم بالجبال، وبعضهم ببلاد الروس، وأقام التتر في بلاد قفجاق(١).

ولما استولى التتر على قفجاق سارت طائفة منهم إلى بلاد الروس، وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم، وأهلها يدينون بالنصرانية، فلما وصلوا إليها اجتمعوا كلهم، واتفقت كلمتهم على قتال التتر أنى قصدوهم، وأقام التتر في أرض قفجاق مدة، ثم ساروا سنة عشرين وستمائة " ١٢٢٣" إلى بلاد الروس، فسمع الروس وقفجاق خبرهم، وكانوا مستعدين لقتالهم، فساروا إلى طريق التتر ليقابلوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم التتر، فعادوا علي أعقابهم راجعين، فطمع الروس وقفجاق فيهم، وظنوا أنهم عادوا خوفا منهم وعجزًا عن قتالهم، فجدوا في إتباعهم، ولم يزل التتر راجعين، وأولئك يقتفون أثرهم اثني عشر يومًا، ثم إن التتر عطفوا على الروس وقفجاق، فلم يشعروا بهم إلا وقد لقوهم على غرة منهم، لأنهم كانوا قد أمنوا التتر، واستشعروا القدرة عليهم، فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيمًا، فصبرت الطائفتان صبرًا لم يسمع بمثله، ودام القتال بينهم عدة أيام، ثم إن التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخنٍ فيهم التتر وكثر القتل في المنهزمين، فلم يسلم منهم إلا القليل، ونهب جميع ما معهم، ومن سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة، وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم، وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام(٢).

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، ص ٤١٧ – ٤١٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، ص ٤١٨.

ومن المدهش أن رواية "ابن الأثير" عما فعله التتار بقفجاق الروس تتفق في مضمونها مع حولية نوفوجارد مع اختلاف بعض التفاصيل هنا أوهناك، وربما يرجع ذلك أنهما استمدا معلوماتهما من تجار الرقيق الذين كانوا بين الآلاف من القبائل التركمانية والروسية، حيث حملهم المغول وباعوهم في أسواق الشام، فاهتم الأيوبيين بشرائهم وضمهم إلى فرقهم وجيوشهم.

ويرجع "ابن الأثير" سبب الغزو المغولي إلى: "أن بلاد القفجاق كثيرة المراعي في الشتاء والصيف، وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى، وأماكن حارة في الشتاء وكثيرة المراعي وهي على ساحل البحر(١).

ومن البديهي أن روسيا لم تكن كفؤاً أو شبه كفء لملاقاة الضربات القاصمة التي كالتها الخيالة الغليظة القلب للروسيين في غير هوادة أو رحمة، ما دام أمراء روسيا أحزابا وكلمتها متفرقة وشيعًا متنابزة متحاربة، ولهذا انهارت الفروسية الروسية، واندحرت وانهزمت كلها واحدة بعد الأخرى في الجنوب والوسط والشمال الغربي من روسيا، وبدأت بداية مريرة بهزيمة كالكا سنة ١٢٢٣م(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ازدياد حدة الخلافات الإقطاعية القائمة بين الأمراء الروس، وعجزهم عن توحد جهودهم تحت قيادة موحدة كان وراء الهزيمة التي أصابتهم، ولو أنهم اتحدوا جميعًا تحت قيادة أمير واحد لحازوا النصر(٣).

ومن أسباب هزيمة الروس كذلك أن الروس بسبب ثقل أرديتهم ودروعهم وعدتهم، لم يكن في إماكنهم التحرك في سهولة ويسر وخفة

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، ص ٤١٧.
(٢) فشر : أوروبا العصور الوسطى، جـ ٢، ص٤٠.
(3) Spector, Anintroduction to Russian and culture, P. 9.

أمام المغول الذين تخففوا من ملابسهم وكانوا على خيولهم يسابقون الريح وفي يدهم القوس والرمح، مما جعلهم أكثر خفة وحركة، بحيث يستطيعون الكر والفر بسهولة ورشاقة أمام العدو(١) ، حتى أن "ماركوبولو" قال: (أن السرعة التي ينتقلون بها عجيبة، وبواسطتهم يمكن للإمبراطور أن يحصل على الأنباء من أي مكان على مسيرة عشرة أيام في ليلة واحدة فهم يسابقون الريح بأقصى سرعة)(٢) .

ولقد انتهت معركة كالكا بالقضاء على القوات الروسية قضاءً مبرمًا، وكان في مقدمة ضحايا هذه المعركة الأمراء الروس، وفي هذا الصدد يروي المؤرخين بعد أسر القواد الروس وأمرائهم الذين اتهموهم بالخيانة وكبلوهم بالأغلال، وأقاموا فوقهم طورًا أجلس عليه كبار رجال المغول ليطعموا وليمة النصر، ومات الأسرى الأشراف اختناقًا سنة ١٢٢٣م(٣) . على أن هذه المعركة لم تجن ثمار النصر الذي أحرزه المغول، لأن المغول لم يتابعوا تقدمهم داخل روسيا، بعد أن أصبحت أبوابها على مصراعيها أمام المغول، وفجأة ارتد المغول إلى منغوليا مثلما ظهروا فجأة.

ويقول أحد المؤرخين المعاصرين: (إن الرب وحده يعلم متى آتو وأين ذهبوا)(٤) . وأن أرجع الكثير من المؤرخين أن سبب الانسحاب المغولي المفاجيء هوموت الخان الأعظم.

كان موت جنكيز خان في أغسطس سنة ١٢٢٧م بعد تأسيس إمبراطورية مغولية عظيمة مترامية الأطراف، وبعد رحلة طويلة من المرض قضى بعدها نحبه، فكان من الصعب على المغول أن يصدقوا

---

(1) price، Russia The rough The centuris, P. 23.

(٢) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، ص ١٢١ .

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة، ص ١٥٧ – ١٥٨ .

(4) The Chronicle of Novgorod، P. 268 ; Spector, oP. cit., P. 24.

أن الرجل الطويل المسن ذو الكتفين العريضين والعينين الرماديتين اللتين كانتا تشبهان عيني القط، قد رحل إلى الأبد، وانعدمت حركته داخل التابوت الذي كان يهتز ويترجرج فوق الطرق الموحلة، وأخذوا يقولون لبعضهم البعض: (لقد كان كالنسر الطائر يبحث عن فريسته، ولم يسبق أن كان له بيت أو مستقر) وطوال هذه الرحلة عبر الصين كان المغول يقتلون كل من يقع بصره على عربة الموت المارة أمامهم، لأنهم لم يريدوا أن يعرف أعداؤهم بموت الخان، أو لعلهم أرادوا أن تصحب أرواح هؤلاء القتلى الخان في رحلته إلى السماء.

وخرج النساء ينحبن مشيعات ويولولن قائلات: (في وقت الشدائد كان الخان يطعمنا، وعندما تهب ريح الشتاء كان يدفئنا، أما الآن وقد ذهب، فالماء الحلو لم يعد يجري في أنهارنا، كما اختفت الظلال من أشجار حدائقنا). وما بقى من الخان سوى الرعب الذي بثه اسمه في القلوب(١).

وكان جنكيز خان قبل وفاته قد قسم إمبراطوريته بين أولاده لتدريبهم على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسئوليات وقسمها على النحو التالي:

١) كان نصيب جوجي وهو أكبر أبنائه البلاد الواقعة بين نهر أرتشي والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وكان اسم تلك البلاد عامة قبجاق، ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية – Golden Horde– نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي، وكان أغلبية أهلهما من الأتراك التركمان(٢)، ولما كان جوجي قد توفي قبل الخان الأعظم قرر الخان أن تكون من نصيب حفيده باتوبن جوجي.

---

(١) هارولد لام: جنكيز خان وجحافل المغول، ص ١٤٥ – ١٤٦.
(٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٣٩٤ – ٣٩٥، حاشية ٤.

٢) اختص الخان الأعظم جغتاى ببلاد الأويغوريين وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة·

٣) المنطقة الأصلية لأجداد جنكيز خان، يعني أنهار كرولين وأنن وأرخن وقراقورام، وكانت من نصيب تولوي أصغر أبناء الخان·

٤) أما القسم الرابع الذي خص به ولي عهده أوكتاي فكان أقل نصيب أخوته، وكان ينحصر في مناطق جبال تارباجاي وبحيرة الأجول وحوض نهر إيميل الذي يصب في تلك البحيرة ويقع غرب منغوليا(١)·

وبعد موت الخان الأعظم جنكيز خان أجمع القوريلتاي المغولي على أوكتاي خلفًا له، غير أن أوكتاي حاول التنحي والاعتذار بحجة أنه غير أهل لتولي هذا المنصب الخطير، ولكن إخوته وأقاربه أغلقوا أمامه كل باب للإعتذار، وأصروا على أن يقبل المنصب، وذكروه بوصية أبيه في هذا الشأن، فقبل اقتراحهم في آخر الأمر، ونصّب خانًا أعظم على عرش المغول في سنة ١٢٢٩م·

وفي هذه الجلسة التاريخية في اجتماع للقوريلتاي اتفق المجلس الأعلى الذي يضم أبناء الخان الأعظم وأحفاده وكبار قواده في قراقورم الموافقة على تسيير الجيوش المغولية إلى اتجاهات أربع وهي:

أولاً : ضد كوريا التي تمردت على المغول بعد إخضاعها سنة ١٢٣١م·

ثانيًا : ضد مملكة سونج جنوب الصين·

ثالثًا : ضد العراق وسوريا ومنطقة بحر قزوين وسلاجقة أسيا الصغرى ومملكة أرمينيا الصغرى·

رابعًا : ضد روسيا والغرب الأوروبي·

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص١١٠·

والذي يهمنا في تسيير هذه الجيوش هو العنصر الآخر في إعلان المغول الحرب على روسيا والغرب الأوروبي، وهو موضوع الدراسة في الفصل الثاني.

□ □ □

الفصل الثالث

غزو المغول لروسيا

١٢٣٦ – ١٢٤٠م

أولاً : غزو روسيا :

بعد موت الخاقان الأعظم جنكيز خان ١٢٢٧م تولى بعده ابنه أوكتاي (١٢٢٧–١٢٤١م) حيث تولى أوكتاي فعليًا ١٢٢٩م وأصدر أمرًا يلزم كل القادة المغول بإرسال فرق حربية تحت قيادة باتوالي روسيا والغرب الأوروبي، وأنضم تحت لوائه مجموعة كبيرة من أمراء بيت جنكيز خان وأشهرهم جويك –Guyk– وقادان –Kadan– ولد الخاقان أوكتاي، ومونجو –Monga– بن تولوى وبيدر Baidar بن جغتاى وبيورى –Buri– حفيد جغتاى، وتم تعين سوبداى القائد الأعلى لهذه الجيوش نظرًا لخبرته الواسعة في الحرب، وخاصة تجربته السابقة في ميدان القتال في جنوب روسيا(١)، وعلى الفور قرر مجلس الحرب توجيه حملة لغزو أوروبا، وسرعان ما اجتمعت الجيوش المغولية، وأمر أوكتاي بتزويد هذه الجيوش بالمؤن والسلاح والآلات الحربية وعمل على تأمين خطوط مواصلاتها.

وكانت القيادة من الناحية الاسمية لباتوخان الاستبس والأورال، والقيادة الفعلية لسوبداى الذي سبق وأن قاد العمليات الحربية في فارس وروسيا والصين، والتي برهنت مقدرته الجربية على أنه أفضل القادة لتحقيق الانتصارات وإدارة العمليات في روسيا، رغم بلوغه سن الستين(٢).

---

(1) Verna dsky، The Mongols and Russia، pp. 48 – 49.

(2) Brawdin، the Mongol Empire، p.246، Saunders ،op. cit., pp. 8. – 81.

وسلكت الجيوش المغولية طريقًا غير الطريق الذي سلكوه عند غزو جنوب روسيا سنة ١٢٢٣م وهو طريق القوقاز، ولكن في خريف سنة ١٢٣٦م سلكوا طريق آخر حول الطرف الشمالي من بحر الخزر، وكانت عدتهم حوالي خمسمائة ألف كلهم تقريبًا من الفرسان(١)، وان كان هذا العدد ضخم جدًا بمقاييس هذا العصر.

وذكر معظم المؤرخين أن الجيش المغولي كان يتألف من خمسين ألف مقاتل(٢)، وذكر بعضهم أنه كان يتألف من خمسين ألف مقاتل فضلاً عن سبعين ألف مقاتل من عناصر التركمان الذين جندهم باتومن المناطق التي احتلها في جنوب روسيا عند بدء حملته(٣).

وكان على المغول أن يبدءوا باخضاع مملكة البلغار التي كانت قابعة في منطقة الحوض الأعلى لنهر الفولجا حتى جبال الأورال؛ وذلك لتأمين خطوط الاتصال بين القوات المزمع تقدمها غربًا وبين مركز الإمدادات في أقصى الشرق(٤).

وذكر –ابن الأثير عن الغزو البلغاري لروسيا قائلا: (لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه، ونهبوا بلادهم عادو عنها، وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم، كمنوا

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة، جـ٤، م٤، صـ ١٥٨.

(2) Saunders, op. cit., p 81.

(3) Vernadsky, op ,cit., P. 49.

(٤) كان البلغار يسكنون شمال القوقاز وشواطئ بحر آذوف ونهر الدون، كما كانت لهم علاقات وثيقة مع القبجاق وهم من نفس المجموعة الرعوية، ويبدوان جزءًا من أراضي القبجاق كان من ضمن مساحة دولة بلغاريا العظمى، ولم تنقطع الصلة بينهم بعد هجرة البلغار إلى ضفاف نهر الفولجا ولكن ليس هناك مجال للحديث عن تأثير القبجاق على البولجار، لأنهم من نفس الفصيلة.

انظر في ذلك :

– إبرار كريم الله : المرجع السابق صـ ٤٦ .

لهم في عدة مواضع، فخرجوا إليهم ولقوهم، واستدرجوهم إلى أن جاوزا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا في الوسط، وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل، قيل كانوا نحو أربعة آلاف رجل، فساروا إلى سقين عائدين إلى ملكهم كزخان، وخلت أرض قفجاق منهم، فعاد من سلم منهم إلى بلادهم، وكان الطريق مقطوعًا منذ دخلها التتر(١).

أما حوليه – نوفوجارد– تشير في سنة ١٢٣٧م أن التتار الأشرار قد استولوا على بلاد البلغار، وأخذوا مدينتهم الكبيرة بلغار –Bolgar– وذبحوا كل السكان من الرجال والنساء والأطفال(٢).

وبذلك استطاعت القوات المغولية توجيه ضربة قوية مفاجئة لمملكة البلغار تحولت على أثرها إلى التبعية المطلقة للغزاة المغول، وتم بعد ذلك إخضاع قبائل الباشكير –Bashkirs– التي كانت تعيش في منحدرات الأورال، وفي نفس الوقت أرسلت فرقة مغولية بقيادة مانجو إلى الحوض الأدنى لنهر الفولجا شمال بحر قزوين –حيث البولجار– طاردت قبائل القفجاق (الكومان) وملكهم على نهر الفولجا والغابات المحيطة به وقتلوا قائدهم(٣).

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ، جـ ١٠، صـ ٤١٨.
(2) The chronicle of Novcgrod, P. 81.
(٣) لم يحدث الغزو المغولي لأراضي البولجار تغيرًا ملحوظًا في كيان الشعب البولجاري، لأن الغزاة لم يستقروا على أراضيها، ولم يكونوا على اتصال دائم معها، أضف إلى ذلك شدة الاختلاف بين المغول والبولجار من حيث اللغة والعادات والحضارة والتنظيم الاجتماعي والتقاليد، وحين زحفت جحافل المغول إلى أوروبا الشرقية، ألحقت الهزيمة بالجيوش الروسية على ضفاف نهر كالكا. وكان البولجار قد انتصروا على الكتائب المغولية التي أرسلت في خريف سنة ١٢٢٣م إلى أواسط نهر الفولجا، وولى المغول هاربين من بلاد البولجار. وقد حاول المغول فيما بعد التغلغل إلى مملكة بولجار عدة مرات ولكنهم اضطروا للانسحاب عقب اصطدامهم بمقاومة=

وفي ربيع سنة ١٢٣٧م هاجم المغول الترك النازلين في البراري الروسية، والذين عرفهم المسلمين باسم القفجاق، وأطلق عليهم المجريون والبيزنطيون اسم الكومان، فأعلن جانب من هؤلاء القفجاق الخضوع إلى المغول وبقوا تحت سيادتهم، فأصبح هذا العنصر التركي هو أساس سكان خانية المغول، التي عرفت بخانية القفجاق والتي اشتهرت باسم القبيلة الذهبية التي حكمها أحد فروع بيت جوجي خان(١).

وفي نهاية سنة ١٢٣٧م اتجه المغول غربًا، وكانت قواتهم كبيرة جيدة التسليح والتنظيم وكان على رأسها الأمير باتوخان، وكانت إمارة ريازان –Riazan– هي أول من تلقى ضربات الغزاة(٢)، وأرسل المغول إلى أميرها يورى أجور فيتش – IaRiiIgoRevich – إنذارًا بتسليم عشر سكان المدينة، ولكن الأمير الروسي منع السفراء من

=البولجار المستمية، ولم يستطيع المغول أن يتغلبوا على البولجار إلا بعد ثلاثة وعشرون عامًا، وقد تحققت هذه الحملة سنة ١٢٣٦ م حيث اشترك فيها أمراء الأسرة الملكية؛ ويذكر المؤرخون الروس عن الحملة :(كانت الأرض تئن من أعداد الجنود الضخمة التي تجمعت على الحدود الشرقية لأراضي البولجار، وأصيبت الحيوانات المفترسة وطيور الليل بالجنون من تكتل الجيوش) ولم تكن القوى متساوية فتساقط البولجار في هذه المعارك، وتعرضت القرى والمدن للنهب والسلب والتخريب، وتم القضاء على آلان قبجاق وموردفا، ثم جاء الدور على الأراضي الروسية.

انظر في ذلك :

- إبرار كريم الله المرجع السابق صـــ ٤١.
- Chambers. J، the Devil's horsemeni the Mongol Ivasion of Eurpe، London، 1979 ،pp.81 – 82 – comb. med hot. vol. 4, p. 652

(1) Morgan، op. cit., P. 174.

(٢) الكسييف كارستوف : المرجع السابق، صـــــ١٣.

دخول مدينة ريازان وأعلمهم أن كل شيء سيئول إليهم بعد نهايتهم جميعًا، وهذا يعنى تفضيله الموت على الاستسلام للمغول(١) ، وأرسل أمير ريازان إلى الأمير فلاديمير يطلب مساعدته فأجابه بقوله: " لقد هاجموكم أنتم فعليكم أن تدافعوا عن أنفسكم بأنفسكم"(٢) ·

ولقد كانت العادة العسكرية المتبعة عند المغول أثناء زحفهم للاستيلاء على القلاع والحصون تعتمد على الأسرى الذين لا حول لهم ولا قوة يسقونهم أمامهم لشد أذرهم في عمليات الحصار الأولى، وإذا بدأت المعركة يقذفون بهؤلاء المساكين من خلال الفجوات التي يحدثونها في أسوار القلاع والحصون الخاصة بالمدينة التي يغزونها، لكي يتلقوا السهام المنهالة عليهم دون أن يجدوا سبيلاً للفرار·

أما المغول فهم وحدهم الذين كانوا يشتركون في القتال بعد أن ينهك الأسرى قوى الأعداء(٣) ·

ووقفت إمارة ريازان تقاتل وحدها ضد المغول بصلابة وشجاعة، وبعد حصار استغرق ستة أيام أبدت خلاله مقاومة مريرة ويائسة، دمرت القوات الغازية أهم مدن الإمارة – Pransk, Muaom, kolomna– وبذلك سقطت ريازان، وحرقت المدينة وأخذ في الأسر من بقى حيا حتى الأطفال والنساء والشيوخ لم يبق منهم من يروي خبر الكارثة التي سحقتهم أو يذرف الدمع على القتلى(٤) ·

---

(1) Brawdin, op. cit., P. 250.

– ول ديورانت : قصة الحضارة، صـ ١٥٨·

(٢) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـ ١٣·

(3) Brawdin, op. cit., P. 25..

(4) Howarth, op. cit., Vol.1, P. 139., D'ohsson, vol. II. P. 625.

– ول ديورانت المرجع السابق، صـ ١٨٥، الكييف كارتسوف: المرجع السابق، صـ ١٣·

وبعد ريازان تحرك باتو صوب مدينة فلاديمير، فندم أمير فلاديمير على أنه لم يساعد الريازانيين في الوقت المناسب، ولقد جاء الندم بعد فوات الأوان. وقد حارب الفلاديميريون بشجاعة، ولكن لم يساعدهم أحد حيث لقي أميرها رومان إيجور فتش مصرعه(١)، وسقطت المدينة في يد باتوفي الرابع عشر من فبراير سنة ١٢٣٨م، وشهدت تلك المدينة مذبحة فظيعة أقامها المغول في الأهالي، حتى النبلاء قصوا شعورهم، وارتدوا مسوح الرهبان، ولجئوا إلى الكنيسة للاحتماء بها، بيد أن المغول لم يتورعوا عن إحراق الكنيسة بمن فيها فقتل هؤلاء النبلاء عن آخرهم(٢).

ولم تجد قوات باتو وسوبداى صعوبة خلال شهري فبراير ومارس في الاستيلاء على ما يجاورها من مدن وهي موسكو*، وكانت وقتذاك مدينة صغيرة وسوزرالك –Suzdal– ودميتروف –Dmtrov– ويوريف –Yuriev– ويتغير –Tver– وتوزرك –Torzhok– وقتلوا وشردوا وأسروا سكانها، ولم يعد أمامهم من المدن القوية في شمال روسيا سوى مدينة نوفوجارد القوية(٣).

---

(١) الكسييف كارتسوف، صـ ١٣.

(2) 5– Howarth, op.cit., Vol, 1, PP. 139 – 140.

* موسكو هي مدينة روسية جاء ذكرها لأول مرة في التاريخ سنة ١١٤٧م قبل الغزو المغولي بمائة عام، وانسلخت مدينة موسكو من قرية صغيرة من قرى سوزدال، وكان أميرها في ذلك الوقت هو فلاديمير يورى دولجوروكي، وكانت حاضرة صغيرة على نهر موسكو وعلى مر السنين نمت واتسعت وأصبحت أمارة، وفي عهد إيفان العظيم(١٤٦٢–١٥٠٥م) أصبحت موسكو واسطة العقدين بين مجموعة من المدن، وأصبحت حاضرة الدولة المسكوفية العظيمة.

انظر في ذلك:

- فشر المرجع السابق، صـ ٤٠٩ ــ ٤١٢ ــ ٤١٥، الكسييف كارتسوف: المرجع السابق ص ٢٠– ٢٦.

(3) The chronicle of Novogored pp. 82 - 83.

وفي الوقت الذي كان فيه الغزاة على بعد خمسة وستين ميلاً فقط من مدينة نوفوجارد، وفي الوقت الذي ارتعدت فيه فرائض سكانها خوفًا من موت عاجل، تراجعت قوات باتو عن الشمال وانسحبت إلى الجنوب، وبذلك أنقذت المدينة من المصير الذي واجهته بقية المدن الروسية الأخرى التي واجهت المغول، وتذكر حولية نوفوجارد أن سبب هذا التوقف يرجع إلى : " بركة من الرب وبركة من كاتدرائية سانت صوفيا، وابتهالات ودعوات رجال الدين المخلصين وأميرها التقي ورهبانها المتبتلين"(١)، والتفسير الديني للأحداث ليس مستبعدًا عن الحوليات الكنسية في العصور الوسطى، وهذه الحولية هي التي ذكرت أن الرب أراد أن يطهر المسيحيين من ذنوبهم فأرسل عليهم التتار.

ويذكر –جورج فيرنادسكي– ومعه بعض المؤرخين المحدثين بأن دفء مارس وبداية فصل الربيع قد جعل الجليد يذوب، وأن الأنهار والقنوات التي كانت تصب في بحيرة المان –Ilmen– جنوب نوفجارد قد غطت الأراضي الواقعة جنوب المدينة، وأصبحت مستنقعات يصعب التحرك فيها، لذلك فقدت القوات المغولية سرعة الحركة على الجليد التي كانت تتميز بها(٢).

والحقيقة أن هذا الأمر مستبعد؛ لأن المغول بدءوا عملياتهم في شمال روسيا في فصل الشتاء القارس الذي كان حائلاً فيما بعد ضد قوات نابليون وهتلر بعد ذلك بستة قرون وحقق انتصارات ساحقة على الروس. ويذكر فيرنادسكي أن الجنود المغول قد تعودوا في منغوليا على البرد القارص وقسوة المناخ لهذا كانوا يرتدون الفراء وجلود الخيول كملابس واقية ضد البرد والجليد، وأن وسيلة الانتقال

(1) The chronicle of Novogored ،p. 84.
(2) Vernadsky، op. cit., P. 51 ; chambers، op. cit., P. 76.

المغولية كانت الخيول القادمة من شرق أسيا والتي تعودت على البرد والجري بسرعة فوق الجليد، حتى أنها كانت تنبش بحوافرها الجليد الرخو للوصول إلى جذور النباتات لتتغذى عليها، كما أن تجمد الأنهار والبحيرات الكثيرة في شمال روسيا في فصل الشتاءِ كان ميزة لهم، حيث جعل عبور القوات المغولية عليها أمرًا سهلاً دون مشقة بناء الجسور في فصل غير فصل الشتاء(١).

ولم ينقذ نوفوجارد من الخطر المغولي المحدق بها إلا ذوبان الجليد في فصل الربيع، عندما تحركت قواتهم إلى الشمال الغربي إلى مدينة نوفوجارد الغنية ولكنها لم تصل إليها بسبب المعارك التي لم تنقطع مع القوات الروسية التي أضعفت الغزاة بشدة وقللت عدد قواتهم، وفي الربيع أصبحت الغابات والمستنقعات والبحيرات حول نوفوجارد مستحيلة العبور أمام فرسان المغول وتحول الغزاة إلى الجنوب، لكي يكملوا قواتهم ويدعمونها في مناطق البراري في الجنوب، وظهر أن الطريق إلى الجنوب ليس سهلاً(٢).

للعلم إن هذه الشعوب(المغول) لم تكن تعوقهم جبال أو بحار أو أنهار أو فيضانات إذا صمموا على اكتساح أي مكان يظهر به عدولهم، لأنهم اكتسحوا الأراضي البولندية والمجرية بما فيها من أنهار وفيضانات في أبريل سنة ١٢٤١م، أي: وقت ذوبان الجليد، مما يدل على أن المغول لم يوقفهم ذلك، ولم يتأثروا في زحفهم على روسيا بقسوة البرد ونزول الجليد على المنطقة، فإن دفء الربيع إن لم يكن ميزه فانه ليس عائق لتقدمهم(٣).

---

(1) Vernadsky، op. cit., P. 5; Brawdin، op. cit., PP. 25. – 251.
(2) 6 - Morgan، op. cit., PP. 137 – 138.

(٣) ومما يدل على تأييد هذا الرأي رواية بن الأثير عن عبور قوات سوبداي القائد المغولي –نفس القائد الذي انسحب أمام نوفوجارد– عندما تتبع قوات السلطان الخوارزمي علاء الدين تحت أحداث سنة ٦١٧ هـ ذكر: (أن–

وعلى أيه حال قرر المغول العودة إلى المراعي الجنوبية، واتخذوا طريقا غير الذي تقدموا به من قبل، وأثناء مرورهم دمروا المدن والمراعى التي مروا بها، وصمدت أمامهم مدينـــة كـــوزيلسك -Koselsk- الصغيرة الواقعة في إقليم كالوجا -Kaluga- في الجنوب، ولكن المدينة صمدت لحصار المغول سبعة أسابيع (٥٠يومًا) وحتى عندما اقتحم المغول هذه المدينة استمر سكانها في المقاومة ببطولة، حيث كبدت المغول خسائر كبيرة في الأرواح الأمر الذي جعل باتويوجه إليها جيشا ضخمًا استطاع الاستيلاء عليها وقام بذبح سكانها لذلك سماها الغزاة (المدينة الشريرة)، ثم واصل باتو سيره حتى وصل إلى الحوض الأدنى لنهر الدون، حيث عسكرت جيوشه طلبًا للراحة والاستعداد لمواصلة الغزو مرة أخرى(١)٠

وفي أواخر سنة ١٢٣٩م تمت عمليات حربية محدودة من المغول، حيث قامت فرقة مغولية بقيادة مانجو بغزو قسم كبير من القوقاز شمال بحر قزوين، وفي نفس الوقت أخضعت قوات باتو معظم القفجاق وأجبرتهم على الاعتراف بسيادة المغول عليهم بعد أن قتلوا

=جنكيز خان لعنه الله سير عشرين ألف فارس يطلبون خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء، وعبر خوارز مشاه البحر، ولم يجدوا هناك سفنا، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم، وألقوا الخيل في الماء وامسكوا أذنابها، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء بالسلاح والمؤن فعبروا كلهم دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزم مشاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة، رغم أنهم كانوا متماسكين لأن نهر جيحون كان عائقا بينهم وبين المغول)٠

انظر في ذلك :

- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١٠، صـــــ٤٠٦٠

(1) Howarth, op. cit., VoL.I, P. 141 ; Saunders, op. cit., P. 83.

- الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، ص ١٤٠

منهم عددًا غير قليل، ومع ذلك فر منهم عدد يقدر بحوالي أربعون ألفا، منهم ملكهم كوتان، وطلبوا حماية ملك المجر بيلا الرابع (١٢٣٥- ١٢٧٠م) حتى يصبحوا تحت تبعيته ليستخدمهم في الدفاع عن بلادهم ضد المغول، لذلك منحهم حق اللجوء والاستقرار في بلاده(١).

وفي أوائل سنة ١٢٤٠م أعيد تنظيم القوات المغولية، وتوزيع قيادتها وتخطيط عملياتها في ضوء التجارب السابقة في روسيا التي جمعها القادة المغول من حكام المدن المستسلمة أو المقهورة أو الأسرى الذين وقعوا في أيديهم(٢).

وفي خريف سنة ١٢٤٠م مضى باتوفي زحفه إلى أوكرانيا، فنهب مدينتي شرنجوف -Chernigov- وبريسلافل -Pereiaslav- ثم زحف حتى وصل مدينة كييف "أم المدائن الروسية"، وأرسل باتوالى المدينة إنذار بالتسليم أو التدمير. ولكن أهل كييف قتلوا رسل المغول فصمم باتو على الأنتقام، وعبر نهر الدنيبر.

ويروى المؤرخون: "عندما اقتربت حشود التتار من أسوار المدينة جذع أهالي المدينة، بسبب ضوضاء العربات المغطاة، وخوار الجمال والماشية وصهيل الخيول وصرخات الحرب الصادرة من المحاربين الغزاة الوحشيين، كل هذا أوجد ضجة عالية مرعبة سدت آذان الأهالي، فجعلت من الصعب أن يسمع أحدهما الآخر، وغطت على ما يدور من حديث داخل أسوار المدينة، وأسر أهل كييف أحد المغول الذي أخبرهم بأسماء قادة المغول وبأن باتوا قد أحضر آلات الحصار التي نقبت جدران المدينة ليل نهار حتى أحدثت فيها فتحات

---

(1) Verenadsky, op. cit., PP. 51 -52 ; Saunders. Op. cit., P. 83 ; Sinor, Hist. of Hungry, PP. 67 -71.

(2) Saunders, op. cit., P. 83.

دخل منها الغزاة الذين رموا سكان المدينة المذعورين بالسهام والأقواس، واستولى الغزاة على مدينة كييف المنيعة في السادس من ديسمبر سنة ١٢٤٠م بعد مقاومة قصيرة استمات الأهالي في الدفاع عنها، وبعد المعركة لجأ حشد هائل من الأهالي إلى الكاتدرائية الرئيسية في كييف، ولكن الكاتدرائية انهارت عليهم بسبب كثرة الزحام فلقوا مصرعهم، أما بقية الأهالي فقد تعرضوا لمذبحة مروعة على أيدي قوات باتو، وتعرضت كنوز مدينة كييف العظيمة للدمار وتحولت كنائسها إلى حطام، على أن باتوا أبقى على حياة ديمتري قائد الحامية لشجاعته التي استرعت إعجابه[١]، وبعد الاستيلاء على كييف وحرقها، خربوا كل الأراضي الروسية.

وقد ترك المغول وهم يتحركون فيها مدنًا محترقة وحقولاً متلفة، ولكنهم تركوا أيضا الآلاف من جثث جنودهم، ومما يذكر أن يوحنا الكاربيني مبعوث البابوية للمغول قد مر على هذه المدينة بعد ست سنوات من تدميرها فوصفها بأنها بلدة تحتوي على مائتي كوخ، وقد تناثرت الجماجم في الأراضي المحيطة بها[٢].

ولقد ذكر المؤرخون أن المقاومة الروسية البطولية للشعب الروسي أضعفت المغول إلى حد كبير، وكانت سببًا في إنقاذ الغرب الأوروبي من هجوم الغزاة، ولكن روسيا نفسها هزمت، وقد حدث هذا لأن المغول لم يواجهوا القوة الموحدة للدولة الروسية، وإنما قوى الإمارات المنفردة المفككة التي كانت كل منها تعمل على حدة، وحل على روسيا وقت عصيب وكئيب، واستقر المغول في مناطق السهول

(1) Howorth, op. cit., vol. 1, P. 14 ; Saunders, op. cit., PP. 83 – 84.

- ول ديورانت : المرجع السابق، صـــ١٥٧.

(2) Brawdin, op. cit., P. 256.

على ضفاف نهر الفولجا والدون، وأقاموا هناك دولتهم التي سميت بالأرطة الذهبية ووجه خانا الأرطة الذهبية، باستمرار فصائل مسلحة لجمع الإتاوة من السكان الروس، ولكي لا يتهرب أحد من دفع الإتاوة أجرى المغول إحصاء لكل سكان الإمارات الروسية الشعبية التالية: ويعبر بوضوح عن قسوة جامعي الإتاوة بقوله :

من ليس عنده نقود، يؤخذ منه الأطـــفال.

ومن ليس عنده أطفال، يأخذون منه زوجته.

ومن ليس عنده زوجة، يأخذونه هو نفسه(١).

وبعد سقوط مدينة كييف المنيعة أصبح الطريق مفتوحًا عبر غاليسيا -Galicea- فهرب أميرها دانيال إلى المجر، كما استولى المغول على فولهنيا وأشعلوا النيران فيها ثم واصل باتو تقدمه غربًا، ألا أن توقف في بوهيميا، ولكنها نجت من وحشية المغول بفضل أميرها فنسيسلاوس الأول -Wenceslaas I- (١٢٣٠- ١٢٥٣م) الذي جمع جيشًا ضخمًا على حدود إمارته، وصمد في المعركة التي دارت بينه وبين باتو مما جعل باتوينسحب عائدًا إلى براري نهر الفولجا الأدنى حيث استقر بها وأسس في سنة ١٤٢٣م دولة عرفت باسم القبيلة الذهبية -GoldeHhorde- وعرفها المسلمون باسم قفجاق(٢) ، وعاصمتها مدينة سراي التي أقاموها على أحد روافد نهر الفولجا، واتخذها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم الحشد الذهبي، وظل باتو وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من الروسيا مدة مائتي وأربعين عامًا من ذلك الوقت، وسمح للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأراضيهم على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبي أو للخان الأعظم في قراقورام المغولية، وأن يقوموا من حين

(١) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـــ١٤.

(2) Camb. Med. Hist. Vol, 4, P. 652 ; Saunders, op. cit., P. 83.

إلى حين بزيارة لهذا أو ذاك يقدمون لهما فروض الولاء والطاعة، ويقطعون فيها مسافات طويلة وكان الأمراء يجمعون هذا الخراج ويفرضونه على الأهالي بالمساواة القاسية، يدفع الغنى منه بقدر ما يدفع الفقير، ومن عجز عن الدفع يباع بيع الرقيق.

واستسلم الأمراء وخضعوا لسيادة المغول لأنها حمتهم من الثورات الاجتماعية، وانضموا إلى المغول في هجومهم على الشعوب الأخرى ومن بينها الإمارات الروسية نفسها وتزوج كثير من الروس من مغوليات، ولربما دخلت بعض ملامح الوجوه والأخلاق المغولية في السلالات الروسية.

وأخذ بعض الروس عن المغول أساليبهم في التحدث والملبس، ولما أصبحت روسيا تابعة لدولة آسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة والثقافة الأوروبية الغربية.

ومن الطبيعي أن تؤثر طول مدة هذه العبودية المميتة أسوأ الأثر وأعمقه في المجتمع الروسي، وهذه المرحلة من تاريخ الروسيين هي في الواقع أصل القطعية القاطعة الفاصلة بين روسيا وغرب أوروبا، واصل التأخر الثقافي الذي لم تستطع روسيا تعويضه حتى العصر الحاضر. وفي هذه المرحلة أقام أمراء روسيا بأقاليم الغابات الصنوبرية الكثيفة في روسيا الوسطى أشكالا وألوانًا من الظلم والاستبداد، وخمدت أخر جذوة من جذوات الحياة الحرة تحت أقدام الجبروت الناشئ من اتحاد الكنيسة والدولة، ولم ينج من الاضطرابات التي عمت روسيا المسيحية في هذه المرحلة سوى الرهبان والقس الذين أعفاهم التتار من جزية الروس وبنو لأنفسهم – في جو جاهل مشبع بالخرافة والإرهاب – مكانة بلغت من الثراء العقاري والنفوذ العظيم مبلغًا كبيرًا(١).

---

(١) فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، جـ٢، صـ٤١٢ .

وفي سنة ١٢٤٠م نزل الفرسان السويديون على ضفاف نهر نيفا، هادفين للتحرك إلى نوفوجارد والاستيلاء عليها، ولكن أهالي نوفوجارد بقيادة الأمير الشاب ألكسندر هزموا الغزاة شر هزيمة، وبعد هذه المعركة أصبح الأمير ألكسندر معروفًا في التاريخ باسم ألكسندر نيفسكى تكريمًا له(١) ·

وفي نفس الوقت تقريبًا بدأ هجوم الفرسان الألمان وسقطت مدينة بسكوف، وأصبحت نوفوجارد مهددة بالسقوط من جديد، وهب للدفاع عن أرض الوطن كل سكان المدينة وانضم إليهم المهاجرون من بسكوف المدمرة وقاد الأمير ألكسندر نيفسكى القوات الروسية، وفي بداية أبريل سنة ١٢٤٢م التقت القوات الروسية بالفرسان الألمان على جليد بحيرةٍ تشوسكوية وكون الفرسان الخيالة الذين يرتدون الدروع الثقيلة أسفينا وجدد دخله الجنود المشاة، وظن الأعداء أنهم سيدخلون الصفوف الروسية ويقسمونها إلى أجزاء ويبيدونها، ولكن ألكسندر نيفسكى كشف من مقاصد الفرسان الألمان وحاصر الفرسان الألمان من كل الجهات، وأطبق عليهم وهال الفرسان الأمر وولوا أدبارهم فارين، ودخلت المعركة التي انتهت بانتصار الروس تحت اسم "المذبحة الجليدية" حيث أوقف الروس هجوم الألمان وأنقذوا روسيا من العبودية الألمانية(٢) ·

ورغم وحشية المغول في روسيا والاستيلاء على معظم مدنها القوية مستغلين فرصة ما كان جاريًا في تلك البلاد من نزعة انفصالية بين الأمراء الروس، وحرص على استقلال كل أمير عن الآخر، ونجح المغول في السيطرة على تلك الإمارات واحدة تلو الأخرى، حيث أهلكوا سكانها وقتلوا ونهبوا وسبوا وانزلوا الرعب والفزع في قلوب المسيحيين(٣) ·

---

(١) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـ١٥·
(٢) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، صـ١٥ – ١٦·
(٣) مصطفى طه بدر : مغول إيران، صـ٥·

وعلى الرغم مما صاحب الغزو المغولي لروسيا من الفتك بآلاف الأهالي، وتدمير ممتلكاتهم وأراضيهم، إلا أن السيطرة المغولية لم تكن ضارة تمامًا، فقد هيأ المغول لروسيا قرنين من السلام والهدوء، لم يعهدهما تاريخ روسيا في الفترة السابقة للغزو المغولي مباشرة، الأمر الذي يجعلنا نحكم على المغول وما أحدثوه في روسيا بصورة أخف حدة من المؤرخين الروس(١) ·

فالمغول لم يغيروا الطابع العام للبلاد، ويتضح ذلك في أنهم لم يظهروا ميلاً للتدخل في التنظيم السياسي للإمارات الروسية، وكان يتحتم على الأمراء الروس أن يمدوا المغول في روسيا بالفرق العسكرية، إذ تتطلب المهام السياسية للقبيلة الذهبية القيام بحملات في أسيا والقوقاز، حيث وجب على فرق عسكرية من جميع ولايات الإمبراطورية المغولية الاشتراك فيها، وكانت روسيا واحدة من تلك الولايات المغولية العديدة(٢) ·

وعرف زعماء المغول أنهم لا يستطيعون إخضاع روسيا بالقوة وحدها فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية، وحموا ممتلكاتها ورجالها وأعفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب، وجعلوا الإعدام عقابًا لمن ينتهك حرمتها، وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله، فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول، ودعت الله جهرة أن يهبهم السلامة، وأراد الآلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم السلامة والأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا، وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية حتى أثرت الكنيسة الروسية ثراء فاحشًا وسط الفقر السائد في جميع البلاد ونمت في الشعوب روح الخضوع والاستسلام للمغول ومهدت السبيل إلى الاستيلاء الذي سلط عليها قرونا طوالاً، ولكن

(1)Spector, op. cit., PP. 26 – 27.
(2) Spector, op. cit., PP. 26 – 27.

روسيا ظلت مع ذلك هي روسيا التي حنت رأسها لعاصفة المغول، وما يدل على تصالح المغول وتسامحهم مع الكنيسة أن خان المغول نسفه سمح للروس بتأسيس أسقفية في عاصمته سراي، بل وصل الأمر إلى أكثر من ذلك، عندما اعتنق بعض أفراد أسرته المسيحية، وقام أحدهم بتأسيس دير، وأصبح بمقتضاه راعيًا للكنيسة الروسية، وتمتع الروس بتقديم الخدمات الروحية في حرية كاملة، وسمح لهم بحق إدخال الناس في العقيدة المسيحية، حتى عندما أسلم عدد من الخانات في القبيلة الذهبية، لم يستأصلوا العقيدة المسيحية الأرثوزكسية(١).

ونتيجة هذا الأمان الذي شعر به الروس امتدت شبكة البريد عبر معظم العالم القديم، وكان الرسل ينقلون الأشياء القيمة والرسائل من الشرق إلى أوروبا في أمان، حتى شاعت الأمثال في روسيا أن كلبًا لا يستطيع أن ينبح من غير أذن باتوخان، وحُكي في روسيا أن صبية صغيرة بمفردها يمكن أن تحمل كيسًا من الذهب بأمان من نهر دون إلى خامخ مدينة الخانات التي كان يطلق أسلافنا عليهم اسم كامبولوك.

واكتشف الأوربيون حقيقة إلى أي مدى كان العالم يمتد شرقًا وقام الكثيرون منهم برحلات فوق طرق البريد(٢).

فنتيجة لهذا الأمن والأمان والاستقرار الذي ساد أقاليم روسيا في عهد خانات القبلية الذهبية، قامت روسيا بعلاقات تجارية مع معظم البلاد الأوروبية المجاورة لهم، وبدون الصعوبات التي كانت عليها في الماضي(٣).

---

(1)Spector, op. cit., P. 27.

(٢) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، ص١٤٩.

(3) Spector, op. cit., P. 27.

هكذا استطاعت القوات المغولية في أربع سنوات تقريبًا (١٢٣٦-١٢٤٠م) اكتساح مساحة جغرافية هائلة وإخضاع قبائل الباشكير والبلغار والقفجاق للسيادة المغولية، فضلاً على الاستيلاء على معظم المدن الروسية ذات الأهمية الاستراتيجية، واعترفت باقي روسيا بالسيادة المغولية.

ولقد كانت هناك عوامل أدت إلى فشل الروس في مواجهة المغول، حيث كانت أول هذه الأسباب وأهمها تفكك الإمارات الروسية وعدم توحدها لمواجهة جحافل المغول، وكذلك عدم وجود تحصينات قوية أو موانع طبيعية، وخاصة وأن الغزاة يرهبون من التحصينات الحجرية القليلة التي واجهتهم، أضف إلى ذلك العامل النفسي السيىء الذي تركه سرعة اكتساح المغول للمدن الروسية وتدمير مدنها وإتلاف ذروعها وهدم تحصيناتها وذبح سكانها وأسراهم، كل ذلك ألقى الرعب والفزع في قلوب سكانها، وكانت فكرتهم عن المغول أنهم وباء من الرب لا يقهر.

أما عوامل نجاحهم فكانت متعددة، فقد كانت قيادتهم حكيمة وخبيرة ويعملون في تنسيق بارع، ويختارون الوقت المناسب للحصار أوفك الحصار وللهجوم والانسحاب مع تخطيط رائع ومدهش لتنظيم وسائل الإمداد والتموين والاتصال، فضلاً عن خيولهم الأسيوية التي كانت تتميز عن الخيول الأخرى بالسرعة الفائقة والحياة فوق الجليد والسباحة في الأنهار، وكان سقوط مدينة في أيديهم يضيف لهم قوة جديدة لأنهم كانوا يستخدمون أسراهم الأشداء في أي حصار أو قتال بني جلدتهم، عملاً بمبدأ لا يفل الحديد إلا الحديد، ويأخذون من الأسرى معلومات كاملة عن الضحايا الذين يلوهم، وكانوا يحصلون على المؤن والعتاد من أعدائهم، فيستولون على كل أسلحتم ومؤنهم وعتادهم لمواصلة الطريق للمدن القادمة؛ أضف إلى ذلك الفنون العسكرية المغولية التي صقلت خبراتها من واقع ميراث القتال من

جراء حصار أو قتال عشرات المدن من الصين شرقًا حتى روسيا غربًا. كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تفوق التتار على الروس حتى ١٣٨٠ عندما هزم جيش ديمتري دنسكوى جيش التتار في واقعة كوليكوفو على نهر دون ولقي التتار هزيمة شنيعة، أزالت عقدة النقص عند الروسيين، فإن هذه الواقعة دلت على أن التتار ليسوا معصومين من الهزيمة، وشهدت مولد أمة روسية جديدة.

***

موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا :

لم يجذب قدوم المغول إلى روسيا انتباه الغرب الأوروبي، وربما يرجع سبب ذلك إلى أن التوسع المغولي في أوروبا لم يبلغ درجة خطيرة تسترعي الانتباه وقتئذ، في الوقت الذي كانت أوروبا مشغولة بحوادث النزاع بين البابوية والإمبراطورية من ناحية والمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ازدادت وضوحًا في القرن الثالث عشر من ناحية أخرى.

فقد اجتاح المغول شرق أوروبا فبدأ بمملكة البلغار التركية ودخلوا عاصمتها الواقعة بالقرب من نهر الفولجا، ثم استولى المغول على براري روسيا أو بلاد القفجاق، وشكلوا خانية القفجاق التي اشتهرت باسم القبيلة الذهبية التي حكمها أحد فروع بيت جوجي بن جنكيز خان، وأتم بركة خان إخضاع بقية هذه المناطق وضمها إلى خانية القفجاق(١)، ثم اجتاحو روسيا وقضوا على إماراتها الواحدة تلو الأخرى، ودمروا مدنها الهامة وخاصة كييف، ثم اتجهوا إلى بولندا فاجتاحوا وقتلوا دوقها هنري، ثم انتقلوا إلى المجر وخربوا أراضيها ودمروا مدنها وقتلوا سكانها، وأجبروا ملكها بيلا الرابع على الفرار أمامهم كالكلب المذعور(٢). وسيطر المغول على شرق أوروبا في

---

(1) Morgan, op. cit., P. 174 ; Cam. cam.Hist., vol. 4, P. 652.

(٢) العريني : المغول، صـــ١٨٣.

الفترة ١٢٣٦-١٢٤٢م وأصبحت مساحات شاسعة في أوروبا من أملاك القائد الأعلى باتو· وإذا لم يكن حكام أوروبا تنبهوا إلى خطر المغول في أول مرة منذ أن اجتاز هؤلاء جبال القوقاز لأول مرة سنة ١٢٢٢م زمن جنكيز خان، إلا أن الأمر قد تغير منذ سنة ١٢٣٨م حين اندفع المغول في فتوحاتهم في تلك القارة فعلاً بشيء من الجسارة وكثير من القتل والتخريب والتدمير وإحداث المذابح الرهيبة والحرائق المدمرة، حيث أنزلوا الرعب والفزع في قلوب المسيحيين(١)·

وفي خضم حوادث الاكتساح المغولي لمدن وأقاليم روسيا وصلت الأخبار عن الغزاة وجرائمهم في أوروبا سواء بحكم الموقع الجغرافي أومن التجار أومن فرار العديد من قادة المدن الروسية إلى المجر وبولندا، ولكن لم يتحرك أحد أو يأبه بمساعدة الروس، وربما لأن الروس كانوا يدينون بالمسيحية الارثوزكسية، وكانوا بعد سقوط مدينة القسطنطينية في أيدي اللاتين الروس سنة ١٢٠٤م الذين يعتبرون كنيستهم رائدة الأرثوزكسية في العالم، وبالطبع نظر اللاتين للروس على أنهم هراطقة وهذا يدل على عنصرية الكاثوليك الغربيين وقصر نظرهم عن فهم حقيقة ودوافع الغزو المغولي، فكانوا بالطبع لا يتصورون إمكانية أن يصل المغول بعد شهور قليلة من القضاء على آخر معاقل مقاومة الروس إلى بولندا والمجر ووسط أوروبا بل إن بعض القوى اللاتينية اعتبرت أن الظروف الصعبة التي تمر بها الأقاليم الروسية في مواجهة الاكتساح المغولي هي اللحظة المناسبة للهجوم على روسيا ولهذا حاول الفرسان التيوتون(٢)، وقبائل

---

(١) مصطفى طه بدر : مغول إيران، ص٥٠·

(٢) التيوتون : هي منظمه من الفرسان التيوتون كانوا مع الإمبراطور فردريك بربروسا عندما غرق في أحد أنهار أسيا في الحملة الصليبية الثالثة وتفشى المرض بينهم، وتكونت المنظمة لرعاية المرضى، واستقت معظم مبادئها من الهيئات الدينية الأخرى مثل الأستباريه وفرسان القديس يوحنا،=

السويديين الاستفادة من مصائب الروس وانشغالهم، وقاموا بمهاجمة المناطق الشمالية والشرقية سنة ١٢٣٨م من خليج فنلندا حاملين السيف والصليب على اعتبار أن الروس الارثوزكس مثل الوثنيين(١)·

وفي يوليه سنة ١٢٤٠م هاجم السويديون وحلفاؤهم مصب نهر نيفا -Neva- لقطع مدينة نوفوجارد عن البحر البلطي مستغلين انشغال المدينة الأخيرة بالغزو المغولي·

=وأصدر البابا كلمنت الثالث مرسومًا سنة ١١٩١ م للاعتراف بها، وكانت عكا هي المركز الرئيسي لها· وقد حاول القديس أولبرت أسقف براغ نشر المسيحية بينهم ولكنه لقي مصرعه، وبدأ كريستيان موفد البابا يبشر بالمسيحية بينهم مرة أخرى، وساعده في ذلك كونراد دوق ماسونيا، ولكن هذه المهمة كانت أخطر مما توقع الأسقف والدوق، إذ ثار التيوتون وغزوا ماسونيا نفسها، مما جعل أميرها كونراد يبعث رسله سنة ١٢٢٦م إلى مقدم دير التيوتون طالبًا منه حماية أرضه من البروسيين مقابل منطقة كولـــم -Kulm- ورحب هرمان فون سالذا دوق فرسان التيوتون بهذا العرض، وحصل على تأييد الإمبراطور فردريك الثاني على هذا العرض، بحيث يمنح الفرسان التيبوتون في هذه الأراضي سلطه تامة من النواحي الاقتصادية، وخاصة سك العملة وفرض الضرائب، وعقد مقدم الدير اتفاقيات مشابهة مع الدوق ماسونيا والأسقف كريستيان، وأقر البابا جريجوري التاسع هذا الوضع سنة ١٢٣٤م بحيث يدفعون ضريبة اسمية للبابوية، ونزح الفرسان التيوتون إلى بروسيا سنة ١٢٣١م، وبدءوا يغزون الأراضي الوثنية المجاورة لهم بنجاح كبير، لأنهم بالرغم مع قلة أعدادهم نسبيًا امتازوا بقوة أسلحتهم ودرايتهم بالحزب·

انظر في ذلك :

- سعيد عاشور : المرجع السابق صـــ٦٢١ – ٦٣٠·
- Tompson, vol. 2, PP. 1.4 – 1.6 ; Cam. Med Hist., vol, 6, PP. 249 – 254 ; painter, op. cit., PP. 216 – 217 ; vernadsky, op. cit., P. 54.

(1) vernadasky, op. cit., PP. 54 – 55.

وتقدم حولية نوفوجارد تفصيل هذا الغزو ودوافع الحقد لدى اللاتين من تبجيل الروس للآباء المقدسين في خالقدونيا في إشارة إلى أرثوزكسيتهم، وأطلقوا عليهم اسم الهراطقة، ولكن القوات الروسية شتت شمل الغزاة السويديين(١)، ومن المستبعد أن تكون أخبار الغزو المغولي لوسط أسيا وشمالها قد وصلت الغرب الأوروبي عن طريق التجار البنادقة في منطقة البحر الأسود والقسطنطينية أو عن طريق الصليبيين في الشام.

والحقيقة أن أقدم وثيقة معاصرة تعرضت للمغول وتوسعاتهم وأهدافهم هي تقرير لجوليان المجري، وهو أحد الرهبان الدومنيكان الذين أرسلوا عام ١٢٣٧م إلى جنوب روسيا في بعثه تبشيرية لتنصير قبائل الكومان، ولكنه رجع فور مقابلته لأحد سفراء المغول للأمراء الروس حيث أخبره أن المغول عازمون على احتلال ألمانيا Alemania وأنهم يتوقعون وصول المساعدة من أسيا، وأنهم أخضعوا خمسة عشر شعبًا، ويدمرون ويحرقون كل ما يقابلهم من

---

(1) The chronicle of Novgord, PP. 84 – 85

- ول ديورانت : قصة الحضارة، صـ١٦٦.
- الدومنيكان: أو الإخوة المبشرون –Friars preechers– أسسها القس الأسباني دومنيك (١١٧٠–١٢٢١م) في مدينة تولوز، وهي نتاج للصراع ضد الألبيجنسيين للتبشير ضد الهراطقه، وحصلت على موافقة البابا سنة ١٢١٦م على النظام الجديد للرهبان الأوغسطنيين، فإن دومنيك أنشأ هذه الهيئة للتبشير بين الهراطقه والملحدين في جميع أنحاء العالم، ويقوم أعضاؤها بالدفاع عن العقيدة والتبشير بين الكفرة، واكتساب قوتهم اليومي من التسول والهبات، وكان لها أفرع في أوروبا وشمال أسيا ووسطها.
- **انظر في ذلك :**
- نومان كانتور : التاريخ الوسيط، صـ٥٦٢–٥٦٦.

مظاهر الحضارة والشعوب(١)، ولهذا عاد جوليان دون أن يكلف نفسه مشقة الذهاب إلى جنوب روسيا لإبلاغ ملكه بيلا الرابع بما سمع ورأى. وفي نفس العام ذهب جوليان إلى المقر البابوي في روما لإبلاغ البابا بذلك، وطلب منه أن يقوم بحشد الرأي العام الغربي الأوروبي لإنقاذ العالم المسيحي من هول هذه الكارثة وهؤلاء المتبربرين(٢).

وحمل جوليان المجري وهو في طريق عودته رسالة من دوق مدينة سوذدال الروسية إلى ملك المجر بيلا الرابع يخبره أن المغول يتآمرون ليل نهار ضد المجر، وإنهم خططوا لتوسعاتهم والامتداد حتى روما(٣)، وذكر أن هؤلاء التتار دخلوا روسيا بقوات لا حصر لها وجاءوا من التركستان، واخترقوا جبال القفاس، وأبادوا عندها جيشاً من الكرج ونهبوا القرم، واستنجد المجريون بالروس بقولهم: "لقد امتلكوا اليوم ديارنا وسيملكون غدًا دياركم" (٤).

وأعطى حاكم المدينة الروسية سوزدال جوليان الرسالة التي بعثها باتوا القائد الأعلى للقوات المغولية إلى ملك المجر، وقد أورد جوليان بعضًا من الترجمة اللاتينية لها ومنها: "إنك ملك المجر، قد أويت قبائل الكومان الخاضعة لنا، وأعطيتهم الأمان وإنني بصفتي حاكم كل البشر آمرك بوقف إيوائهم فورًا وتجنب تحريضهم علينا وهم من السهل عليهم أن يهربوا، لأنهم يعيشون في الخيام ولا منازل لهم، ولكن أنتم

(1) 7 - Diens, M., " Eastern missions " ، vol. 27, 1937 ،PP. 238 -239.

(2) Dien, op. cit., P. 235. s

(3) Dien,M., op. cit., P. 24..

(٤) ول ديورانت : قصة الحضارة، صـــ١٥٧.

ليس من السهل عليكم أن تعيشوا في هذه الخيام، لأنكم تعيشون في منازل وتقيمون في المدن فكيف بالرب تستطيعون الفرار منا ؟!"(١)٠

وذكر جوليان المجري في تقريره معلومات صحيحة بعض الشيء عن المغول، فذكر أن عددهم حوالي خمسمائة ألف تقريبًا وغالبيتهم فرسان، ويقسمون الجيش إلى أقسام عديدة بدقة، وعلى رأس كل قسم قائد من سلالة الخان نفسه، ويستخدمون الأسرى في محاربة بني جلدتهم ولقد كان المغول يخشون الحصون الحجرية ويبتعدون عنها، وهذا ما أكدته رسل البابا عندما أرسلهم إلى المغول بعد ذلك بعقد من الزمان تقريبًا(٢)٠

وهكذا فإن الملك المجري قد أحيط علمًا بخطط المغول ضد الغرب الأوروبي عامة وبلاده بصفة خاصة من تقرير جوليان المجري أو من رسالة دوق سوذدال له أومن إنذار القائد المغولي له٠

واجتاح المغول روسيا وأحرقوا المدن وهدموا القلاع واعتدوا على النساء وقتلوا الرجال وذبحوا الأطفال وخربوا المزارع وتركوا روسيا حطامًا(٣)٠

واجتاحوا بولندا بعد ذلك وأشعلوا النار في أهم مدنها وقضوا على جيشها المكون من ثلاثين ألفًا، ونفذوا إلى المجر عن طريق جبال الكاربيثيا وإلى سيليزيا، وتوغلوا فيها إلى حدود فردريك الثاني وقتلوا دوق سيليزيا، وهرب من أمامهم بيلا الرابع المجري، واستولوا على

---

(1) Saunders, op. cit., P. 221.

(2) Dien, M, op. cit., P. 234 ; john of plano carpini، History of the Mongols ed, in christoper Dawson, the Mongol mission, New york, 1955, PP. 35 ÷ 36.

(3) Brawdin, op. cit., PP. 248 – 249 ; Morgan، op. cit., P. 179.

مدينة بست، وذبحوا كل سكانها، وأنزلوا الخراب والدمار على المدن الواقعة على الأدرياتيكي(١).

على أنه في سنة ١٢٣٨م بدأ ملوك غرب أوروبا يتنبهون إلى ما ينتظرهم من أخطار على أيدى المغول، ذلك أن الإسماعيلية (الحشيشية) قد رأوا المصير التعس الذي ابتلى به المغول جيرانهم في الشرق الإسلامي والمشرق الأوروبي، فانتابهم الرعب والفزع، ولذلك حاولوا أن يؤلفوا جبهة متحدة من جميع الأقاليم المجاورة لهم لمواجهة المغول(٢).

وكان الإسماعيلية الشيعة يسكنون في قلعة الموت جنوب بحر قزوين، وقد امتد سلطانهم إلى المناطق المجاورة في شبكة من القلاع والحصون في فارس والعراق وأبدوا اهتمامًا متزايدًا بالخطر المغولي، ونبهوا حكام أوروبا إلى حقيقة الخطر القادم من الشرق بإرسال سفارة إلى غرب أوروبا سنة ١٢٣٨م تحمل هذا المعنى والإحساس المتزايد بهذا الخطر، خاصة وقد أرسل المغول رسالة إلى حكام وأمراء إيران يقولون فيها: لقد أتينا إلى هنا بناء على أمر الخان الأعظم، وعندما على تحطيم قلاع الإسماعيلية والقضاء على تلك الطائفة، فإذا ساهمتم

---

(1) Morgan, op. cit., PP. 137 – 139.

(٢) الإسماعيليون : سميت بذلك لأن أتباعها كانوا يدينون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه جعفر، وبذلك اختلفوا عن الشيعة الإمامية الإثنى عشرية (الجعفرية) الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق، وعرفوا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون بخلاف ما يظهرون. وسموا كذلك بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد، وسموا كذلك بالحشيشية لاعتمادهم على مادة مخدرة في نشر مذاهبهم الهدامة.

انظر في ذلك :

- حسن الأمين: الإسماعيليون والمغول، ونصر الدين الطوسي: بيروت ١٩٩٧م، ط١، صـ١٨٥، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ١٣، صـ٢٤٥، العريني: المغول في التاريخ، صـ١٨٤ – ١٨٥.

معنا في تلك الحملة بالجيوش والعتاد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم، أما إذا تهاونتم فإننا نتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم مما قد جرى عليهم"(١).

ويشير المؤرخون إلى أن هؤلاء الإسماعيلية اعتبروا أنفسهم الفريسة التالية للمغول، وقد أثارهم مصير جيرانهم المسلمين، وأدركوا أنهم أحد الأهداف القادمة للمغول فتحركوا في اتجاهين، الاتجاه الأول حاولوا فيه أن يؤلفوا من الشعوب التي تعرضت لخطر المغول حلفًا لمواجهة هذا الخطر بما في ذلك أعداء الإسماعيلية(٢).

ولم تقف جهود الإسماعيلية عند هذا الحد، بل إنهم أنفذوا سفارة في سنة ١٢٣٨م إلى الإمبراطور فردريك الثاني تطلب منه المساعدة والعون ضد المغول الذين يواصلون غزوهم لأراضيهم في المشرق الإسلامي، ويدمرون ويحرقون كل مكان تطؤه أقدامهم، وكان أوكتاي الخان الأعظم في تلك الأثناء قد وجهة جيوشه لغزو فارس واسيا الصغرى. ولا شك أن توجه الإسماعيلية إلى بلاط فردريك الثاني يأتي دليلاً قاطعًا على مركزه المتزايد وما بلغته الإسماعيلية من شهره، وعلى أية حال لم تجد هذه السفارة أذنا صاغية من فردريك المدافع الأول عن المسيحية في العالم الغربي ورغم ذلك حذرته السفارة قائلة: "ما لم يستطع المسلمون إيقاف المغول، فلا شيء يمنع هؤلاء المغول المتربرين من تدمير أوروبا كلها".

ويمكن أن يكون رفض فردريك نابعا من أن البابا لم يعلن الجهاد ضد المغول مثلما هو حادث ضد المسلمين في الشرق (الحرب الصليبية) أوان فكرة مساندة أوروبا للمسلمين ضد المغول كانت غير

---

(١) محمد محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، صـــ ٢٦٤.
(٢) العريني : المغول في التاريخ، ص ١٨٤ – ١٨٥.

مستساغة[١]، والحقيقة أن تحميس الإسماعيلية لإثارة الإمبراطور فردريك ضد المغول يرجع إلى ضعف الحكام في المشرق الإسلامي، وخاصة بعد أن اسرعوا بتقديم فروض الولاء والطاعة للحكام المغول[٢].

وبعد رفض فردريك المساعدة أنفذ الإسماعيلية سفارة إلى الغرب شارحين لها ما اشتهر به المغول من قسوة وميل لإثارة الرعب والخوف، وما قاموا به في البلاد التي غزوها من تدمير وتخريب وقتل بطرق غاية في الوحشية[٣].

وفي أحداث سنة ١٢٣٨م يروي المؤرخ الإنجليزي المعاصر للأحداث -متى الباريسي- ما ترجمه إلي ملوك إنجلترا وفرنسا وكان نصا من رسالة الإسماعيلية يقول متى: "وفي هذا الوقت وصل سفراء خصوصيون من المسلمين saracens[٤] وبصفة أساسية نيابة عن

---

(1) Brawdin, op. cit., P. 248.
(2) Grousset, L'mpire des steppes, P. 247.
(3) Matthew Paris's English hist. VoL. I, P. 131.

(٤) تعبير -Saraceni- تعبيرٌ شائع في المصادر الأوروبية لعصر الحروب الصليبية للدلالة على أعدائهم المسلمين. وكان الإغريق والرومان يستخدمون تعبير -Saraceni- على القبائل العربية التي تقيم في الصحراء السورية شرق البحر الأحمر، والذين كانوا يعيشون على أطراف الإمبراطورية الرومانية، واستخدم اللفظ في القرن الرابع الميلادي Saracan مرادفا لأولاد إسماعيل مشيرين إلى نفس القبيلة التي تعرف أيضاً بالمهاجرين (أولاد هاجر). وفي القرنين الخامس والسادس استخدم لفظ -Saracan- لكل القبائل العربية على حد سواء.

وبعد ظهور الإسلام فإن الإغريق أشاروا لكل المسلمين بهذا الاسم، وانتقل هذا التعبير في عصر الحروب الصليبية للغرب الأوربي ليعني أي شخص في البقاع الإسلامية، ولما كان الاسم قد أطلقه الرومان أساسًا على القبائل التي تعيش على أطراف إمبراطوريتهم، وكانت نظرتهم في أعين=

شيخ الجبل الكبير –The old man of mountauin– إلى ملك فرنسا لويس التاسع يخبره (الإسماعيلية) أن جنسًا غريبًا من البرابرة الهمجيين قد ظهروا في الجبال الشمالية، وإنهم استولوا على أراضي واسعة في الشرق، وأنهم (التتار) دمروا هنغاريا (المجر) وقتلوا كل سكانها وأرسلوا خطابات تهديد تتصف بالقوة والغلظة، وأعلن رئيسهم أنه يحكم من قبل الرب، وإمبراطور لكل البشر وإنه مفوض من الرب لاخضاع الشعوب التي ترفض الدخول في طاعته، وأن رئيسهم رجل شرير يدعى الخان وأن هؤلاء الأشرار في المناطق الشمالية في جبال القوقاز والمناطق المحيطة بها، ويطلق عليهم اسم ترتار –Tartars– نسبة إلى نهر التار –Tar– وأن أعدادهم لا حصر لهم(١).

يذكر –متى الباريسي–: " أن هؤلاء السفراء (يقصد الإسماعيلية) سفراء المسلمين الذين أتوا للملك الفرنسي قد أرسلوا نيابة عن كل شعوب الشرق كي يعلموه ما حدث لهم، وأنه (شيخ الجبال) قد أرسل للغرب الأوروبي كي يساعده في القضاء على هؤلاء البرابرة (التتار)، وكان(شيخ الجبل) قد أرسل سفراء الإسماعيلية إلى ملك إنجلترا كي يخبره بهذه الأحداث، ويقول لو أنهم (الإسماعيلية وشعوب الشرق) لم يستطيعوا التصدي لهجماتهم والقضاء عليهم، فإنهم سوف يستولون

= الرومان أنهم وجدوا للسلب والنهب والإغارة والاعتداء على إمبراطوريتهم، فقد ظل الأوربيون يستخدمون نفس التعبير، لأن المسلمين من وجهة نظرهم سلبوهم كل ممتلكاتهم في أفريقيا وغرب أسيا وطردوهم من الأراضي المقدسة التي يعتقد الغرب أنها تخصهم دون غيرهم؛ ولهذا ظل هذا التعبير شائعًا للدلالة على رسوخ هذا المفهوم عند الغرب، وليس عن خطأ أن العرب "أولاد سارة وليسوا أولاد هاجر".

انظر في ذلك :

- charles william, western views of the tartars، 1240 – 134.; The state university of Rutgers، 1969, PP. 28 – 29.

(١)Matthew Paris, op. cit., VoL, I, P. 131.

على الغرب كله، وطبقًا لقول الشاعر: عندما تحرك النار منزل جارك دون أن تفعل شيء لإنقاذه، فإنها سوف تلتهم منزلك تباعًا(١). لهذا فإن طائفة الإسماعيلية قد طلبت المساعدة العاجلة من الغرب الأوروبي، ليتوحد الغرب الأوروبي كمسيحيين مع الشرق كمسلمين لمواجهة هجمات هؤلاء البرابرة والصمود أمامهم(٢).

وعندما ذهب السفراء من طائفة الإسماعيلية إلى بلاط الملك الإنجليزي هنري عرضوا عليه رسالة شيخ الجبل، وكان من بين الحضور في بلاط الملك الإنجليزي أسقف ونشستر -Winchestr- وذكر متى الباريسي:

"وصل سفراء الإسماعيلية بلاط الملك هنري، وكان من بين الحضور أسقف ونشستر مرتديًا علامة الصليب، وقاطع حديث الرسل وأجاب على الملك هازئا دعنا نترك هذه الكلاب (المسلمين والمغول) كي يفترس أحدهما الآخر، حتى يهلكوا ويفنوا، وعندئذ نتحرك ضد أعداء المسيح لندحرهم، وننظف وجه الأرض منهم، وبذلك يخضع العالم للكنيسة الكاثوليكية، ويكون حينئذ هناك راع واحد (أي البابا) لقطيع واحد (أي المسيحيين الكاثوليك)(٣).

وبالرغم من أن المصادر الإسلامية لم تذكر سفارة الإسماعيلية من قريب أو بعيد وهي مصادر معنية بالأمر، وربما بسبب موقف المصادر من أخبار الحشاشين -Assassians- كما أن -متى الباريسي- لم يحدد أسماء السفراء ولا هويتهم، غير أنهم مرسلين من قبل شيخ الجبل، وهو لقب طائفة الإسماعيلية، ولكن هذا لا يمنع القول

---

(1) Mathew paris، op. cit., vol. 1, PP. 131 – 132.

(2) Morgan, op. cit., P. 179 ; Grousset, l`empire de steppes, P. 247.

(3) Matthew paris، op. cit., vol. 1, PP. 131 – 132.

أنهم اتصلوا بالغرب الأوروبي، وكان كانت تحركاتهم تتسم بالسرية التامة، كما أن المركز الرئيسي لهذه الطائفة قلعة الموت شمال فارس، وكانت ستتعرض لخطر مغولي محقق(١).

فالجيوش المغولية اكتسحت الصين في سنة ١٢١١م حتى ١٢١٤م، ثم تركستان وما وراء النهر من سنة ١٢١٨م إلى سنة ١٢٢٢م وتعقبت الخوارزميين في شمال فارس سنة ١٢٣١م، وغزت المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا سنة ١٢٣٦م، وفتحت بلاد الروس والجركس والبلغار وأقاليم أوروبا الشرقية، واستولت على المنطقة الواقعة بين جبال أورال وشبه جزيرة القرم التي كانت موطن الباسفرد والبلغار وهزموا حكام روسيا وأخضعوا أوكرانيا وفتحوا بولندا، واستولوا على قسم من ألمانيا حتى بلغوا مدينة برلين وضـــربوا منغاريا واحتلوا المـــجر وتقدموا إلى فيينا وسواحل بحر الأدرياتيك(٢).

لهذا ظل الخطر المغولي يهدد طائفة الإسماعيلية في فارس من كل مكان وخاصة أن المسلمين لا حول لهم ولا قوة، حيث الخلافة العباسية الضعيفة والإمارات الأيوبية المتنازعة والقضاء على الخوارزميين من قبل المغول، ولهذا حاول سفراء الإسماعيلية أن يقنعوا الغرب الأوروبي بمساعدتهم، لأن الدور سيحل عليهم ما لم يتحد المشرق والمغرب ضد هؤلاء البرابرة، هذا في الوقت الذي لم تجد فيه استغاثات الإسماعيلية بملوك أوروبا وخاصة ملك إنجلترا وفرنسا آذانًا صاغية(١).

---

(1) Setton, Hist. of the crusades. vol, 1, PP. 99 – 110.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـــ١٢٠ – ١٢١.

(2) Matthew paris, op. cit., vol. 1, PP. 131 – 132.

ولقد لقيت سفارة الإسماعيلية ترحيب من لويس التاسع ملك فرنسا وهنرى الثالث ملك إنجلترا، ولكن الملكيين رفضا الإصغاء إليها، ولم يستطع أي منهما عقد محالفة أو اتفاق مع المسلمين، كما لم يتصوروا أن المغول البرابرة الذين غزوا العالم الإسلامي يمكن أن يكونوا خطرًا على المسيحية، وفي الوقت الذي تتأهب فيه السفارة لمغادرة فرنسا وإنجلترا وصلت أخبارًا بأن فردريك الثاني دخل في حرب علنية مع البابا لإحياء نفوذه الإمبراطوري في لومبارديا، ووصلت الأخبار إلى الغرب الأوروبي بأن المغول اجتاحوا روسيا(١).

وإذا لم يكن كل من لويس ملك فرنسا وهنرى ملك إنجلترا قد أوليا صرخة ورسالة الإسماعيلية* الاهتمام الكافي فان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا والصقليتين قد أدرك فعلاً خطورة الموقف، وبادر بإرسال رسالة إلى ملك إنجلترا هنري الثالث يطلب منه القيام بعمل مشترك ضد المغول لحماية أوروبا من غزوهم، واستجابت الكنيسة الغربية فأسهمت في تنبيه الناس في أوروبا بالخطر

---

(1) Morgan, op. cit., PP. 137 – 139.

* نص رسالة الإسماعيلية إلي ملوك إنجلترا وفرنسا كما أوردة في الباريستي:
(About This time، special ambassadors were sent by The Saracens، chiefly on behalf of the old man of the mountain, to French king، telling him That a monstrous and in human race of men had burst forth from The northern mountains and had taken possession of the extensive rich londs of the east).
- Matthew paris, vol. 1, P. 131.
- محمد مرسي الشيخ : أوروبا والتتار، صـ ٢٦٥ - ٢٦٦.
- Morgan ،op. cit., P. 179 ; Matthew paris, vol. 1, PP. 131–132.

المغولي، وألمحت إلى أنه يمكن أن يكون عقابًا من السماء إذ لم يلتمس الناس الرحمة والغفران ويلجأون إلى الصوم وإعداد العدة لوقف هذا الخطر، وتأثر أمراء آخرون في أوروبا بدعوة الإمبراطور فردريك الثاني، وساد الخوف من هذا الخطر في جهات كثيرة من القارة.

وأدرك فردريك الثاني خطورة المغول وتوسعاتهم، ولكن الظروف لم تكن مواتيه له لمواجهة المغول إذ كان النزاع بينه وبين البابوية قد وصل إلى درجة الحرمان الكنسي للإمبراطور فردريك الثاني من قبل البابا، وإن فسر البعض موقف الإمبراطور فردريك الثاني من المغول والتكاتف ضدهم وحشد ملوك أوروبا لذلك أنه محاولة يائسة لشغل وابعاد الرأي العام في أوروبا عما كان يحدث بينه وبين البابا، واستغلال ملوك إنجلترا وفرنسا لمساندة قضيته مع البابا، ويذهب فريق إلى أنه من الأفضل لأوروبا ألا تتحرك ضد المغول الوثنيين وتتركهم يحاربون المسلمين فيضعف الجانبان، فيتم النصر للمسيحيين على الجانب المنتصر الضعيف المنهك من حروبه السابقة(١).

أما الشق الثالث من الأوربيين فلم تشغله الحرب مع المغول لأنه كان مشغولا بحروبه الصليبية ضد المسلمين في المشرق الإسلامي، ويحاول بقدر الإمكان صمود الكيان الصليبيى في بلاد الشام وفلسطين في ظل العداء المستحكم مع المسلمين الذين لا يقلون عن المغول على حد قولهم(٢).

(1) Cam. Med Hist، vol. 6, P. 239 ; matlhew paris,s vol. 1, P. 132.
(2) Morgan، op. cit., PP. 176 – 177.

ورغم هذا العداء المستحكم بين البابوية والإمبراطور فرد ريك الثاني* ووضعه في شمال إيطاليا الذي أراد أن يؤكده رغمًا عن البابوية فإنه قد أعطى أوامره إلى ابنه الملك كونراد والأمراء السوابين بالخروج لصد المغول البرابرة، فعقد كونراد اجتماعًا في مدينة ايسلنجن -Esclingen- في مايوسنة ١٢٤١م دعا فيه إلى شن حرب

---

* كانت العلاقة بين الإمبراطور فردريك الثاني والبابوية قد ساءت وذلك بسبب العهد الذي قطعه على نفسه سنة ١٢١٥م بالخروج على رأس حملة صليبية ولكن أجل حملته عام بعد عام بسبب وجود مشاكل في صقلية، وفي سنة ١٢٢٨م قرر الخروج بسبب وضعه كإمبراطور مسيحي، ولقبه كملك لبيت المقدس بعد زواجه من إيزابيلا ابنة حنا بريك. فالبابا جريجوري التاسع كان قد أصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور نظرًا لمماطلته ومراوغته الواضحة بشكل أغضب البابا، وقام الملك المحروم كنسيًا بقيادة جيش صليبي، وكان عدد هذا الجيش قد أثار عليه حفيظة الغرب الأوروبي نظرًا لقلة عدده وعتاده، ودخل في مفاوضات مع السلطان الكامل حاكم مصر سنة ١٢٩٩م على اتفاقية مشجعه وهي أن تترك القدس للصليبيين دون ساحة معبدها ومسجدها. وتوقع البعض أن هذه الاتفاقية سوف تؤدي إلى رأب صدع الخصومة بين البابا والإمبراطور، ولكن الذي حدث هو العكس، فقد أثار هذا النجاح غضب البابوية ونظمت حملة صليبية ضد الإمبراطور المحروم، وعندما دخل الإمبراطور بيت المقدس سكتت أجراس القدس بمجرد أن خضعت المدينة للتحريم البابوي ودخل الإمبراطور كنيسة يوم القيامة ووضع التاج على رأسه ولم يشترك في هذا الاحتفال سوى فرسان التيوتون المخلصين، وعلى الرغم من التحريم لم يستطع الصليبيون في الأراضي المقدسة سواء المقيمين بها أوالقادمين من أعالي البحار كبح جماح فرحهم بتحريم القدس.

انظر في ذلك :

- يوشع برأور : عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط١، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٩م، صـــ٦٧ – ٦٨.
- Brawdin, op. cit., PP. 248 – 252 ; Cam. Med, Hist vol. 6, P. 135 ; Morgan, op. cit., P. 179.

صليبية ضد التتار، كما بعث فردريك برسالة إلى الملك هنري الثالث ملك إنجلترا في الثالث من مايوسنة ١٢٤١م حثه فيها على القيام بحملة صليبية مشتركة ضد المغول بعدما صدر منهم من خراب وتدمير وسلب ونهب، ولكن رفض الملك هنري ملك إنجلترا بحجج واهية.

أما الرد الفرنسي على السفارة الإسماعيلية يبدوا لنا غير معلن؛ ولكن يمكن استنتاجه فالذكريات المريرة التي يحملها الغرب الأوروبي من الحشاشين من جراء محاولاتهم اغتيال بعض القادة الصليبيين في المشرق تجعلهم لا يحملون إلا الكراهية والإذراء لهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فأن فكرة التحالف بين المسلمين والمسيحيين في الغرب الأوروبي كانت صعبة، بسبب الحروب الصليبية التي أطلقت عليها البابوية الحروب الصليبية المقدسة ضد المسلمين(١).

---

(١) الإسماعيلية هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، واختلفوا عن الشيعة الأمامية لأثنى عشرية الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم. وكانت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلي، وبعد وفاة الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) حدث انشقاق خطير في صفوف الإسماعيلية فادعى البعض أنه أوصى بالخلافة لابنه نزار، وادعى البعض أنه أوصى بها إلى ابنه المستعلي، اتخذت الفرقة الأولى من بلاد المشرق مكانا لها بزعامة الحسن بن الصباح، وقد اتخذ الأخير من قلعة ألموت مركزًا لنشر دعوته. واستولي الإسماعيلية في فترة ضعف السلاجقة على كثير من البلاد والقلاع المجاورة قيل أنها بلغت خمسين قلعة، وكانوا يهدفون إلى اسقاط الخلافة العباسية عن طريق القتل وسفك الدماء، حتى أوعز لهم السلاجقة بقتل الخليفة المسترشد سنة ١١٣٤م، وولده الراشد سنة ١١٣٧م وكانوا يغيرون على حملات الحج وطرق التجار، واشتركوا في قتل الأمراء المسلمين والصليبيين على حد سواء، وقاد صلاح الدين ضدهم الحملات في الشام ودمر الغالبية العظمى منها وقضى على الباقي الظاهر بيبرس، وفي فارس قضى عليهم هولاكوسنة ١٢٥٦م نهائيًا. وكان من بين قتلى الحشاشين من زعماء الصليبيين ريموند الأول كونت طرابلس سنة ١١٥٢م، وكونراد أمير أوستريا سنة ١١٩٢م أثناء الحملة الثالثة، ويذكر بعض المؤرخين أن=

أما عن موقف البابوية من غزو المغول، فقد استجابت الكنيسة الغربية إلى تنبيه الناس في أوروبا بالخطر المغولي، وألمحت أنه يمكن أن يكون عقابًا من السماء إذا لم يلتمس الناس الرحمة والغفران ويلجئون إلى الصوم وإعداد العدة لوقف هذا الخطر، وتأثر كثير من الأمـــراء في أوروبا بدعوة البابا في العديد من مدن القارة الأوروبية(١).

وعندما وصلت البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) الفظائع التي اقترفها المغول، حتى بعث بمندوبيه إلى كل أمراء العالم المسيحي يدعوهم لحمل الصليب والقيام بحمله صليبية ضد المغول لصد عدوانهم عن الغرب الأوروبي.

على أن البابا كان يواجه مشاكل عديدة منها نزاعه مع الإمبراطور فردريك والحروب الصليبية في الشرق الأوسط بالإضافة إلى خطر التتار ومن قوله: "إن الأوضاع المحزنة للأراضي المقدسة في المشرق، وأحوال الإمبراطورية الرومانية في المغرب التي يرثي

-أفراد سفارة الحشاشين جاءوا إلى فرنسا سنة ١٢٣٧م لقتل الملك لويس التاسع نفسه (وليس كما ذكر متي الباريسي سنة١٢٣٨م أنهم جاءوا للتحالف ضد المغول) ومهما يكن فإن مؤرخي لويس التاسع وإدوارد الأول ملكي فرنسا وإنجلترا أفاضوا في نسج حكايات عديدة عن تعرض هذين الملكين(١٢٥٠- ١٢٧٠م) لمحاولات قتل من الحشاشين أثناء وجودهم بالأراضي المقدسة.

انظر في ذلك :

- حسن الأمين: الأسماعيليون والمغول ونصر الدين الطوسي، صـــ٨٥-٩١، وحافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية، صـــ٩٧ - ١٠٠.

- Nowell, C.E,(The old Man of The Mountain, speculum vol. XXII, 1947 ; PP. 497 – 519.

(1) Metlhew Paris, VoL. l.L, PP. 131 -132.

لها، فضلاً عن أمور كثيرة لا نود ذكرها إلا فيما يرتكبه التتار من فظائع(١)".

وإذا كان البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) الذي خلف جريجورى التاسع، والذي اعتلى كرسى البابوية قد أدرك حقيقة الخطر المغولي، وفكر فعلاً في التصدي لهذا الخطر بطريقتين: الطريقة الأولى وهي حشد الغرب الأوروبي بجيوشه لحربهم، وانقاذ العالم المسيحي الكاثوليكى منهم، والطريقة الثانية تحويل هؤلاء المغول إلى المسيحية الكاثوليكية حتى يكفوا عن مهاجمة الغرب الأوروبي المسيحي، إلا أن الشق الأول فشل لأن البابا لم ينجح في حشد جيوش الغرب لمحاربة التتار على الرغم من أنه منح المحاربين المتطوعين في هذه الجيوش امتيازات روحية ودينية ما تلث ما منحته البابوية لمن شاركوا في الحروب الصليبية في الشرق الأوسط فضلاً عن أنه جعل للحملة المزمع انفاذها لمحاربة المغول من المكانة والاحترام ما حظيت به الحملات الصليبية من الاحترام والتقدير من قبل(٢). أما الشق الثاني من خطة البابا، فلم يكن في الإمكان تحقيقه عمليًا لأن مسألة تحويل هؤلاء إلى المسيحية سوف تحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير، واتصالات وعلاقات قد تؤدي في النهاية إلى فشل البابوية(٣).

وأثناء تلك الأحداث صادفت دعوة البابا إلى حملة صليبية جديدة سنة ١٢٤٥م هوى في نفس الملك لويس التاسع، نتيجة لذلك لم تقتصر أهدافهما -البابا ولويس- على خدمة المصلحة الصليبية المباشرة بمحاولة استرجاع بيت المقدس من المسلمين فحسب، بل انطوت كذلك على فكرة اجتذاب المغول الوثنيين نحو مشروع حلف صليبي مغولي،

---

(1) Howrath, oP. cit., VoL. I، P. 134.

(٢) العريني : المغول، ص ١٨٧.

(3) Metlhew Paris، op. cit., VoL. l, pp. 143 -144.

بمعنى أن يهجم المغول على الشرق الأوسط الإسلامي كله من الناحية الشرقية، في حين تقوم الحملة الصليبية المتوقعة بهجوم على بلاد الشام من ناحية البحر المتوسط بعد أن يتفق الجانبان على خطة حربية متناسقة، وبذلك يعود للصليبيين ما فقدوه في أيام صلاح الدين، ويخلوا الجوللبابوية وأحلامها لإيصال المسيحية الكاثوليكية إلى أسيا، بالإضافة إلى توحيد الكنيسة الكاثوليكية والأثوزكسية تحت رئاسة بابوية واحده(١).

أما موقف الإنجليز ورد فعلهم عن المغول وسفارة الإسماعيلية فقد كان حاسمًا ومعلنًا على لسان أسقف ونشستر –كما سبق وذكرنا– وهو رد يدل على الفرحة والتشفي بقوله: (دعنا نترك هذه الكلاب يفترس أحدهم الآخر) وهي وجهة نظر قاصرة، لأنه لولا موت الخان أوكتاي قائد المغول سنة ١٢٤١م، وما نتج عنه من انسحاب مفاجئ لهم، لتغير وجه الغرب الأوروبي.

وأخيرًا يشير –متى الباريسي– أن الخوف من المغول منع تجار الأسماك من الحضور إلى إنجلترا بقوله :

"إن سكان جوتلاند GoThland (السويد) وفريزيا–Friesland الذين يخشون هجومهم (أي التتار) لم يحضروا إلى ميناء يارموث –Yarmouth– في إنجلترا كما هي عادتهم في موسم وفرة سمك الرنجة حيث تمتلأ به سفنهم، ولهذا السبب فإن الرنجة في هذا العام ١٢٣٨م كانت رخيصة جدا بسبب وفرتها، حتى أن أربعين أو خمسين قطعة منها –رغم جودتها– كانت تباع بقطعة فضية واحدة في المناطق البعيدة عن البحر"(٢) .

---

(١) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، ص٨٣ – ٨٤.

(2) Matthew Paris's ،Vol. L, P. 132 ; Howarth, op. cit، P. 134.

ويبرر "متى الباريسي" كساد تجارة سمك الرنجة في المواني الإنجليزية بعدم حضور تجار جوتلاند وفريزيا لنقله لأسواق الاستهلاك كما هي عادتهم، وهذا بالقطع أضر باقتصاديات المدن الساحلية في عام ١٢٣٨م، ويفسر المؤرخ فرنادسكي هذا الأمر بوجود علاقات تجارية بمقتضى معاهدة سنة ١١٩٥م بين نوفوجارد الروسية، والتي كانت حلقة الوصل بين المدن الروسية الداخلية والدول الأوروبية الساحلية وجزيرة جوتلاند (في بحر البلطيق) وموانى فريزيا (الأراضي الواطئة الآن) لاستيراد الأسماك وسلع أخرى، وان تجار المناطق الأخيرة كانوا يقومون بدور الوسيط بين نوفوجارد والمواني الإنجليزية(١) .

وعندما اكتسح المغول روسيا واقتربوا من مدينتهم الأساسية نوفوجارد جند ألكسندر نفسكي -Alexander Nevsky- (١٢٣٨-١٢٦٣م) حاكم المدينة كل سكانها القادرين على حمل السلاح للدفاع عن مدينتهم والسهر ليل نهار خلف الحصون وأمام الأسوار، انتظارًا للنكبة التي ستحل بهم لهذا؛ لم يفكروا في بنود معاهداتهم مع جوتولاند وفريزيا(٢) . والحقيقة أن السكان لم يكونوا بحاجة إلى أكل هذا السمك، كل ما يبغونه هوالدفاع عن مدينتهم وأطفالهم ونسائهم ضد هؤلاء البرابرة.

وبناء على ذلك نجد أن الغرب الأوروبي بهذه الأوضاع السياسية كان غير مهيأ لتنفيذ مشروع تحالف ضد المغول، فنجد أن ملوك فرنسا شغلوا بالحروب الصليبية في الشرق، ثم بالحروب ضد قشتالة وأرجون ثم المشكلة الصقلية وكذلك ملوك إنجلترا الذين شغلوا

---

(1) Vernadsky, op. cit., PP. 53 -54.

(2) Saunders, " Matlhew Paris and The Mongols " essays, in Medieval History, 1969, PP.118 -119.

بالحروب مع جيرانهم الويلزين والاسكتلنديين. أما الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد دخل الإمبراطور فردريك الثاني في نزاع مع البابوية أدى إلى حرمان البابا له من رحمة الكنيسة، وبذلك فقدت أوروبا أقوى حليف لها في معركة المغول أما ارجون وقشتالة فكانت لهما مشاكلهما مع البابوية وبالإضافة إلى تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس، وحتى المدن الإيطالية لم يشغلها سوى مصالحها التجارية، حتى أنها دخلت في تجارة مع المماليك رغم تحريم البابا والمجامع المسكونية للتجارة مع المماليك، لذلك لم يكن الغرب الأوروبي مهيئا لمواجهة جحافل المغول بهذا التفكك.

□ □ □

الفصل الرابع

غزو المغول لبولندا والمجر

لما كانت الاستراتيجية الثابتة لجنكيز خان وخلفائه من الخانات العظام هو إخضاع العالم بأسره للحكم المغولي، فإنه بعد الانتهاء من أقاليم روسيا ومدنها أصبح الطريق مفتوحًا إلى بولندا غربًا والمجر جنوبًا .

أولاً : غزو بولندا :

إن بولندا بحكم موقعها تحتل مكانًا وسطًا بين شرق أوروبا وغربها، حيث نجح البولنديون في الإقامة في منطقة البلقان في القرن التاسع الميلادي، ولكنهم تعرضوا –طبقًا لما ورد في المصادر الروسية– لضغط الخزر في الجهات الواقعة إلى الجنوب من وادي الرنيبر الأوسط، أي: في مناطق الغابات والجهات المرتفعة على طول النهر حتى أنهم أجبروا على دفع الجزية عن كل صاحب مأوى أوحامل سيف(1).

وأرسى البولنديون دعائم مملكتهم بدن نهري الأودر والفستولا مع حركة السلاف في شرق أوروبا، وفي القرن العاشر الميلادي أعتنق البولنديون المسيحية على مذهب روما بوساطة ألمانية، إذ نشط الألمان كثيرًا في جذب كثير من العناصر البولندية لتلقي مسيحية الغرب، وليست مسيحية الشرق الأرثوذكسية(2).

---

(1) Vernadsky, op. cit., p.332.
(2) Morfill, Poland, op. cit., pp. 26 – 28.

ولقد تفوقت المملكة البولندية باستقلالها الديني والدنيوي فترات طويلة في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين تحت حكم بعض ملوكها الكبار، على الرغم من أنها ضعفت بعد ذلك بسبب ضغط الألمان عليها، ثم تفككت في النهاية، وعانت الحروب الأهلية بين أمرائها([1]).

وفي القرن الثالث عشر فقدت هذه المملكة سيطرتها على سواحل البحر البلطي فانتقلت تجارتها إلى أيدي الألمان([2]).

وفي القرن العاشر الميلادي ظهر في بولندا بولسلاف الأول (٩٩٢–١٠٢٥م) وهوالمؤسس الحقيقي لـدولة بولندا، فهوالذى وحد القبائل البولندية تحت زعامته، ومد نفوذه إلى ماسوفيا وسيليزيا ومورافيا وكاراكاو، واستطاع قبل وفاته أن يجعل من نفسه ملكًا على بولندا([3]).

ويعد بولسلاف الثالث(١١٠٢–١١٣٩م) هوأعظم ملوك بولندا، فقد أوقف الزحف الألماني على بلاده وأتم تنظيم مملكته، بيد أنه لكي يجنب مملكته ويلات التنازع بين أبناء الأسرة المالكة قسمها بين أولاده إلى خمس إمارات وهي سيليزيا وبولندا العظمى وماسوفيا وساندومير وكاراكاو، وجعل مدينة كاراكاوعاصمة لبولندا، وجعل حق اعتلاء العرش لأكبر الأعضاء سنًا بين أبناء الأسرة المالكة، فكان عهدًا من التفكك والضعف باتت فيه السلطة شبه معدومة حتى سنة ١٣٠٥م، الأمر الذي ترك البلاد فريسة سهلة لأعدائها([4]).

---

(1) Comb.med. Hist; vol. 1, pp. 462 – 463.
(2) Morgan، op. cit., p. 139
(3) Bowle ; The UniTy of European,Hist., p.152
(4) Hulme، The middle Ages، pp، 7.2 - 7.3.

وبعد أن أتم المغول غزوروسيا سنة ١٢٤٠م انقسمت جيوشهم إلى قسمين زحف أحدهما شمالاً إلى بولندا بقيادة بيدر بن أوكتاي، على حين تسلق القسم الثاني بقيادة باتونفسه جبال الكاربثيا لمهاجمة المجر. وكان هدف المغول من ذلك هوالقبض على الأمراء الروس الذين هربوا إلى بولندا والمجر وإيواء ملك المجر الكومان الفارين أمام المغول، وكذلك لأن المغول كانوا في حاجة إلى مراعي جديدة.

وقام باتوبإرسال فرقة واحدة بقيادة بيدر وقادان لغزوبولندا في جيش لا يزيد عن ثلاثين ألفا(١)، رغم أن هذا العدد كان كبيرًا بمقياس ذلك العصر ورغم المبالغات التي قيلت في هذا الصدد(٢).

وقد انسحبت هذه الفرقة العسكرية للحاق بالجيش الرئيسي الذي اتجه إلى المجر بمجرد تحطيم القوة العسكرية البولندية.

---

(١) يذكر بوسيل – نقلاً عن مصدر ألماني أن عدد القوات المغولية في معركة ليجنتز ببولندا كانت مائة ألف، وأن عدد البولنديين وحلفائهم كانوا عشرين ألف فقط.

انظر في ذلك :

- Boswell, Territorial Division and mongol invasions 1202-1300., vol. L, cambridge, P.92.

(٢) ويرى بعض المؤرخين أن قوات باتوفي روسيا كانت نصف مليون وأن ربعهم أرسل إلى بولندا، في حين يرى آخرون معتدلون أن غزوالمغول بولندا. كان جيش باتو حينئذ يبلغ مائة وثلاثين ألفا، وأن ثلاثين ألفا فقط قد أرسلوا إلى بولندا. والحقيقة أن المصادر الأولية ضخمت في تعداد جيش المغول لعدة أسباب : منها السرعة الفائقة للفرسان المغول في الدوران والالتفاف والكر والفر، وكذلك لوجود عدد ضخم من الخيول الاحتياطية للفرسان، ووجود عدد كبير من الأسري يسيرون في أعتاب الجيوش المغولية، فضلا عن أن المصادر البولندية بالغت في عدد المغول لتبرير هزائمهم المتلاحقة أمام المغول.

انظر في ذلك :

-saunders، op. cit.، PP. 78 - 79 ; Boswell, op. cit., PP. 92 – 95.

وقد ظهرت القوات المغولية في بولندا([1]) في أواخر عام ١٢٤٠م ودمرت مقاطعة ليبلون -Lublin- ولكنها تراجعت مرة أخرى، ومرة ثانية عبرت هذه القوات نهر الفستولا المتجمد -vistula- في شتاء سنة ١٢٤٠م، واجتازوا النهر في فبراير سنة ١٢٤١م حتى وصلوا إلى بولندا([2]) وعاث المغول فسادًا في مدينة ساندومير -sandomir- ووصلوا إلى مسافة سبعة أميال من مدينة كاراكاو، وفي أثناء تراجعهم دمروا الكثير من القرى والأديرة وحملوا معهم الغنائم والأسرى، وفي طريق عودتهم فاجأهم أمير مدينة كاراكاو، وأنقذ منهم كثيرًا من الغنائم والأسرى، ولكن المغول استداروا عليه وقتلوا وحطموا قواته([3])، فاضطر الأمير البولندي بوليسلاس الرابع الهرب إلى مورافيا بعد تحول مدينته كراكاوإلى كومة من الرماد، وفر سكانها إلى الغابات والأحراش، ثم عبر المغول نهر الاودر بالقرب من مدينة راتبور _Ratibor - واندفعوا إلى مدينة برسلاو، وحاصروا قلعتها بضعة أيام، ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها، وقاموا بتخريب ونهب

---

(١) كانت حدود بولند حينئذ مع روسيا من الشمال وليتوانيا وإمارة غاليسيا الروسية من الشرق، وجبال كاربثينا تفصل بينهما من الجنوب المجر، ومن الغرب سيليزيا وممز براند نبرج. وفي سنة ١١٣٩م قام ملكها بوليسلاف الثالث بتقسيم مملكتــه إلى أربعة أقسام على أولاده الأربعــة تاركًا خلفه خلافــات وصراعــات داخلية بيــن الأخــوة المتنازعين، وفــي عشيه الغزوالمغولي لبولندا كان بها تسع إمارات مستقلة، ولهذا لم يوجد بها حكومة مركزية قوية لتوحيد كل مصادر القوة البولندية للتصدي للغزاة، وقام المغول بالعديد من الغارات على بولندا من(١٢٥٩-١٢٩٩م).

- I wamura, op. cit., PP. 1.3 – 157.

(2) saundeys, op. cit., P. 85

(3) Howrth, op.cit., vol. L, PP. 142 – 143; Saunders, op. cit., P. 85.

ضواحي المدينة[1]، وفي بداية سنة ١٢٤١م انقسمت القوات المغولية الزاحفة على بولندا إلى قسمين: الفرقة الأولى تحت قيادة بيدر الذي زحف على كاراكاو، والثانية تحت قيادة أخيه قادان واتجهت إلى مدن -Sieradia -CuJavia- Iancitia- في الثامن عشر من مارس سنة ١٢٤١م وسحقـت القوات المغولـية بقيادة بيدر القوات البولندية فـي -Chmielnik- وبعد ذلك وجد المغول مدينة كاراكاوخالية من سكانها الذين هجروها خشية هجوم المغول، ومن ثم سويت بالأرض وتجمعت القوات المغولية بعد ذلك وتقدمت غربًا، وعبرت نهر الأودر حتى وصلت مدينة بريسلاو -Byeslan- في إقليم سيليزيا حيث تجمع سكانها في قلعتها، ومن ثم حرق المغول المدنية ولكنهم تركوا حصار القلعة عندما علموا بأن القوات البولندية وحلفاءها في انتظارهم عند ليجنتز -Liengitz-[2]. وفي طريق عودتهم استعدوا للدخول في معركة مع دوق بولندا هنري الذي كان يقود جيشًا ضخمًا يتألف من نحوثلاثين ألف مقاتل من البولنديين، فضلاً عمن التحق بهم من صليبي ألمانيا والفرسان التيوتون[3]، ومن نبلاء وبارونات وفرسان

---

(1) IwaMura, op. cit., P. 1.7

(2) Chambers, James; the mongol invasion of Europe, london, 1979, PP - 98-99.

(٣) تأسست جمعية الفرسان التيوتون ١١٩٧م للدفاع عن الأراضي الصليبية بالشرق ضد المسلمين على نمط الأستبارية في المرحلة الثانية من تاريخهم، غير أن أحد مقدمي هذه الجماعة، وهوهرمان سالزا(١٢١١- ١٢٣٩م) أحس بقلة الجدوى في نشاط الفرسان التيوتون بالشرق، نظرًا لما بدا من أحوال الصليبين منذ أيام صلاح الدين، لذا حول هرمان جهود أولئك الفرسان نحوالحرب ضد الوثنية التي لم تزل وقتذاك ضاربة شرق ألمانيا وغيرها من البلاد الأوروبية، وعملت الجمعية منذئذ في شرق ألمانيا وبولندا ولتونيا وغرب روسيا لمقاومة المغول، وأدت جهودها فيما أدت إلى توسع ألماني عظيم في شرق أوروبا وسواحل البحر البلطي.

سيليزيا وبولندا وجماعة من مدينة جدلدبرج، وقوة من فرسان منظمة الداوية كل هؤلاء كانوا تحت إمرة الدوق هنري صاحب سيليزيا، كما أسرع لنجدته دوق أوبلن وحاكم مورافيا ومنظمات حربية عديدة، وكان الدوق هنري في انتظار شقيق زوجته ملك بوهيميا فنلاوس الأول(١٢٤٠-١٢٥٣م)، الذي كان يجتاز سيليزيا وقتئذ في طريقه إلى ليجنتز على رأس خمسين ألف مقاتل(١).

وما أن علم المغول عن طريق جواسيسهم باقتراب جيش بوهيمي قوي من ناحية الجنوب الغربي لتعزيز موقف الدوق هنري حتى قرروا شن هجوم على الدوق قبل أن يصل الجيش لنجدته، وكان الدوق هنري قد جمع كل قواته خلف أسوار ليجنتز، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن بقاءه في هذا الموضع يجعله عاجزًا عن نشر قواته أمام العدو، في الوقت الذي لم يعرف فيه بالتحديد وقت وصول الجيش البوهيمى للانضمام إلى قواته، وعندئذ قرر الدوق أن يستعد لمواجهة الهجوم المرتقب من جانب المغول في مكان مفتوح يتيح له حرية الانطلاق والحركة، فبادر بنقل قواته إلى خارج ليجنتز قبالة الاتجاه الذي يتوقع منه مجيء ملك بوهيميا على رأس قواته لنجدته، وذلك في السهل الواسع الذي أطلق عليه اسم فاهلشتات -wahlstatt- وفي هذا السهل بادر الجيش المغولي الدوق هنري بهجوم كاسح في التاسع من إبريل سنة ١٢٤١م(٢).

= انظر في ذلك :

- فشر : المرجع السابق، ص٤١٦ حاشه ١.

- Camb. Med. Hist., vol. 7, P. 259; painter, Ahist. of the Middle Ages, PP. 216- 217 ; Tom pson, op. cit., vol.2, P. 634.

(1) Brawdin، op. cit., p. 257، Thompson,vol.2,P. 1..6.

(2) Brawdin، op. cit., P. 257; Saunders، op. cit., P. 85.

وكان أول ما فعله المغول عند نشوب المعركة أن أمطروا قوات هنري بوابل من سهامهم التي برعوا في تصويبها، وعندئذ هاجم فرسان هنري بمعداتهم الثقيلة جموع المغول، وحدث اشتباك قصير، عمد فيه المغول إلى التظاهر بالانسحاب والتقهقر، وهي خدعة حربية دأب المغول على تنفيذها في حروبهم للإيقاع بعدوهم في كمين يعدونه له(1). وظهرت عبقرية المغول الحربية في شقين: الشق الأول وهو صحة ما توقعه المغول، فقد ترك فرسان هنري معسكرهم لمطاردة المغول والقضاء عليهم، وبذلك يكونوا قد ارتكبوا الخطأ الذي أراده المغول، وفجأة استدارت عليهم فرقة من المغول، وظهرت فرقة أخرى بخيولهم السريعة، قطعت عليهم طريق الرجعة، مما جعلهم يقعون فريسة سهلة في أيدي المغول، فأجهزوا عليهم جميعًا وحولوهم إلى كومة أشلاء(2)، أما الشق الثاني من المعركة وهويدل على العبقرية الحربية للمغول والمدعمة بالخبرة الصينية –من الأسرى الصينيين– والتي صقلتها ممارسة القتال في العديد من الميادين ضد الكثير من الشعوب والقبائل، فقد استخدم المغول ما يشبه اليوم الغازات السامة، وذلك بإشعال النيران في الغابات المحيطة بميدان القتال، واستخدموا مداخن سامة وتم توجيه كرات النفط المحترقة تجاه القوات المتحالفة(3).

وفي التاسع من أبريل سنة ١٢٤١م حصدت القوات المغولية زهرة فرسان بولندا والتيوتون ومورافيا وعلى رأسهم هنري الثاني دوق سيليزيا، وطبقًا لرواية مؤرخ بولندي معاصر، فإنه بعد انتهاء المعركة قطع المغول أذنا واحدة من كل جثة من جثث أعدائهم وملئوا

---

(1) Brawdin، op. cit., P. 257، vernadsky، op. cit، p. 55.
(2) Brawdin، op. cit., PP. 257- 260.
(3) Iwamura, op. cit, P.11.; vernadasky, op. cit., P. 55.

بها تسعة أجولة كبيرة([1])، وربما فعلوا ذلك لأنهم قوم بدائيون لا يعرفون القراءة والكتابة، وربما فعلوا ذلك لتقديم دليل على مهارتهم العسكرية إلى القائد باتوا قائد العمليات في أوروبا فوجدوا أنه بهذه الطريقة البربرية يمكن لهم إحصاء قتلاهم، كما قاموا بقطع رأس الدوق هنري وحملوها على رأس حربة خارج أسوار ليجنتز دليلاً على ما بلغوه من قوة بأس، وعندما وصلت أخبار الكارثة التي لحقت بالبولنديين وحلفائهم في ليجنتز إلى مسامع فنسلاوس الأول ملك بوهيميا، كان على مسافة خمسين ميلا من ليجنتلا تملكه الرعب، وأحس بعجزه عن التصدي للمغول، فانسحب راجعًا مرة أخرى من حيث جاء([2]).

وبهذه الهزيمة الساحقة للقوات المتحالفة في بولندا، لم تجد القوات المغولية في بولندا أومورفيا أدنى مقاومة تذكر، وتم تدمير مورفيا نهائيًا· وبعد الانتهاء من العمليات الحربية في بولندا، أصدر باتوقائد العمليات أوامره لقواده بالتحرك شرقًا لملاقاته في المجر، فإن القوة المغولية التي كانت في بولندا قد دمرت المدن الصغيرة والأديرة المجاورة لها في إقليم بوهيميا(تشيكوسلوفياكيا حاليًا)، وهرب الناجون إلى الكهوف والغابات، ولم يكن هناك وقت يسمح للقوة المغولية بتدمير بوهيميا أومنازلة قوات ملكها([3]) على حد تعبير المصادر التشيكية·

ونلاحظ أنه بعد إلحاق المغول الهزيمة بالبولنديين لم يخضعوها لسيطرتهم المباشرة، إذ تركوها بعد سنة من الغزو، ولكنها بعد الغزو

(1) chambers. op. cit. PP. 98- 99, Brawdin, op. cit, PP.258-259.

(2) Brawdin، op. cit., P.260.

(3) saunders، ، op. at., p. 85، chambers، op. cit., pp. 99 -100.

أصبحت في حالة يرثى لها من الدمار والخراب، وغدت البلاد مقسمة إلى عدد كبير من الإمارات المستقلة، كل منها أشبه بدويلة تسودها فوضى النزاع بين النبلاء، ثم استمر هؤلاء منقسمين إلى مرتبتين، مرتبة الأشراف في المرتبة الأولى، والأعيان في الثانية، ويأتي الفلاحون وعامة الأقنان في المرتبة الأخيرة(١).

والواضح أن المغول أقاموا دولة في روسيا عرفت باسم قفجاق الروس أومغول القبيلة الذهبية، ولم يتركوا لجارتهم بولندا فرصة العيش في هدوء، فقد دأبوا على شن غاراتهم عليها ونهبها، حتى أنهم أحدثوا بها من خراب في غارة واحدة عام ١٢٥٩م مما هو أشد وأعنف مما أحدثوه سنة ١٢٤١م، وقد شهدت بولندا خلال الخمسين عامًا التي أعقبت هذا التاريخ أحلك فترة في تاريخها على وجه الخصوص في عهدي الملك بولسلاف الخامس(١٢٤٣-١٢٧٩م) ولذلك الثاني(١٢٧٩-١٢٨٨م)، حيث لم تتوقف الغارات المغولية على الأراضي البولندية، حيث خربت أراضيها، ودُمرت مدنها(٢)، وإن كانت هذه الغارات المغولية على بولندا لم تتوقف، فقد حدثت بالتحديد في أعوام ١٢٥٩-١٢٦٠-١٢٦٤-١٢٧٩-١٢٨٠-١٢٨٧-١٢٨٨-١٢٩١-١٢٩٩م، ولكن هذه الغارات ليست قيد البحث والدراسة(٣).

ثانيًا: غزو المجر ١٢٤١ - ١٢٤٢م :

كانت القوة المغولية الرئيسية تحت قيادة باتووسوبداى في طريقها سنة ١٢٤٠م لغزوالمجر، وذلك بعد تحطم قوة مدينة كييف الروسية، وكذلك تخريب بولندا. وكان ملك المجر يتوقع هذا الغزو، ورغم ذلك

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ١، ط٧، صـ٦٣٠-٦٣١.

(2) Boswell, op.cit., P. 458.

(3) Iwamura, oP. cit., PP. 1.3--157.

كانت الحالة الداخلية للمجر وقتذاك لا تسمح له بمواجهة الغزو المغولي الضاري(١).

يجدر بنا قبل أن نستعرض أحداث الغزوالمغولي للمجر أن نشير إلى الكومان، وذلك لتداخل تاريخهم في تاريخ هذا البلد من خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها، وهؤلاء الكومان هم الترك الوثنيين الذين ينزلون البراري الروسية الواسعة بين الدنيبر والدنيستر، وعرفهم المسلمين باسم القبجان أوالقفجان وأطلق عليهم المجريون والبيزنطيــون اسم الكومان، بينما اشتهروا عن الروس باسم بولفستى -Polvsty-(٢).

---

(١) كانت مملكة المجر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من القوى القوية في أوروبا، واستطاع العديد من ملوكها من أسرة آرباد -Arpad- أن يوسعوا حدودها ويؤمنوها ضد اعتداءات الألمان والبيزنطيين، وكانت كنيستها كاثوليكية وساهم كثير من نبلائها وفرسانها في الحروب الصليبية في الشرق وكانت هذه المملكة أيضًا عرضة لأطماع البنادقه سنة ١٢٠٢م، حينما استولت الحملة الرابعة على مدينة زار المجرية، وقد كانت فترة حكم ملكها أندروالثاني(١٢٠٥-١٢٣٥م) سيئة على المجر، لأنه باع المدينة الأخيرة للبنادقة أيضًا، ورهن كثيرًا من الإقطاعيات لليهود وللنبلاء، وحطم جيوشه في مغامرات عسكرية فاشلة مع جيرانه الروس للصراع على مناطق الحدود، وكانت خلافاته مع النبلاء وغيرهم في المملكة لا حدود لها وكان ابنه بيلا الرابع(٢٣٥ -١٢٧٠م) شخصية متزنة، ولكن الإفلاس الاقتصادي الذي ورثه عن والده وهجره أربعين ألفا من الكومان واستقرارهم في بلاده، فضلاً عن عدم وجود جيش منظم؛ كل هذه الاعتبارات وغيرها كانت حائلاً دون تكوين دفاعات قوية للمجر أمام المغول.

انظر في ذلك :

- Sinor, the History of Hungry, pp. 57-71.

(٢) بارتولد : تاريخ الترك في أسيا، صـــ ١١٤ - ١١٥.

ومما ذُكر أن زعيم الكومان كوتان –Kutan– هو الذى قدر له أن يبقى حيًا بعد مذبحة كالكا في الحادي والثلاثين من مايو سنة ١٢٢٣م والتي تنج عنها مقتل معظم القوات المتحالفة من الكومان والروس. وكان كوتان قد علم أن المغول بقيادة بركة خان يحشدون قواتهم ١٢٣٨م في منطقة البراري بجنوب روسيا لإخضاع المناطق الخصبة الواقعة في شمال البحر الأسود، وخشية أن يقع في أيدي المغول، بادر بالفرار غربًا ومعه كل محاربيه وأهله ومؤنه وعتاده، ولم يلبث أن عبر نهر الدنيبر واجتاز غاليسيا إلى أن وصل إلى جبال الكاربيثيا، ومن هناك أنفذ رسله إلى ملك المجر الملك بيلا الرابع – Bela –IV– (١٢٣٥–١٢٧٠م) يطلب حق اللجوء إلى بلاده في مقابل التخلي عن الوثنية واعتناق المسيحية الكاثوليكية هوومن معه من شعبه([1]).

ولقد كان هذا العرض مغرى جدًا للملك بيلا الرابع؛ لأن جيش المغول كان على مشارف بلاده بقيادة باتو، حيث كان الجيش المغولي يتكون من ثلاث فرق عسكرية، وكانت مهام الفرقة الأولى التوجه ناحية الشمال بين بولونيا ومورافيا، والفرقة الثانية نحوغاليسيا، والفرقة الثالثة في اتجاه إلى مورافيا للتوغل في أراضى المجر([2])، وهذه الفرق المغولية التي أرسلها باتوللمجر هي التي جعلت الملك بيلا الرابع يوافق على قبول عرض الملك كوتان، إن تحويل عقيدة مائتي ألف وثنى إلى المسيحية يعني تعزيز سلطة الملك على الكنيسة المجرية باعتباره الحاكم الديني والدنيوي، ويرفع من شأنه في أوروبا ويصبح بإمكانه أن يتخذهم عونا له في نزاعه ضد البارونات والنبلاء الذين طالبوا من الملك امتيازات واسعة والمغول على أعتاب البلاد؛ وكانوا حجر عثرة في سبيل تقوية سلطة الملك وفرض سيطرته علي

---

(1) Brawdin op. cit., PP. 252-253; saunders, op. cit., PP.86- 87.

(٢) العريني : المغول، صـ ١٨٢ – ١٨٣.

البلاد. لذلك رحب بيلا الرابع بالكومان وأدخلهم البلاد وعمدهم على المذهب الكاثوليكي([1]).

ولكن الكومان سكان البراري والذين عاشوا حياة الرعي البدائية ينتقلون من مكان إلى آخر لم تعجبهم هذه الحياة القاسية وظروف البيئة الجديدة وضاقوا بهذه الحياة، لذلك ثاروا على حياتهم، واصطدموا بجيرانهم الفلاحين البسطاء واعتدوا على أراضيهم ونسائهم واتلفوا زراعاتهم ومحاصيلهم، ودفعتهم الحاجة إلى الطعام إلى الإغارة على كل شيء وكان نتيجة ذلك أن ثار البارونات على الملك واعتبروها فرصة ذهبية للتخلص منه، فأعلنوا سخطهم وغضبهم في كل أنحاء البلاد، وطالبوا الملك فورًا بطرد الكومان من أراضيهم، وكان هدفهم من ذلك هوتقليص السلطة الملكية وكذلك الحصول على امتيازات واسعة([2]).

وأثناء هذه المشاكل الداخلية، جاءت الأخبار إلى الملك بيلا الرابع باقتراب جحافل المغول من حدود المجر، وعندما وصل المغول إلى حدود المجر أرسلوا رسلهم -وكما هي عادتهم- لبيلا الرابع، وكان هذا الرسول إنجليزيًا سبق له وأن ارتكب جرمًا في حق وطنه فالتحق بخدمة المغول، وطلب الرسول من بيلا أن يسلمه الكومان الذين "كانوا عبيدًا للمغول" كما طلب منه الاعتراف بسيادة خان المغول الأعظم الذي منحته السماء إمبراطور كل البشر والأرض كلها ملكًا له، وأن يقدم له الجزية وهدايا ثمينة اعترافا بطاعته، ولكن ملك المجر اعتبر دفع الجزية لزعيم من الرعاة كخان المغول عملاً مشينًا لا يليق به كملك متحضر، لذلك قابل مطالب المغول بالرفض([3]).

---

(1) Brawdin op. cit., p.253.

(2) pomlenyi, Ahist. of Hungary, pp. 58 - 59 ; saunders,op. cit., pp. 86-87.

(٣) كان بيتر إنجليزي الأصل، وكان قد طرد من بلاده قبل ذلك بسنوات عديدة وذهب إلى الأراضي المقدسة وتجول شرقا، حتى وقع في يد المغول-

وحاول بيلا الرابع بقدر المستطاع عمل تحصينات لصد المغول، فقام بتحصين ممرات جبال الكاربيثيا التي تفصل بلاده عن جيرانه الروس، وذلك لمنع تقدم القوات المغولية لبلاده وعهد إلى قائد جيشه بحمايتها، وأرسل كذلك لاستدعاء جميع النبلاء وكبار رجال الدولة لمقابلته في مدينة بودا -Buda- في السابع عشر من فبراير سنة ١٢٤١م ومعهم جيوشهم وأسلحتهم وعتادهم، وكذلك استدعى كوتان ملك الكومان للمثول بين يديه بقواته، ولكن حدثت خلافات بين النبلاء ومليكهم لرغبة الأخيرين في الحصول على امتيازات إقطاعية حرمهم منها والده أندروالثاني(١٢٠٥-١٢٣٥م)، وكذلك لرغبتهم في طرد قبائل الكومان من المجر باعتبارهم سببًا مباشرًا في التهديدات المغولية للمجر (١).

وفي الوقت الذي كان فيه الملك بيلا الرابع في أشد الحاجة إلى المحاربين، وخاصة المحاربين الكومان بأعدادهم الضخمة لدفع المغول عن بلاده، فقد بيلا هذه القوة بسبب النبلاء الذين حرضوا العامة على قتل كوتان زعيم الكومان وكبار قادته، بعد أن وجهوا إليهم تهمة جلب المغول إلى بلادهم، ولكن الكومان لم يرضهم مقتل زعيمهم، وصمموا على الانتقام من المجريين بدلاً من الاستعداد وتوحيد الصفوف ضد المغول، فاشتدت إغارتهم على المزارع والقرى، وقتلوا كل من وقع في أيديهم، ثم قاموا بنهب وسلب الماشية وساقوها معهم في اتجاه

=أسيرا واستخدموه في جيوشهم في أوروبا، ثم استعان به باتوا في أعمال التجسس على الأوربيين لمعرفته عدة لغات أوربية، وكذلك لمعرفته اللغة المغولية.

انظر في ذلك :

- matthew paris's op.cit., vol. 1, PP. 467 - 468 ; Howorth, op.cit., P148.

(1) Sinor, op.cit.، PP. 57-71, Saunder ; op.cit, PP. 86 – 87.

الجنوب إلى بلغاريا، وقد ضربوا المناطق الواقعة في طريقهم، حدث هذا في الوقت الذي لم يكترث كثير من النبلاء والبارونات بجهود الملك الرامية إلى حشد المقاومة وتوحيد الصفوف لمواجهة حشود المغول، وذلك بغض النظر عن الأساقفة الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الملك، وحاولوا جمع الشمل، وفي المقابل كان عدد قليل من النبلاء هم الذين وضعوا قواتهم في خدمة الملك وتحت تصرفه(١)٠

وعلى أية حال، فقد ذكرنا أنه في ربيع سنة ١٢٤٢م كانت الجموع المغولية بقيادة باتووسوبداي قد تلاقت قرب بلاد المجر، وأرسلت إليها ثلاثة جيوش: الأول بقيادة شيبان، ونفذ إليها من جهة الشمال بين بولونيا ومورافيا، والثاني هوالجيش الرئيسي بقيادة باتووجاء من ناحية غاليسيا، أمـا الثالث فـكان بقيادة قادان وبيوري فقدم عن طريق مولدافيا(٢)٠

وعندما وصلت هذه الأخبار السيئة إلى الملك بيلا الرابع بتقدم المغول إلى بلاده، أسرع إلى جبال الكاربيثيا، وسد ممراتها بالأشجار المقطوعة لتعوق تقدمهم وعهد بحراستها إلى أحد أنصاره الأكفاء(٣)، وما أن علم الملك بيلا الرابع أن المغول يتأهبون لاقتحام ممرات جبال الكاربيثيا، حتى أسرع في إرسال زوجته وأولاده وجزء كبير من ثرواته بصحبة رئيس الأساقفة إلى دوق النمسا(أوستريا) للاحتماء بقواته من المغول، ولطلب النجدة والعون من الغرب الأوروبي(٤)٠

ودعا بيلا الرابع مجلس الريخستاج -Reichtag- للانعقاد في بودا للتداول في أمر الغزو المغولي، وأصدر أمرًا يدعوا كل الرجال الصالحين للخدمة العسكرية، وأن يحملوا سلاحهم دفاعًا عن بلادهم

---

(1) Brawdin, op.cit., P. 262 ; pomlenyi, op.cit., P. 59.

(٢) العريني : المغول في التاريخ، صـــ١٨٢٠

(3) Brawdin، op. cit. ،P. 261.

(4) Sinor، op. cit., PP. 57 – 71 ; saunders، P. 87.

المجر. وفي العاشر من مارس ١٢٤١م وأثناء تأهب الملك لإرسال قوات لتعزيز دفاعاته في جبال الكاربيثيا وصلته أخبار سيئة مفادها أن المغول بقيادة باتوقد اجتاحوا ممر فيريك بعد أن أجبروا حاميته على الاستسلام، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بذبح أفرادها، حتى أنه لم ينج منهم إلا قلة ضئيلة بصعوبة(١) ، ووصل المغول في الخامس عشر من مارس إلى أسوار مدينة بست -Pest- على بعد خمسة كيلومترات من أسوارها بعد أن قطعوا مائتي ميل على ظهور خيولهم في ثلاثة أيام، وأحرقوا ودمروا الأقاليم التي مروا عليها(٢)، وسرعان ما تجمعت الجيوش المغولية الثلاثة في السابع عشر من إبريل سنة ١٢٤١م أمام مدينة بست التي اتخذها الملك المجري بيلا مركزًا للمقاومة، وحشد فيها جميع قواته لمواجهة جحافل المغول(٣).

وكانت جيوش بيلا الرابع تتكون من الماجيار والكرواتين وفرسان الداوية الفرنسين والألمان والإيطاليين، فضلاً عن القوات المجرية، وأقام الملك بيلا معسكره في مروج موهي -Mohi- الواقعة على ضفاف نهر سايو- Saje- أحد روافد نهر ثيس -Thes- وهذه المروج تمتاز بأنها سهل فسيح مفتوح من جميع الجهات، ويرجع سبب اختيار بيلا لهذه المروج لكي يكشف عدوه بسهولة عن بعد، في الوقت الذي أحاط معسكره بسياج من العربات وربطها بعضها البعض بأحكام، لعرقلة تقدم العدوواستخدامها كحواجز ضده(٤).

أما المغول فقد نزلوا على الضفة الأخرى لنهر سايوقبالة معسكر المجريين، ولما كانت الضرورة الحربية تحتم عليهم عبور هذا النهر

---

(1) Brawdin، op. cit., P. 261; pomlenyi، op. cit، P. 59 ; Howorth، op. cit., P. 147.
(2) Brawdin، op. cit، P. 263.
(3) Morgan, op. cit., P. 138.
(4) Vernadsky، op. cit., PP. 56 – 57 ; chambers، op. cit., PP. 1.1 – 1.5 ; Brawdin، op. cit., P. 263.

فقد عزموا على عبور هذا النهر، وقد عزموا على عبوره فوق الجسر الضيق الوحيد المقام عليه أثناء الليل. وما أن علم بيلا بمحاولتهم حتى أسرع إلى إرسال كولومان شقيقه ومعه أوجولينوس رئيس الأساقفة على رأس قواتهما إلى رأس الجسر، حيث نجحوا في صد المحاولة التي قام بها المغول لعبور النهر، ثم عادوا إلى معسكرهم، ولكن المغول كانوا قد أسروا عددًا كبيرًا من الكومان واستخدموهم في بناء جسر جديد لمحاربة إخوانهم المجريين، وسرعان ما نجحت محاولتهم وعبروا النهر على وجه السرعة، وسرعان ما طوقوا المعسكر المجري، وكان اللقاء عنيفًا بين الطرفين، فقد ظل المغول يضربون المعسكر المجري بشراسة بالسهام والنفط المشتعل والأحجار، أما حلقة العربات التي كان الغرض منها الاحتماء بها من ضربات المغول فقد كانت وبالاً على المجريين، فقد ضيقت عليهم مساحة التحرك في ارض المعركة، واستطاع المغول أن يحولوا أرض المعركة إلى حطام وجثث للقتلى(١)، واستولى المغول على مدينة بست المجرية وجعلوها طعمة للنيران(٢)، بعد أن عمل المغول سيوفهم في سكان المدينة والقرى التي حولها فأحدثوا مذابح رهيبة بين سكان المجر، فخضعت للمغول كل البلاد حتى نهر الدانوب باستثناء بعض القلاع الصغيرة التي جد المغول في اقتحامها(٣)، وقدر عدد المؤرخون في العصور الوسطى الذين لم يراعوا الدقة في ذكر الأرقام أن عدد القتلى من المجريين المسيحيين يقدر بحوالي مائة ألف(٤)، وقدرهم البعض الآخر بأنهم حوالي خمسة وستون ألفا(٥)، وقدر الإمبراطور فردريك

---

(1) Brawdin، op. cit., P. 263.
(2) Morgan، op. cit., P. 138.
(3) Brawdin، op. cit., P. 263.
(4) Sinor، op. cit., P. 72 -73 ; vernadsky. op. cit., P. 56.
(٥) ول ديورانت : قصة الحضارة، جـ٤، م٤، صـ١٦٤.

الثاني خسائر المجرمين بما لا يكاد يقل عن جميع القوة الحربية للمملكة.

ومن سخريات القدر في التاريخ أن الغالبين والمغلوبين في هـذه البلاد كانوا من دم واحد وجنس واحد، فقد كان القتلى من أشـراف هنغاريا أبناء المجر المغول، الذين اجتاحـوا البلاد قبل ثلاثة قـرون من ذلك الوقـت، واستـولـى المغول على مدينـة بست واذترجـوم -Eztetgom-(١) .

أما الملك بيلا الرابع فقد فر غربًا على أثر الهزيمة التي لحقـت به، وعبر نهر الدانوب إلى المجر الغربية سنة ١٢٤١م، وعبرت قوة من المغول النهر في أثره، وأخذت تطارد الملك المجري، وكانت أينما حلت تنزل الخراب والدمار، حتى وصل الملك إلى اسـتريا، حيـث سجنه دوقها فردريك، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية ضخمة، وحصل منه على بعض الإمارات في غرب المجر، هذا وقـد حـاول الملك الطريد أن يجد المأوى عند الإمبراطور فردريك الثاني(١١٩٨-١٢٥٠م) وفي نظير ذلك عرض عليه أن يصبح تابعًـا لـه، ولكـن الإمبراطور رفض إيواءه، وأخيرًا وجد بيلا الرابع الملاذ في جزيـرة تراو -Trao- إحدى جذر الأرخبيل الدلماشي البعيدة عن الشاطئ(٢).

واخذ فردريك الثاني يهيب بأوربا أن تتحد لتستطيع الوقوف في وجـه تيار الغزو الأسيوي الجارف، ولكن النداء كان صرخة في واد، وحاول أنوسنت الثالث أن يدعوا المغول إلى المسيحية وإلى السلام، ولكن دعوته هي الأخرى ذهبت أدراج الرياح(٣) .

---

(١)ول ديورانت : قصة الحضارة، جـ٤، م٤، صـ١٦٤.
(2) Brawdin, op. cit., P. 263 ; morgan, op. cit., PP. 138 – 139.
(٣)ول ديورانت : قصة الحضارة، جـ٤، م٤، صـ١٦٥.

وأمضى المغول الصيف والخريف سنة ١٢٤١م في سهوب البلقان وبراريها التي تماثل سهوب بلادهم، وحطمت مدينة جران وإقليم ترانيسلفانيا -Transylvaia- المجريين بينما ذهبت فرقة أخرى تتبع فلول المجريين الهاربين من المجر ناحية الجنوب الغربي من خلال كرواتيا(في يوغسلافيا الحالية) إلى زغرب، وزحفت الفرقة المغولية إلى - Cvttro - على البحر الادرياتيكى وعاثت في ألبانيا فسادًا، ثم انضمت لقوات باتوفي بلغاريا، ولم تجد هذه الفرقة ولا غيرها أية مقاومة، وفي مايو سنة ١٢٤٢م انسحبت الفرق المغولية من المجر والبلقان بنفس السرعة والتنظيم التي دخلت به دون أن تجد في طريقها أحد يقاومها(١) .

وكان من حسن حظ بيلا الرابع آنذاك أن المغول بقيادة قادان قد توقفوا عن تعقبه واقتفاء أثره، إذ وصلت الأخبار لقادان بوفاة الخان الأعظم أوكتاي في الحادي عشر من ديسمبر سنة ١٢٤١م ووصل الخبر إلى القادة في وسط أوروبا في ربيع سنة ١٢٤٢م، وكان ذلك هوالسبب الرئيسي في الانسحاب المغولي(٢)، الأمر الذي استدعى عودة باتوالى قراقورام باعتباره أحد أهم المرشحين لمنصب الخاقان الأعظم، لأنه قائد الجيش وأكبر أحفاد جنكيز خان وأكثرهم تحقيقًا للانتصارات، لذلك سحب قواته من وسط أوروبا إلى جنوب روسيا ليشارك هو وبقية أحفاد جنكيز خان في القوريلتاى الذي سيختار الخاقان الجديد، وبذلك يكون قريبًا من مركز صنع القرار في قراقورام(٣) .

---

(1) Vernadsky، op. cit., P. 57.
(2) Sinor، op. cit., P. 57 ; vernadsky، op. cit., P. 58.
(3) Johnofplano Carpini، op. cit., PP. 44 – 45 ; sinor، op. cit., P.75.

وهناك وجهة نظر أخرى وهي حدوث خلافات شخصية بين باتومن ناحية وجويك ابن الخاقان المتوفى وبيورى حفيد حفطاى من ناحية أخرى أثناء حصار مدينة كييف، ورجع الآخرون حانقين عليه فورًا إلى قراقورام، وعندما علم باتوبوفاة الخاقان اضطر للانسحاب من جنوب روسيا خشية وصول إحداهما للمنصب الخاقاني، وهذا ما حدث بتولي جويك المنصب ١٢٤٦م وقد يمنع عنه الإمدادات الحربية في الشرق وهوفي وسط أوروبا، وربما لإدراك باتوان الفترة التي تعقب وفاة الخاقان وتولية غيره تكون فترة استرخاء عسكري، ولهذا خشي باتومن رد فعل الغرب الأوروبي بعد المذابح التي ارتكبها في شمال وشرق أوروبا وأن يؤدي انتقامهم إلى تدمير كل جيشه(١)٠

ويرجع البعض انسحاب المغول المفاجئ إلى أنهم توغلوا بعيدًا عن أوطانهم وخشوا أن يفتك بهم الجوع خاصة أنهم دمروا المدن وخربوا الحقول، وبذلك نجا الجزء الغربي من أوروبا من خراب ودمار وسلب ونهب ومن خطر محدق ينتظرهم من المغول(٢)٠

المحتمل أيضا أن المغول رحلوا فجأة عن الغرب الأوروبى بسبب طريقتهم المألوفة في الحرب وهي إرضاء نزعتهم بنشر الرعب في قلوب سكان البلاد خلال الغارة الأولى على حين يتركون الغزوالنهائي في تاريخ لاحق، حيث يسهل عليهم إخضاع هذه الأمم لما رأوه منهم من خراب ودمار ووحشية في سفك الدماء، وإن كان هذا لم يحدث في أوروبا نتيجة لتفسخ الإمبراطورية المغولية وما أصابها من خلل(٣)٠

---

(1) Vernadsky، op. cit., P. 58.
(2) Brawdin، op. cit., P. 263 – 264.
(3) Howorth, op. cit., P. 134.

وقرر القائد باتوالعودة إلى قراقورام وسلك طريق البحر الأسود وأثناء عودته، اجتاز بلغاريا ولم يعترضه أحد حتى وصل إلى منازلة في البراري الروسية في الحوض الأدنى لنهر الفولجا(١)، وفي طريق عودته نهبت بعض قواته ألبانيا ودلماشيا وصربيا، وأنزلوا الخراب والدمار على بعض المدن الموجودة على البحر الأدرياتيكي(٢)٠

وأصبحت أوروبا الشرقية على امتدادها تحت سيطرة المغول، فلم تعد ثمة حدود للمنطقة التي انتشر فيها المغول، ولم يتوفر الأمن في مدينة من المدن في تلك البقاع، فقد بدأت أوروبا تستسلم لجحافل المغول حين اكتسحوا شرقها وأزمعوا التقدم إلى أبعد من ذلك(٣) ٠

وهكذا ركعت أوروبا للمغول ودانت لهم البلاد الممتدة من البلطي إلى الدانوب٠

وبعد انسحاب المغول من المجر وتدميرها وإلحاق خسائر فادحة بالأرواح والحياة الاقتصادية، وفي الوقت الذي وجهوا ضربة قاصمة للسلطة الملكية، والتخريب الشامل الذي أصاب أنحاء المجر، اضطر الملك بيلا الرابع بعد عودته إلى بلاده المجر وخاصة عاصمته بست المخربة إلى الإذعان إلى باروناته فاقتسم معهم السلطة وأرضه ونفوذه، وكان من الأمور الأساسية التي وضعها بيلا في اعتباره إعادة النظر في طريقه الدفاع عن بلاده، فقد سمح للنبلاء أن يشيدوا قلاعًا حصينة للدفاع عن البلاد؛ ذلك لأن القلاع القديمة التي كانت من المباني الترابية لم تصمد أمام المغول، في حين أن القلاع الحجرية صمدت أمام المغول بسبب مناعتها، وفي هذا الصدد أخذ بيلا الرابع يروج لبناء قلاع حجرية جديدة وقوية في بلاده، ذات حصن واحد

---

(١) العريني : المغول، صـ١٨٣٠

(2) Morgan, op. cit., PP. 138 – 139.

(٣) العريني : المرجع السابق، صـ١٨٣٠

متعدد الطبقات، وما لبث البارونات في كل الإقطاعيات المجرية أن قاموا ببناء هذه الحصون القوية، فأنشئوا قلاعهم على هذا النمط مما أدى إلى تحصين دفاعات البلاد، وكان ذلك على حساب السلطة الملكية، لأنه أدى إلى ازدياد نفوذ البارونات بهذه التحصينات على حساب سلطة الملك(١).

وقام الملك بيلا بتعمير بست المخربة عن طريق الألمان، ونقل عاصمة مملكته إلى بودا -Buda- على الضفة الأخرى من الدانوب سنة ١٢٤٧م وأعاد على مهل اقتصاديات بلاده المحطمة، وقامت طبقة جديدة من الأشراف فأعادت تنظيم المراعي والضياع الكبرى التي كان الرعاة الفلاحون الأذلاء ينتجون منها الطعام للأمة.

وهبط عمال المناجم الألمان من أرز جيرج واستخرجوا المعادن الخام الغنية من ترنيسلفانيا، وكانت حياة الأهلين وعادتهم لا تزال خشنة غليظة، وأدوات العمل بدائية، والبيوت أكواخا من الأغصان والطين، وفي هذه البيئة التي تضطرب فيها الأجناس واللغات كان ينقسم فيها الأهالي إلى طبقات ومذاهب دينية متنابذة متعادية، وقام الرجال في هذه البيئة بالعمل لتحصيل أرزاقهم ومكاسبهم، ووصل أسباب الاقتصاد الذي هو منبت الحضارة(٢).

ولم يحدث في التاريخ كله أشمل من هذا التخريب أو أوسع، فقد امتد من المحيط الهادي إلى البحرين الأدرياتيكي والبلطي(٣)، حتى أن الغزاة لم يذبحوا أولئك الذين حاولوا مقاومتهم فقط، بل ذبحوا الأهالي العزل الذين كانوا يقومون بالزراعة والرعي والصيد حتى يبعثوا الرعب والخوف والدمار، وكانت وسيلة الأهالي الوحيدة للنجاة من

(1) Pomlenyi، op. cit., P. 59.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٤، م٤، صـ١٦٥.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٤، م٤، صـ١٦٥.

وحشية المغول هي الاختباء في الغابات والمستنقعات أوالهرب إلى التلال، وهنا هلك القسم الأعظم من الأهالي جوعًا، ولقد دأب المغول على إغراء الأهالي على الخروج من أماكن اختبائهم لتوفير المؤن التي تحتاجها جيوشهم، في مقابل منحهم الأمان، وللأسف فان كثيرًا من الأهالي يلقون مصيرًا تعسًا ونهاية أليمة على أيدي القوات المغولية بإجراء مذابح واسعة فيهم، فيعودون إلى زراعة أراضيهم وفلاحة حقولهم، ولكن عندما ينضج المحصول كان هؤلاء الأهالي يلقون مصيرًا تعسًا ونهاية أليمة مرة أخري على أيدي المغول، ومن المحتمل أن الذي دفع المغول إلى هذا السلوك الوحشي هو اهتمامهم بألا يتركوا خلفهم أعداء أثناء زحفهم غربًا(١) .

والحقيقة أن تأثير غارات المغول كان واضحًا في أوروبا، فقد كان سببًا هامًا في حركة النهضة الأوروبية بطريق غير مباشر، فهي التي دفعت بالأتراك العثمانيين من مجاهل خراسان إلى أبواب القسطنطينية، فكانت بذلك السبب المباشر والأخير في تحطيم الدولة البيزنطية وما نتج عن ذلك من انتشار اليونانيين وكنوزهم العلمية في مختلف البلاد الأوروبية، وقد استطاعت هذه الغارات أيضا أن تحطم الحدود والحواجز بين مختلف الأقاليم والممالك، وقد مكنت بذلك لبعض الرجال من أمثال ماركو بولوان يجوبوا الأقطار النائية من أسيا، وأن يحدثونا عن العجائب التي لم يكن من المستطاع الوصول إليها، كما كانت إحدى العوامل في إيجاد المساواة الدينية، بمساواتها بين الفقيه المسلم، والقس المسيحي، واللاما البوزى، والبخش المغولي، وكانت هذه المساواة الدينية قد أنعدم وجودها لمدة خمسة أوستة قرون مضت قبل هذه الغارات على المشرق الأوروبي(٢) .

---

(1) Pomlenyi, op. cit., PP. 59 – 60.

(٢)براون: تاريخ الأدب الإيراني من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة إبراهيم الشوازي، ص٥٦٢.

وهكذا اجتاح المغول شرق أوروبا، وأنزلوا بكل بلدة دخلوا فيها الخراب والتدمير والسلب والنهب، ولم تتوحد أوروبا لمواجهتهم. لذلك كان لزاما علينا توضيح موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لشرق أوروبا.

***

ثالثا : موقف الغرب الأوروبي من غزو المغول لبولندا والمجر :

الحقيقة أن موقف الغرب الأوروبي من الغزو المغولي لروسيا لم يختلف كثيرًا عن موقفهم من الغزو المغولي لبولندا والمجر، ولقد سبق وأن ذكرنا الرد الإنجليزي ممثلاً في رد أسقف ونشستر عندما هلل وقال: "دعونا نترك هذه الكلاب تفترس بعضها". حتى أن قبائل السويدين والفرسان التيتون المسيحيين وجدوا انشغال المدن الروسية بالغزو المغولي فرصة سانحة للإغارة على ممتلكات المدن الأخيرة من ناحية الشمال والشرق وعلى الطرق التي تربط مدينة نوفوجارد بالبحر البلطي(١).

ولم يتغير هذا الموقف حتى لوكانت الضحايا شعوب تدين بالمسيحية الكاثوليكية وتقع في أوروبا مجاورة تمامًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وعندما هاجم المغول المجر واقتحموا دفاعات ممرات الكاربيثيا، قام الملك المجري بإرسال زوجته وأولاده ورئيس أساقفته وجزء كبير من ثروته إلى دوق النمسا للاحتماء به، وطلب نجدته العاجلة هو والغرب الأوروبي، وذلك بعد موقعه موهي التي قضت على المجر وحلفائهم، وقدر قتلاهم ما بين

---

(1) Matthew paris, vol.1, P. 131.

- فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، صـ٢٣٤ .

مائة ألف وخمس وستين ألفا مقاتل(١)، وفر الملك بيلا الرابع أمام الغزاة إلى حدود النمسا، حيث وصلته دعوة دوقها فردريك باللجوء إليه والاحتماء عنده، ولكن للأسف كما تقول حولية معاصرة: "كان ملك المجر مثل السمكة التي حاولت الهرب من الثلج فألقت نفسها في النار": إذ أنه بمجرد أن وصل الملك عند دولة النمسا فان الأخير اعتقله وطلب منه فدية ضخمة قدرها ثلاثة أقاليم مجرية مجاورة لحدود دوقيتة في غرب المجر ومبلغًا ضخمًا من المال، وأجبر الدوق فردريك الملك بيلا الرابع بتوقيع تعهد كتابي بذلك، ويبقى لديه رهينة وفاءًا للعهد جزء كبير من الذهب والفضة التي كان قد أنقذها من مخالب المغول، وليس هذا ما قام به فردريك فقط بل هاجم مملكة المجر المكنوبة، حتى وصل للناحية اليمنى لنهر الدانوب لاحتلال مدينة جاور – Gijor – التي أحرقها المجريون أنفسهم حتى لا يستفيد منها الدوق الخائن(٢)، ثم ترك ملك المجر مضيفه الخائن وفر إلى كرواتيا ثم إلى زغرب وبقي في جزيرة تروا إحدى جزر الأرخبيل أمام سواحل ألبانيا(٣) .

أما البابوية فكانت مشغولة بنزاعها مع الإمبراطور فردريك الثاني وليس الدفاع عن المسيحية ضد هؤلاء التتار، حتى أنه في منتصف فبراير سنة ١٢٤١م، أي: قبل الغزو المغولي للمجر بأيام كان المندوب البابوي في المجر يدعو لحمله صليبيه ليست ضد المغول كما

---

(1) Sinor, op. cit., PP. 7. – 71 Brawdin، P. 263 ; Tompson، vol ، 2., P. 1..6.
(2) Sinor, op. cit., PP. 7. – 74 ; chambers op. cit., PP. 1.4 – 1.7.
(3) Brawdin، op. cit., P. 263.

هومتوقع، ولكن ضد الإمبراطور فردريك، والذي كان مشغولا بحصار أنصار البابوية في مدينة -faenza- واستولى عليها سنة ١٢٤١م، وكان إمبراطورًا لألمانيا والصقليتين(١) ، والحقيقة أن دعوة البابا أنوسنت الرابع لشن حملة صليبية ضد الإمبراطور كانت خطأ كبيرًا من البابا، لأنه لا يوجد حاكم في أوروبا يقبل المخاطرة والوقوف في وجه الإمبراطور فردريك والذي كان يتحكم في معظم موارد الغرب الأوروبي، فقد كانت الحملة ضده تتسم بالعشوائية إلى حد كبير، لذلك كانت البابوية تخشى حتى بعد فردريك أن يظهر وحش آخر يهدد نائب المسيح(٢) ·

لذلك لم يتوقع ملك المجر بيلا الرابع العون من الإمبراطور فردريك المشغول في صراعه مع البابوية وأنصارهم من المدن الإيطالية، ومع ذلك فإنه أثناء وجوده في النمسا، أرسل مندوبيه برسائل عديدة إلى البابوية يدعوها إلى حملة صليبية ضد التتار، حتى أنه عرض على فردريك عند هربه من المغول إيواءه في نظير أن يصير تابعًا إقطاعيا له، ولكن الإمبراطور رفض إيواءه وتبعيته له؛ لأن الإمبراطور يعلم أنه لن يستطيع أن يخلص بلاده من المغول(٣)·

والحقيقة أنه قبل نداءات الملك بيلا الرابع كانت أخبار هذه الكارثة قد وصلت للغرب الأوروبي، لأن المغول التهموا المدن الشمالية لبولندا عندما اجتازوا نهر الفستولا، ونهبوا ساندومير وأحرقوها، وأحرقوا مدينة كاراكاووحولوها إلى أطلال، وفر سكانها إلى الغابات والأحراش، وهرب أيضا ملكهم بولسلاس الرابع إلى

(1) Morgan, op. cit., P. 179.

(٢) نورمان كانتور : التاريخ الوسيط، القسم الثاني، صـ٥٩٦·

(3) Soinor, op. cit., PP. 7. – 74 ; chambers, op. cit., PP. 1.4 – 1.7 ; Browdin, op. cit., P. 263.

مورافيا، وكانت المعركة الحاسمة في ليجنتز في الثامن من إبريل سنة ١٢٤١م وقضوا على قوة البولنديين وحلفائهم(١)٠

وكانت هذه الأخبار قد وصلت الغرب الأوروبي عن طريق رسالة كتبها هنري كونت اللورين في العاشر من مارس سنة ١٢٤١م إلى والــد زوجته هنري الأول دوق برابانت -Brabant- (١٢٣٥-١٢٤٨م) وفي هذه الرسالة يلفت كاتبها نظر الغرب الأوروبي إلى أن عددًا لا يُحصى من هؤلاء البرابرة التتار قد استولى على الأقاليم المحيطة به، وأن ابن عمه ملك بوهيميا قد أبلغه بعزم الغزاة على غزو مملكته بعد عيد القيامة، ولأن هؤلاء البرابرة يقومون باكتساح بلاد المجر وذبح كل ما يقابلونه وتدمير الأخضر واليابس، وفي نهاية الرسالة طلب دوق برابانت حث الهيئات الدينية عنده وكافة رجال الدين للدعوة إلى حمله صليبية ضد هؤلاء البرابرة باعتبار أن هذا العمل يرتبط بالسيد المسيح أوالمسيحية قبل أن يدمر وهم، وعلى الفور قام دوق برابانت بإرسال نسخ من هذه الرسالة إلى أسقف باريس وملك إنجلترا ورئيس أساقفة كولونيا، كي يقوموا بالصلح بين الإمبراطور والبابا والالتفات إلى هذا الخطر المغولي(٢)٠

وذهب أسقف باريس فور تلقيه هذه الأنباء لمقر الملك لويس التاسع ووجد والدته الملكة بلانش وعرض الأمر عليها، ومن ثم استدعت ولدها الملك لويس على عجل وقالت له باكية: (أين أنت يا ولدى ؟ ماذا سنفعل إزاء هذا الأحداث المفجعة التي نقلها هذا التقرير المخيف عما يحدث في أراضينا (نقصد العالم الكاثوليكي)؟ إن تدميرًا شاملاً لنا جميعًا وللكنيسة المقدسة وشيك القدوم، بسبب غزوات هؤلاء البرابرة)٠

---

(1) Howorth, op. cit., vol. 1, PP.142 – 143 ; Brawdin، op. cit., PP. 256 – 257.

(2) Matthew paris، vol. 1, PP. 339 – 340.

وطبقًا لرواية -متى الباريسي- رد عليها ملك فرنسا بنغمة مفحمة بالأسى والحزن: "أرجو يا أماه أن تنزل علينا سكينة من السماء، ولواتي. هؤلاء القوم فإما أن ندفعهم إلى أقاليم الجحيم التي آتومنها أوانهم سيرسلوننا جميعًا إلى السماء"(١).

وكتب فردريك الثاني على أثر تلقيه توسلات ملك المجر رسالة في الثالث من يوليه سنة ١٢٤١م، وأرسل منها نسخًا إلى جميع قادة الغرب الأوروبي. وقد نشر متى الباريسي رسالته إلى ملك إنجلترا كاملة وجاء منها: (إننا لا نستطيع السكوت على أمر لا يخص فقط الإمبراطورية الرومانية بل كل الممالك في الشرق والغرب التي تعتنق المسيحية في العالم..).

وذكر الإمبراطور للملك الإنجليزي المعلومات التي وصلته عن المذابح التي ارتكبها المغول ضد الغرب الأوروبي والمشرق الإسلامي دون تفرقة بين جنس أونوع أوديانة، ولم ينس الإمبراطور فردريك أن يلقي باللائمة على الملك المجري؛ لأنه على حد قوله رجل تافه وكسول، ولم يأخذ حذره ولم يستعد جيدًا لهذا الخطر المغولي(٢).

وألقى الإمبراطور بمسئولية ذلك أيضًا على البابوية في شخص البابا جريجورى التاسع في عدم محاولته جمع الغرب المسيحي لمحاربة هذا الجنس، وعدم نجاحه في إخراج الحملة الصليبية التي دعا إليها سنة ١٢٤١م(٣).

وقال الإمبراطور فردريك أن عدوانية البابا هي التي أدت إلى انقسام العالم المسيحي وطلب من الملك هنرى الثالث الإنجليزي(١٢١٥-١٢٧٠م) التدخل لدى القادة الأوربيين عند البابا

---

(1) Matthew paris، vol. 1, P. 34..
(2) Matthew paris، vol. 1، PP. 341 – 343.

(٣)جوانفيل : القديس لويس، صـ١٧.

كي يعدل عن حروبه مع الإمبراطور، ويبتعد عن تأليب المتمردين عليه حتى يتفرغ فردريك بكل قواته ضد المغول، وأبلغ فردريك قادة الغرب أن البابا قد أمر بالدعوة لحمله صليبية ضدي وأنا حامى الكنيسة المقدسة، وكان لزامًا عليه أن يفعل ذلك ضد الغزاة التتار (١)٠

وطلب الإمبراطور من الملك الإنجليزي أن يجند قوة من خيرة فرسانه مجهزين بالعتاد ويرسلها إلى الأراضي الألمانية بالاشتراك مع بقية القوات للدفاع عن الدين المسيحي تحت قيادة ابنه كونراد، لأن التتار لو غزوا الأراضي الألمانية لا قدر الله بدون مقاومة تصدهم فإنهم سيخضعون كل الغرب ويدمرون الدين واسم المسيح عليه السلام٠

وفي نهاية رسالة الإمبراطور فردريك أعلن: (أن من بيدهم أمور العقيدة والدين والذين غرقوا في شرور الربا ومختلف أنواع الطمع والسيمونية)(٢)٠ وتلك إشارة إلى مساوئ الكنيسة في ذلك الوقت٠

والحقيقة التي يجب علينا توضيحها أنه لا جدوى من عملية تُنتظر من الإنجليز للقيام بها أوالمساعدة في حملة صليبية ضد المغول، فقد اكتفى الإنجليز وملكهم هنري الثالث بالعطف على الحركة الصليبية دون أن يتجاوز هذا الحد(٣)، وفي المقابل وجد الإمبراطور فردريك أن الخطر المغولي المحدق بأوروبا فرصة لتوحيد الغرب الأوروبي تحت قيادته، وعهد إلى ابنه كونراد والأمراء الألمان بالتصدي للمغول؛ ليؤكد للغرب الأوروبي مدى جديته لصد المغول البرابرة(٤)٠

ولقد وضعت البابوية الإمبراطور فردريك في مأزق؛ لأن فكرة تكوين قوات من أوروبا موحدة تحت قيادة الإمبراطور للدفاع

(1) Matthew paris، vol. 1, PP. 342 – 344.
(2) Matthew paris, vol. 1, PP. 344 – 366.
(٣) جوانفيل : القديس لويس، صـــ١٧٠
(4) Howorth, op. cit., vol. II, PP. 353 – 355.

المشترك عن أوروبا ضد التتار لم تجد آذانًا صاغية؛ وذلك لأن الإمبراطور في نظر الكنيسة والغرب المسيحي الكاثوليكي كافرا، لأن البابا أصدر ضده قرار الحرمان، ولم يحل منه بعد، وبناء عليه فإن من يتحالف معه يستحق نفس العقاب وهو الحرمان، ولم يكن في استطاعه أي قائد في أوروبا حتى ملوك إنجلترا وفرنسا المجاهرة بعداء البابا حتى لا تتعرض مملكته للحرمان، مثلما حدث مع هنري الرابع والملك جون، وفي المقابل من ناحية البابا، كان إرسال قوات تحت قيادة الإمبراطور أو ابنه يعني تعرض كيان البابوية للخطر، حتى أن البابوية كانت تنظر بترقب أي تقارب بين أي حاكم في أوروبا والإمبراطور(١) ٠

ويروى متى الباريسي أنه في هذا العام سنة ١٢٤١م قبض الإمبراطور فردريك على مجموعة كبيرة من الأساقفة والكرادلة والمندوبين البابويين من عدة دول أوروبية كانوا في طريقهم إلى روما، والأكثر من ذلك أن قامت قواته بمحاصرة روما نفسها لإرغام البابوية على تحليله من قرار الحرمان بالقوة، لذلك عندما دعا البابا إلى مجمع مسكوني اختار مدينة ليون الفرنسية لتكون تحت حماية لويس التاسع ملك فرنسا، ويكون له الحق في دعوة من يشاء من أعداء الإمبراطور دون تدخله من قريب أوبعيد(٢) ٠

وبعد رفض الغرب الأوروبي التحالف مع فردريك لمواجهة المغول، كان عليه أن يتحرك بمفرده لحماية بلاده من خطر المغول، فأعطى أمرًا إلى ابنه هنري في صقلية بالانضمام إلى أخيه كونرا والأمراء السوابين الألمان، واجتمعوا في مدينة ايسلنجين، وخرج مع كونراد حوالي أربعة آلاف فارس للدفاع عن الإمبراطورية، وتقلد

(1) Matthew paris, vol. II, PP. 355 – 356.
(2) Matthew paris, vol. II, P. 356.

كونراد شعار الصليب وتوالت عليه التبرعات والإمدادات من ألمانيا وايطاليا وصقلية، ولم ينضم لهم دوق النمسا بحجة أن جنوده مشغولون بالدفاع عن حدود دوقيته، ولكن الحقيقة كانت أنهم كانوا مشغولين نهب وسلب ما تبقى من المغول في مملكة المجر(١).

وفي الثالث من مايوارسل فردريك رسالة إلى هنري الثالث يحثه على المساعدة، وفي الثالث عشر من يونيه أرسل إلى دوق النمسا يطلب منه الضغط على ملوك فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وإمداده بقوات وعتاد وعمل مشترك ضد المغول، بعد أن أحاطهم ببشاعة أعمالهم، ولكن دون جدوى(٢).

وأثناء هذه المراسلات، كانت القوات المغولية الموجودة في المجر قد أرسلت فرقة استطلاعية صغيرة إلى الشمال الغربي من المجر، وقد تجولت هذه الفرقة على حدود النمسا وداخلها وأجبرت هذه القوة المغولية على التراجع، وأسر منها دوق النمسا أسيرًا واحدًا اتضح أنه إنجليزي، وعلى الفور كتب دوق النمسا إلى الدوق كونراد تفاصيل المعركة بين جنوده البواسل وبين قوة ضخمة من المغول ودبجها بالمبالغات، فادعى أنه قتل منهم حوالي ثلاثمائة غير الأسرى، ثم كتب بعده إلى أسقف كونستاس يبلغه بتفاصيل المواجهة مع المغول، ورفع عدد الضحايا إلى ستمائة قتيل مغولي(٣).

وقد مرت عدة شهور على قوات كونراد دون الاشتباك مع المغول الذين كانوا في فترة استرخاء في وسط المجر، ولم يكن كونراد ليذهب على رأس قواته لطرد الغزاة من المجر خوفًا من سوء

(1) Howorth, vol. 2, PP. 53 – 55 ; D`ohssan, vol. 2, PP. 166–168.
(2) Matthew paris, vol. 2, P. 356 ; Howorth, vol. 2, P. 55.
(3) chambers, op. cit., P. 1.8.

العاقبة، ومن ثم بدأ القلق يسيطر على المتطوعين في جيش كونراد وصدرت أوامر مندوبي البابا لهؤلاء الفرسان بالعودة إلى منازلهم إلى أن يحين الوقت لدعوتهم لحملة ضد الإمبراطور وليس ضد المغول، والذي كانت قواته تحاصر روما نفسها في نفس التوقيت، وقبل أن يعود الأساقفة والأمراء المشاركين في الحملة للمناطق التي جاءوا منها، فإنهم أخذوا كل الأموال التي جمعت للإنفاق على الجنود ووزعوها على أنفسهم(١)٠

وأثناء هذه الأحداث وصلت الأخبار للمغول بوفاة الخان أوكتاي، مما جعلهم يتوقفون فجأة عن الغزو المحتمل لشمال أوروبا، الأمر الذي استدعى عودة باتوالى قراقورام لانتخابات الخان الجديد، وبذلك تم إنقاذ بقية أوروبا بعد أن تركوا خلفهم عشرات الآلاف من جثث البولنديين والمجريين وحطام المدن والحصون(٢)٠

وفي خطاب مشترك كتبه اثنان من الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان* في نهاية سنة ١٢٤١م موجهًا إلى جميع قادة هاتين

---

(1) chambers, op. cit., P. 1.8.

(2) Pomlenyi, op. cit., p.58.

* الفرنسيسكان أو الأخوة الصغار -Fria rsminor- هيئة دينية أسسها فرانسيس الأسيسي (١١٨١-١٢٢٦م) في إيطاليا، وحصلت على موافقة البابوية سنة ١٢٢٣م٠ وكانت حياته في البداية ماجنة وفجأة تحول وأصبح مثل بولس وأغسطس، وكان يتقوت بالصدقات ويتقرب إلى المرضي والمجزومين، وكان نموذجا للمبشر المقدس٠ وسرعان ما أصبح لهذه الجماعة فروع في جميع أنحاء الغرب الأوروبي، وكان نظام حياتهم قائما على العمل اليدوي، والتسول وعدم ادخار شيء لليوم التالي، ويعيشون مثل المسيح ويبشرون به ويحجوا إلى مدينة الرب ولا يأخذون معهم شيء للطريق، وحرموا الملكية الخاصة، وقد حضر فرنسيس نفسه إلى الشرق في الحملة الصليبية الخامسة بهدف التبشير بين قادة المسلمين؛ لأنه وضع سياسة وهي أقصر الطرق لهزيمة الأعداء وهي تحويلهم للدين المسيحي٠=

الهيئتين الدينيتين وأعضائها وذلك لتبليغهم بتفاصيل الدمار الذي أحدثه المغول في شمال أوروبا وقوة الغزاة وأسلحتهم(١) ٠

وفي خطاب من مقدم دير السيدة العذراء في المجر مؤرخ من النمسا في يناير سنة ١٢٤٢م إلى كل رجل دين يمكن أن يراه أو يقرأه أويسمع عنه، حيث يحكى الخطاب تفاصيل اكتساح المغول للمجر وقتلهم لخمسة وستين ألفا من هذه البلاد، وأربعين ألفا من البولنديين وعدد لا يحصى من الروس وعلى رأسهم خمسة وعشرون دوقًا، وأن الغزاة ارتكبوا العديد من المجازر من قتل شيوخ ونساء وأطفال وانتهاك للأعراض، وتخريب للزروع وحرق وتدمير المدن، ولم يراعوا أي حرمات، ويتوسل الراسل في نهاية الرسالة إلى رجال الدين أن يفتحوا صدورهم لكل اللاجئين الفارين أمام الغزاة(٢) ٠

وكتب أحد فرسان التيوتون قبل أن يلقى حتفه في روسيا وهوبونس دوبون ponce d'aubon مقدم منظمة الدواية في فرنسا، وكان قد جاء متطوعًا لقتال المغول وكتب إلى سيدة لويس التاسع ملك فرنسا رسالة يقول فيها: اعلم يا سيدي أن نبلاء روسيا والمجر وبولندا وألمانيا حملوا الصليب لمحاربة التتار الوثنيين، ولوحدث أن نالت الهزيمة من هؤلاء النبلاء، فان التتار سوف يقهرون كل من يقف في طريقهم إلى أن يصلوا إلى أرضكم٠

= وأصبح الفرنسيسكان هم سادة أكسفورد بعلمائهم مثلما كان الدومنيكان هم زعماء باريس، وكان من بين القرارات التي اتخذها البابا أنوسنت الثالث ولم يكن هناك قرار يضارعه في الأهمية وهو السماح لفرنسيس بأن يرسل (أخوته الصغار) في مدن أوروبا وقراها٠ **انظر في ذلك :**

- نورمان كانتور : التاريخ الوسيط، القسم الثاني، ص٥٦٤ - ٥٦٦٠

(1) Mathew paris, vol. III, PP. 454 – 455.

(2) Matthew paris, vol. III, PP. 453- 454.

ولكن هذه الرسالة قبل أن تصل إلى لويس التاسع كان بونس قد لقي حتفه هو ورجاله(١) .

وينشر "متى الباريسي" خطابًا مطولاً من إيفو الناربوني - Ivo of Nrbonne- إلى جيرالد رئيس أساقفة بوردو، كتبه من إحدى المدن النمساوية التي اقترب منها المغول، ويتفق الخطاب مع الخطابات السابق ورودها في الفظائع والمجازر التي أقترفها المغول، وأضاف الخطاب أن النمساويين قد أسروا أحد رجال المغول ويُدعى بيتر وهوإنجليزي وذكر لهم أن الهدف من غزو المغول هو إخضاع العالم لسيادتهم، وحكي لهم عن أعداد المغول المحاربة وتقسيماتهم وأسلحتهم هذا فضلاً عن عدم احترام المغول للدين والمعاهدات المبرمة معهم(٢) .

ويتساءل إيفو الناربوني عن مهمة رجال الدين إذا لم يوحدوا العالم تحت رايتهم الدينية لينقذوا العالم من خطر المغول، ويستنكر ما يفعله القادة والملوك الأوروبيون، والتشاحن فيما بينهم وترك أمر المغول، ويهيب بمستشاري الملوك والأساقفة ومقدمي الأديرة أن يقوموا لحملة صليبية ضد الغزاة ويذكر: أن ست ممالك مسيحية قد خربت وهدمت، وأن هذا مصير الممالك الأخرى إذا لم تتوحد، ولم يأخذ الأحياء - في أوروبا- عظة وعبرة من الذين ماتوا، ولكننا نحن المسيحيين نهمل أعداءنا الحقيقيين، أي: التتار ونهاجم هؤلاء الذين لا يؤذوننا فيما وراء البحار، أي: المسلمين والحروب الصليبيين ضدهم؛ ولهذه الأسباب أرجوا منك أن تتصح ملوك فرنسا وإنجلترا وأسبانيا والإمبراطور فردريك عليه أن ينهي خلافاته مع البابا، وأن يدعوا جانبًا خلافاتهم الشخصية حول الأمور الدنيوية ويعقدوا اجتماعًا

---

(1) lamb, Genghis khan, op. cit., PP. 22. – 221.
(2) Matthew paris, vol. III, PP. 467 – 472.

سريعًا، يتداركون فيه ما آل إليه حال الغرب الأوروبي، وكيف سيواجهون هذه الحشود من البرابرة(١)٠

ولم تثمر نداءات إيفو شيئًا، حتى أن "متى الباريسي" بعد نشر النص الكامل للخطاب السابق قال: "أفسد النزاع بين الإمبراطور والبابا كل شيء"، وقال أيضًا إن هذا الخطاب: "قد أرعب قلوب الملوك والأمراء الذين قرءوه كما أثار الحماسة فيهم للانتقام من الأضرار التي لحقت بالعالم الأوروبي المسيحي فإن النزاع بين الإمبراطور قد أفسد كل شيء"(٢)٠

حتى عندما خطب البابا في المسيحيين للخروج لحملة صليبية ضد التتار، وأرسل خطابات لقادة الغرب المسيحي، نستشف من خطاباته ورسائله أن النزاع بينه وبين الإمبراطور كان محور تفكيره عندما قال: "إن الأوضاع المخزية للأراضي المقدسة وأحوال الإمبراطورية الرومانية التي يُرثى لها فضلاً عن أمور كثيرة هي كل ما يشغل انتباهنا، ولكننا لن نأتي على ذكرها، بل سننساها في زحمة الفظائع التي ارتكبها التتار(٣)٠

ومن خطاب البابا نجد أنه لم يصنع شيئًا لأن شُغل وشغل من حوله بالصراع بين الإمبراطور وأعوانه، ولم يأخذ خطوات جادة لمواجهة التتار، ولكنه دعا لحملة صليبية ضد التتار في ألمانيا فقط(٤)٠

وكانت وفاة جريجوري التاسع في الحادي والعشرين من أغسطس سنة ١٢٤١م وخلو الكرسي البابوي لمدة عامين فرصة ذهبية للإمبراطور لأن عدوه انتهى(٥)، ولكن الإمبراطور الذي لم يعد أمامه

(1) Matthew paris, vol. 1, PP. 467 -468.
(2) Matthew paris, vol. 1, P. 468.
(3) Howorth, op. cit., vol. 1, P. 134.
(4) Connell, western views of The tartars, PP. 12. – 121.
(5) Morgan, op. cit., PP. 179 – 180.

أي أعذار بعد خلو الكرسي البابوي لمدة عامين كاملين، لم يتقدم بقواته ليعسكر في المجر أوحتى على حدود إمبراطوريته انتظارًا لرجوع التتار وحماية حدود مملكته على الأقل، أوالمشاركة في إصلاح ما خلفته هذه الغزوات البربرية زاعمًا أنه في يده وحده إنقاذ أوروبا المسيحية من التتار وغزوهم الوشيك، لوأنهم عملوا بمشورته واختاروا أحد أصدقائه من الكرادلة للكرسي البابوي(١).

ولكن الكرادلة لم يفعلوا فوقع اختيارهم على البابا أنوسنت الرابع لاعتلاء عرش القديس بطرس(١٢٤٣–١٢٥٤م) وفور اعتلائه العرش أولى اهتمامًا شديدًا للمسألة المغولية وحاول التصدي لهم بشقين: الأول عن طريق القوة العسكرية وفشل في حشد الجيوش لمحاربتهم رغم الامتيازات التي منحها للمحاربين، مثل تلك التي منحت للمحاربين في الشرق من غفران وغير ذلك، والشق الثاني: هوتحويلهم للمسيحية وفشل في ذلك أيضا لأنه يحتاج إلى وقت طويل(٢).

وأرسل البابا إلى الكرادلة في بوهيميا ومورافيا للاستعلام عن حجم الخسائر التي ألحقها الغزاة بأراضيهم، كما أرسل إلى دوق النرويج طالبًا منه الانضمام لملك المجر في حالة عودة هؤلاء الغزاة إلى المجر(٣).

ولقد لجأ أحد رؤساء الأساقفة الروس ويدعى بيتر – peter – لأنوسنت الرابع يطلب منه المساعدة ضد المغول وحكى لهم عن فظائع المغول وما فعلوه بدور العبادة وحصل البابا أنوسنت على معلومات غزيرة عن المغول وحياتهم وعاداتهم ودياناتهم من هذا المطران الروسي، ومنها طبقًا لرواية "متى الباريسي" أن التتار

---

(1) Connell, op. cit., P. 121.

(٢) العريني: المغول، صـ١٨٧.

(3) Connell, op. cit., PP. 122 – 123.

يعتقدون في دياناتهم بوجود حاكم واحد فقط للعالم هوجنكيزخان وخلفاؤه من بعده، ويعتقدون أيضًا أن الرب وابنه – God and His son– في السماء وأن جنكيز خان إمبراطور كل البشر في الأرض، وأنهم يرفعون أيديهم في كل صباح ناحية السماء ليعبدوا خالقهم والتتار (يتخذون من يوحنا المعمدان قدوة لهم ويبتهجون عند رؤية كل قمر جديد).

وذكر –بيتر– في نهاية كلامه ونقل عنه –متى الباريسي– أنهم يستقبلون السفراء ويسهلون مهمتهم ولا يقتلونهم(١)، كما أشيع عنهم قبل ذلك من أنهم ليس لهم عهد ولا دين.

وكان هذا التقرير على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للبابا أنوسنت الرابع لتقييم سياسته نحوالمغول، وقيل إنه وضعه أمام مجمع ليون المسكونى في العام التالي، وذلك لأن البابا وجد في أقوال المطران الروسي أن معتقدات هؤلاء المغول تشبه معتقداتهم المسيحية الكاثوليكية، وخاصة في الاعتقاد في الأب والابن في السماء مثل الثالوث المقدس عن المسيحيين، وكذلك في تبجيلهم يوحنا المعمدان، لهذا اعتقد البابا أن هؤلاء أقرب للمسيحية منهم إلى الوثنية، وأنهم يمكن تحويلهم للدين المسيحي، لأن في اعتناقهم ديانة مشتركة مع الغرب الأوروبي إنقاذ لأوربا من خطرهم الكاسح(٢).

وفي هذا العام سنة ١٢٤٤م وقعت أحداث مقلقة في الأراضي المقدسة، حيث أن المغول شيدوا إمبراطورية أوروبية آسيوية أكبر من أية إمبراطورية سابقة في التاريخ، ولكن هذه الإمبراطورية قامت على أنقاض حضارات أخرى سابقة، وكانت موجات الغزوالمغولى صوب

---

(1) Matthew paris, vol. II, P. 29.
(2) Saunders, " Matthew paris, and the Mongols," op. cit., P. 125.

شواطئ البحر المتوسط، وكانت الدويلات الصليبية في ذلك الحين على أطرف إمبراطورية المغول، وكانت قعقعة الحوافر المغولية تتصاعد وتقترب حين انضم الصليبيون إلى تحالف دمشقي ضد مصر، والتي أحست بخطر هذا التحالف القوي، فطلبت مساعدة الخوارزميين الذين كانوا قد تحولوا إلى مرتزقة يجوبون أنحاء الشرق الأدنى بعد أن كانت لهم دولة قضى عليها الغزو المغولي واستولى على أملاكها بالقرب من البحر الأسود.

وقد أوقع المصريين والخوارزميون هزيمة مريرة بالصليبيين في معركة غزة، وكان السوريون قد نقضوا تحالفهم مع الصليبيين في اللحظة الأخيرة، وبعد ذلك مباشرة هاجم الخوارزمية مدينة القدس سنة ١٢٤٤م ولم تعد المدينة إلى حوزة المسيحيين بعد ذلك، كما لم تشهد جيشًا مسيحيًا إلا بعد سبعة قرون، حين احتل الإنجليز المدينة ونزعوها من الأتراك العثمانيين(١).

وبعد هزيمة الصليبيين وصلت خطابات عديدة من الصليبيين في الشرق إلى البابوية لطلب النجدة العاجلة لبيت المقدس، وقد أنعشت هذه الخطابات الروح الصليبية من جديد بعد أن فترت لإساءة البابوية للصور المثالية للجهاد الصليبي في الشرق، والحقيقة أن هذه الخطابات لن ندخلها في إطار الدراسة لأنها خاصة بالشرق(٢).

والقارئ لجلسات المجمع المسكوني الذي عقده البابا والقرارات الصادرة عنه ترجع إلى أن البابا لم يعط للمسألة المغولية ما تستحقه من اهتمام، ومن الواضح أنها لم تنل نفس الاهتمام الذي أعطاه لمسألة الأراضي المقدسة في الشرق وضياع بيت المقدس، فأنوسنت الرابع قدم للمجمع والأساقفة الحاضرين من هذه البقاع، واختار أحد

(١) يوشع براور : عالم الصليبيين، صـ٦٩.
(2) Matthew paris, vol. 1, PP. 447 – 500.

الفرنسيسكان المشهورين بالبلاغة والفصاحة لقراءة الخطابات التي حملوها من الأراضي المقدسة، والتي تصور كيفية استيلاء الخوارزمية على المدينة المقدسة، ولقد بكى كل الحاضرين بعد المبالغات التي أوردها في خطابه مستعرضًا ما حدث من سلب ونهب وتخريب وقتل وحرق ودمار على حد قوله(١).

وخرجت قرارات تدعو وتبشر وتحث على إعداد حملة صليبية عاجلة لإنقاذ الأراضي المقدسة في الشرق، وانهالت التبرعات لهذا الغرض فكانت تقارب في كثرتها تبرعات الحملة الصليبية الأولى، وحولت ضريبة العشور الصليبية لتجهيز حملة تحت قيادة ملك فرنسا وحامي مجمع ليون الملك لويس التاسع، وكان البابا ذكيا في التعامل مع هذه المسألة لأنه يعلم أنها قضية مخدرة لمشاعر العامة والخاصة على حد سواء، وأن الاهتمام بها سوف يظهر هيبة البابوية وزعامتها وحرصها على كل ما يخص الدين والمسيح، وذلك لشغل الحاضرين في المجمع والرأي العام فيما بعد عن الترتيبات والإجراءات والقرارات التي اتخذها البابا بموافقة الحاضرين في المجمع ضد الإمبراطور فردريك الثاني من حرمانه من رحمه الكنيسة وعزله من منصبه الإمبراطوري، أما بالنسبة للمغول، فكل ما وعد به البابا هودعوة المؤمنين للنجدة إذا رجع الغزاة لأوربا. ولم يكن في استطاعته البابا أنوسنت أن يفعل أكثر من هذا البيان الفاتر الذي يدعوا لاتخاذ إجراءات دفاعية لتحصين الطرق التي يحتمل أن يعبر منها المغول إذا عادوا مرة أخرى إلى أوروبا(٢).

وقد حاول البابا استغلال مأساة أوروبا للتبشير بالكاثوليكية، فقد حاول إقناع الأمراء الروس بالانضواء تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية

---

(1) Matthew paris, vol. II, P. 67.
(2) Matthew paris, vol. II, PP. 66 – 68.

ثمنًا لنجدتهم في حالة عودة المغول ثانية، وطمعًا في الاستفادة منهم في إمداد البابوية بمعلومات عاجلة في حالة تقدم الغزاة للأراضي الأوروبية باعتبار أنهم أول من سيواجه المغول في أوروبا بحكم الموقع، ولهذا فقد منح الأمير دانيال الروسي دوق غاليسيا لقب (ملك روسيا) وتبادل معه السفراء لهذا الغرض.

وطبقًا للأرشيفات البابوية، فان أنوسنت الرابع أرسل الأخ الكسيوس من جماعة الرهبان الدومنيكان في الثالث من مارس سنة ١٢٤٦م إلى ملك روسيا كي يولى الأخير آذانا صاغية للبابا، حيث طلب أنوسنت من دنيال الروسي سرعة إمداد جماعة الفرسان التيوتون في بروسيا بأية معلومات جديدة عن تقدم التتار ضد العالم المسيحي. وفي نفس اليوم أرسل البابا خطابًا لمقدم جماعة الفرسان التيوتون في بروسيا يأمره فيه بسرعة إمداد البابا بكل ما يصله من معلومات من الأمراء الروس عن التقدم المغولي(١).

ولكن دانيا الروسي الذي حضر موقعه كالكا سنة ١٢٢٣م حيث هزمت فيها القوات الروسية أمام المغول، وكان شاهد عيان على الأحداث المدمرة لهؤلاء البرابرة في الفترة من ١٢٣٧م إلى ١٢٤٠م لم يكن من السذاجة بحيث يعتمد على البركات الرسولية التي يبعثها له البابا من مدينة ليون الفرنسية، حيث لم يستطع البابا حماية روما عاصمته، وأجبره فردريك الثاني على تركها وعاد إليها سنة ١٢٥٠م بعد وفاة الإمبراطور، ومن ثم ذهب دانيال إلى مقر باتو عند نهر الفولجا وأقسم له يمين الطاعة والولاء وانقطعت العلاقات البابوية الروسية(٢).

---

(1) Iwamura, the Mongol invasion of poland in the thirteenth century, PP. 122 – 124 ; Connell, op. cit., P. 127.

(2) Iwamura, op. cit., PP. 112 – 113.

أما المجر التي كانت تعتبر الخط الدفاعي الثاني ضد المغول، فقد أرسل بيلا الرابع إلى البابا يبلغه بقرب وصول حشود مغولية قادمة إلى أوروبا، ويخبره بضرورة عمل تحصينات دفاعية على نهر الدانوب لحماية أوروبا من هجوم القبائل الآسيوية والمغول، وطلب الملك المجري من البابا مساعدات كما وعد مجمع ليون، وألا تكون مجرد ابتهالات رسولية لا تجدي، وأعلن بيلا خضوعه التام للبابا إذا أرسل هذه المساعدات، ولكن هذه المساعدات لم تصل وبدأت الاتصالات البابوية مع المغول لاعتناقهم المسيحية(١)٠

▯ ▯ ▯

(1) Connell, op. cit., PP. 129 – 13..

الفصل الخامس

عوامل نجاح المغول في غزو الروس
وعوامل فشل الروس في المواجهة

استطاعت القوات المغولية في غضون سنوات تُعد على أصابع اليد الواحدة اكتساح مساحات جغرافية واسعة في أوروبا، ويرجع ذلك إلى عوامل تتعلق بوحشية المغول الغزاة، وعوامل أخرى تتعلق بضعف وتفكك الدول والإمارات الروسية التي واجهت الغزاة المغول.

***

١- عوامل نجاح المغول في غزو الروس

أولاً: عوامل نجاح المغول في غزو روسيا :

يرجع المؤرخون عوامل النجاح السريع في غزو روسيا إلى عدة عوامل منها:

أ) الأثر النفسي :

كان الأثر النفسي السيئ الذي تركه سرعة اكتساح المغول للمدن الروسية وتدميرها وذبح سكانها وأسرهم، كل هذا ألقى الرعب والفزع في قلوب سكان المدن الأخرى، فاستسلموا لليأس حيث يشبه المؤرخون جنكيز خان برئيس قبائل الهون، ويشبهون هجوم جيشه بالطوفان أو السيل الجارف، ويعدون غارة المغول في مقدمة الغارات التي تنبعث من الصحراء بين حين وآخر لتقضي على الحضارة والمدنية، والأمر الذي لا شك فيه أن جنكيز خان يعتبر من السفاكين الباطشين الذين تجردوا من كل شفقة ورحمة، بل إنه كان من أقسى الغزاة الذين نُكب بهم تاريخ البشرية وأن الدم الذي سفك كان بأمره، والعمران الذي ضرب على يده، قد يندر أن يحدث مثله في أي فترة

من فترات التاريخ خصوصًا إذا علمنا أن هذا الغازي المغولي كان شديد الميل إلى الأخذ بالثأر والانتقام من عدوه، وأن القتل العام عنده وإفناء الألوف من الأنفس، وإبادة النساء والأطفال والشيوخ بإشارة منه وهذا في نظره أمر يسير لا تقوم دونه عقبات ولا تعترضه صعوبات، ذلك لأن الحرب عنده تستبيح كل شيء في سبيل النصر(١).

ويذكر "ابن الأثير" عن وحشيتهم وتوسعاتهم وعاداتهم التي ملكوا بها الكثير من البلدان تحت حد السيف فيقول: "عندما قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددًا فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتر عليها، وفعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها بهذه السرعة إنما ملكها في نحو عشرين سنة، ولم يقتل أحدًا وإنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض، وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقًا وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم، ويترقب وصولهم إليه، ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غيره وأما دوابهم التي يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج، وأما ديانتهم، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئًا، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحًا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه، لقد ابتلي الإسلام والمسلمون في هذه المرة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها،

---

(٢)فؤاد عبد المعطي الصياد :المغول في التاريخ، ص٩١.

هؤلاء التتر –قبحهم الله– أقبلوا من المشرق، وفعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها"(١).

ولقد غرس جنكيز خان خوفه ومهابته في قلوب جيشه، وكان الجميع ينظرون إليه نظرة إجلال واحترام، ويعدونه رئيسهم الأكبر يأتمرون بأمره، وينزلون على طاعته، كما كانوا يعتقدون أنه لا يصح أن يوجد إلى جانبه حاكم آخر على ظهر الأرض ينازعه السيطرة والسلطان "رب في السماء وحاكم في الأرض"(٢).

ويذكر فيهم ابن الأثير قوله: "أن هؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فان لله وأنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح... "(٣).

وكان جنكيز خان مثلاً لوحشية الغازي البربري، وعند فتح بخاري دخل مسجدها على صهوة جواده، ووقف بإذاء المنبر، وظنه أول الأمر قصر السلطان، فلما قيل له بأنه بيت الله نزل إلى أرض المسجد واعتلى المنبر، ودعا المغول من خلفه أن ينهبوا المدينة، ولم تفلت من أيديهم الآثار المقدسة، إذ مزقوا المصاحف، وداسوها بحوافر خيولهم، ولم يبقوا على أحد إلا القليل(٤).

وعندما جاء التتار إلى بلاد البلغار على حد قول حولية "نوفوجارد" سنة ١٢٣٧م: "إن التتار الأشرار أتوا واستولوا على كل بلاد بلغار، وذبحوا كل السكان الرجال والنساء والأطفال معًا"(٥).

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ ١٠، ص ٤٠٠.
(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص٩٢.
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ ١، ص ٣٩٩.
(٤) ابن العبرني : تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.
(5) The Chronicle of Novgorod, P. 81.

وعندما فتح المغول بولندا، وبعد أن أنزلوا بالسكان الفناء والهلاك بالمدن والخراب والدمار، وفي هذا الإقليم وحده جمعوا أكياسًا ملأيها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموعها حوالي ٢٧٠٠٠٠ أذن، وأخذوها معهم دليلاً على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوه(١) حتى القبائل المجاورة له التي تربطه بهم علاقات، عندما دخل في حرب مع التايجوت وكانت جموعهم ضعف جيشه؛ إلا أنه نجح في إلحاق هزيمة قاسية بهم، وبلغ من شدته وقسوته أنه كان يلقي بالأسرى في أحواض مليئة بمياه شديدة الحرارة، فألقى بذلك الرعب في قلوب أعدائه، وأثار الخوف والفزع في قلوب خصومه، وذاع صيته بين كل معاصريه بما اتصف به من شده وقسوة وغلظة أرعبت أعدائه(٢)۰

والحقيقة أن وحشية المغول مع البلاد والمدن التي غزوها سهلت لهم فتح هذه المدن بدون خسائر كبيرة في الأرواح، فعند فتح مدينة كييف أهم المدن الروسية حاصرها المغول من كل جانب، ونقبوا جدران المدينة ليل نهار حتى أحدثت فيها فتحات دخل منها الغزاة، الذين رموا السكان المذعورين بالسهام والأقواس، وقتلوا معظمهم وفر الأحياء منهم لكنيسة المدينة التي سقطت جدرانها وسقوفها من كثرة الزحام وخوفا وذعرا من وحشية المغول(٣)۰

لقد كان للأثر النفسي السيئ الذي تركه المغول في سرعة اكتساح المدن الروسية وتدميرها وذبح سكانها وأسراهم أثرًا بالغا في إلقاء الرعب والفزع في قلوب سكان المدن الأخرى حتى شكوا أنه لا جدوى في المقاومة والصمود فاستسلموا للمغول۰

***

---

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ١٢١۰

(2) D'ohsson : Histoire des Mongols, Tom3, P. 372.

(3) Bretachneider, Medieval Researches Form Eastern Asiatic sources, London, 191., PP. 317 -318.

ثانيا: شخصية جنكيز خان :

في شخصية جنكيز خان تتحدث آلاف السنين من التقاليد التي تبناها ذلك الرجل البدوي، تلك التقاليد التي لا تبالي بما يسفك من دماء ويزهق من أرواح، بل تجد السعادة والرضا عندما تفتح الأقاليم ويقام الملك على حساب ملايين القتلى.

تأملوا حديثه وهو يقف أمام عتبة مدينة من المدن ليعبر عن سعادته الكبرى فيقول: "مزقوا هؤلاء الأعداء إربًا أربًا، اطردوهم أمامكم، استولوا على ممتلكاتهم، علقوا من يحبونهم على أسلحتكم، وحطموا نساءهم وبناتهم".

ولقد عُرف عن جنكيز خان أن أسعد الأوقات عنده هي التي يحطم فيها قوى أعدائه ويطاردهم، ويستولي على ممتلكاتهم، ويرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم، وهو الوقت الذي يستطيع فيه أن يركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونساءهم. وحين تنبأ بأن أحفاده سيطرحون وراء ظهورهم يومًا حياة البداوة وما فيها من خشونة وتعب، وسيحيون حياة أهل الحضر دون كلفه أو مشقة، صرخ قائلاً: "سيأتي أناس من بعدنا من نفس جنسنا يلبسون أزياء ثمينة، ويأكلون أطباقًا دسمه مضافًا إليها الحلوى، ويضمون إلى صدورهم أجمل النساء، ولكنهم سينسون أنهم مدينون لنا بهذا"(١).

وإن كانت شخصية جنكيز خان تميل إلى التقاليد البدوية عن الحضارية، حيث كان يبغض حياة الحضر بما فيها من ترف، ويذكر الخان نفسه أنه كان يكره حياة الصينيين بما فيها من بذخ ويقول: "لقد برمت السماء من معيشة هؤلاء الصينيين المليئة بالبذخ والدعة، أما أنا ورجالي فسنبقى في الشمال الموحش، وسأحتفظ لنفسي بالبساطة

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، ص ٩٤ – ٩٥.

وبملابسي وطعامي، وسأعامل جنودي كأخوة أشقاء، حيث شهدوا معي العديد من المعارك التي انتصرت فيها وسأكون على رأسهم دائمًا"(١)٠

ولكن في الوقت نفسه يجب أن نعترف في صراحة بأنه ما كان يتيسر لجنكيز خان فتح تلك المناطق الفسيحة، وتكوين هذا الملك العريض، إلا إذا كان مزودًا بكثير من التعقل والتبصر والكفاءة الممتازة، وأنه لابد وأن يكون على جانب كبير من الدهاء والسياسة، ولا يمكننا أن نسلم بأنه كان فقط ميالاً إلى الغزو والفتح وإراقه الدماء، بل كان كذلك له هدف معين ينبغي الوصول إليه، ويرى أن تحقيقه لا ينبغي أن يحول دونه حائل ما، فمهما أريق من دماء، وأزهق من أنفس، وضرب من مدن، فكل ذلك لا يعد ذا أهمية ما دام الطريق الذي سوف يبلغه سيحقق مراده(٢)٠

إن جنكيز خان في نطاق نوع حياته ووسطه وجنسه، ليبدو أيضًا رجلاً حكيمًا مدبرًا ذا عزم ومضاء، يجابه الأحداث بشجاعة ورباطة جأش، وكان حريصًا على كرامة قواده وجنوده، ويحب أن يراهم يثقون بأنفسهم دائمًا٠

وعندما أوقع أعدائه الهزيمة بالقائد المغولي "قوتونويان" وجنوده، وجاء هذا أمام جنكيز خان كاسف البال متخاذلا، لم يخرج هذا الخبر جنكيز خان عن هدوئه وثباته، واكتفى بأن قال: " إن قوتونويان تعود أن يخرج من كل معركة ظافرًا منتصرًا، ولم يزق طعم الهزيمة قط، وإنه لا شك سوف يأخذ حذره ويحتاط أكثر عن ذي قبل بعد هذه الهزيمة"(٣) ٠

---

(1) Grousset, L'mpire des steppes, P.310.

(٢)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٩٦٠

(٣)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٩٦٠

لقد كان جنكيز خان قاسيًا مع أعدائه، فعندما حارب جنكيز خان التتار وهزمهم، أمر جنكيز خان أن يقتل التتار جميعًا ولا يبقى منهم أحد، فأجهز المغول على كل من يصادفهم من التتار حتى النساء والأطفال وبقروا بطون الحوامل ولم يفلت منهم إلا القليل(١).

إن مثل جنكيز خان في القتل العام مثل جلاد تجرد من كل عاطفة، وكلف بتنفيذ حكم عام لا فرق عنده بين فقير وغني، وصغير وكبير، ورجل وامرأة، ومسلم وكافر، وهو بالإضافة إلى ذلك رجل بدوي لم يعرف مطلقًا الحضارة الزراعية والريفية(٢)، ولكن في الوقت نفسه يجب أن نعترف أن جنكيز خان كان رجلاً متزنا إلى درجة كبيرة، مخلصا مع أصدقائه ورجاله، كريما وعطوفًا رغم قسوته، فيه صفات الفارس والإداري الحازم الدقيق والذي يجيد إدارة شعبه، وتتجلى عبقرية الخان في حبه للنظام، ورغبته في أن يكون حاكم عادل بين رعاياه، فقد كانت في شخصيته جوانب نبيلة، ويرتفع بها هذا الرجل إلى مكانة سامية بين أقرانه(٣).

لقد كان جنكيز خان صاحب مواهب عديدة وشخصية قيادية عظيمة بهرت كل من التقى به وكل من عرفه، وقاد شعبه إلى النصر والتفوق على الأعداء، وهذا ما لمسه أعداؤه فيه من قوة شخصية وحسن القيادة وحبه للعدالة وكرهه للخيانة(٤)، لقد كان يفزع من الخونة ويلقنهم دروسًا قاسية، فطالما أعدم المرائين الذين أرادوا أن يظهروا له حبهم وإخلاصهم عن طريق خيانة ساداتهم وأولياء نعمتهم، والتنكر لأوطانهم. وعلى العكس من ذلك كان كثيرًا ما يحترم خصومة

---

(1) D'ohsson : Histoire des Mongls, Tom3, P. 372.

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٩٥.

(3) Grousset, L'mpire des steppes, P.31..

(4) Morgan, op. cit., P. 59.

ويقدرهم، ويثيبهم بعد النصر، فيلحق بخدمته أولئك الممتازين الذين يثبت إخلاصهم ووفاؤهم لساداتهم الأصليين، وأخذ على عاتقه حماية الضعفاء، واستمرت هذه الحماية حتى النهاية.

وقد أثبت جنكيز خان إخلاصة لهذا الفريق في شتى المناسبات، فحينما قتل رئيس التانجوت لأنه وقف إلى جانب جنكيز خان ضد النايمان، مد يد المعونة إلى أسرته، وثبت ابنه على العرش وزوجه ابنته، وضمن الثروة والحياة المستقرة لهذه الأسرة(١) .

وكان يتميز بحبه للعدالة واتزانه وإخلاصه لأصدقائه وحفظه لعهودهم وامتنانه لما يؤدونه من خدمات، وليس من شك في أن الجانب الأعظم في هذه الشخصية والسجايا التي تميز بها إنما كانت فطرية، لأنها من صفات الأقوام الرحل وسكان الخيام لاسيما المحبة الشديدة للأصدقاء والكراهية المتناهية للخصوم(٢) .

وأخيرًا، فإن ذلك السياسي الجبار لم يكن أصم بالنسبة لتجارب المتحضرين، لقد كان يستفيد كثيرًا من أرباب الخبرة والمرشدين وذوي الإطلاع فيما يتعلق بالشئون الإدارية والمخابراتية التي تساعده على القيام بأعماله الحربية، فكان له مستشارون اختصهم في خاصته، وفي مقدمه هؤلاء التجار ورؤساء القبائل الذين يقصدونه من الممالك البعيدة، وكانوا على علم كاف وخبره تامة بأحوال البلاد الواقعة خارج منغوليا نتيجة لكثرة تنقلاتهم وأسفارهم، فلا غرو أنهم كانوا يؤدون لجنكيز خان أجل الخدمات.

ورغم أن جنكيز خان كان فظا حقا في حياته، لكنه مال إلى الإنسانية على يد مستشاريه من الأمم المغلوبة على أمرها.

---

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٩٧.

(٢)عبد السلام فهمي : المرجع السابق، ص ٣٠.

ومن العجب حقًا أن معاصريه أو القريبي العهد منه قد أسدلوا ستار النسيان على المذابح الرهيبة التي اقترفوها، وذكروا له فقط العمل الإداري الذي أقامه بمساعدة الأويغوريين وغيرهم، حتى أن الرحالة " ماركوبولو" قال عنه يوم أن انتقل إلى العالم الآخر: "لقد مات!... إذن فتلك خسارة فادحة : لقد كان حقا رجلاً حذرًا عاقلاً".

ولكن إذا كان هذا العمل الإداري قد أفاد من بعض الوجوه، فان ذلك قد تم بعد تضحيات كبيرة، وبعد أن قضى على كثير من مظاهر الحضارة في البلاد التي فتحه(١).

***

ثالثا : مجموعة القوانين :

لقد كانت مجموعة القوانين التي وضعها الغازي جنكيز خان من أهم عوامل نجاح المغول في روسيا أو أي بلد من البلاد التي غزوها، وعندما انتخب جنكيز خان إمبراطورًا أعاد النظر في مجموعة الآداب والتقاليد التي توارثها المغول، وعدل الكثير منها سواء بالحذف أو بالإضافة، وإعطائها الصفة الرسمية، وأمر بتدوين تلك الأحكام والاحتفاظ بها في خزائن الأمراء، وهو ما يعرف " بالياسا" التي أصدرها الخان سنة١٢٠٦م(٢)، ووضع جنكيز خان في هذه الياسا

---

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٩٨ – ١٠٤.

(٢)الياسا : هي لفظ مغولي معناها: الحكم أو القاعدة أو القانون، وقد وردت هذه الكلمة في المصادر بصور مختلفة : ياسا ــ ياسه ــ يساق ــ يسق. وتطلق على الحكم الذي يصدره الملك أو الأمير. ولما كان كتاب الياسا يشتمل على جانب كبير من الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب، وكان حكم الإعدام للمذنبين هو الغالب فيها صار من معاني كلمة " ياسا " القتل أو الموت.

انظر في ذلك :

– العريني : المغول، ص ٥٩ – ٦٠، فؤاد الصياد : المغول في التاريخ، صـــ ٢٣٧.

خلاصة تجاربه وحصيلة ما مر به من أحداث، فحرص على أن يجمع من خلالها كلمة القبائل ويكبح جماح أفرادها ويخضعهم لأحكامه، فكان لابد وأن تتضمن هذه الياسا عقوبات بالغة القسوة لإعادة الأمن إلى نصابه وتقويم المجتمع المغولي، كما عُني هذا القانون بتحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعلاقة المحكومين ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع(١)·

وقد تعود المغول أن يرجعوا إلى نصوص الياسا ويستشيرونها ويعملون وفق ما تشير به وذلك في الأحوال الآتية :

١) عندما يجلس الخان الجديد على عرش المغول·

٢) عندما يعقد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة·

٣) في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال·

وكان سبب إصدار القانون أن الخان الأعظم رأى بثاقب فكره أنه لا يمكن جمع كلمة هؤلاء القبليين المتعطشين للدماء إلا بتشريع قانون يلتفون حوله، وينزلون جميعًا على حكمه، ولابد أن تكون مواد هذا القانون مشتملة على عقوبات فيها جد وصرامة توقع على المذنبين في غير شفقه ولا رحمة، لأن هؤلاء الأتباع إن تُركوا وشأنهم يحيون حياتهم القديمة، لعادوا لما كانوا عليه من الفوضى، وقتل بعضهم البعض وتطاحنوا من أجل الأسلاب والمراعى(٢)·

ولكن إذا كانت الياسا قد فضت النزاع والخصام بين المغول الذين كانوا يعيشون من قبل كقطعان الذئاب لا ضابط لها ولا رابط، فإنها من جهة أخرى قد حولتها إلى جيوش منظمة تعرف كيف ترسم خططها بدقه وأحكام، وتغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار

---

(١)محمد محمد مرسي الشيخ :أوروبا والتتار، ص ٢٠٠ – ٢٠١·

(٢)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨·

المدمر، وكأسراب الجراد التي تنزل على الحقول المورقة فتلتهمها التهاما، وتأتي على كل ما فيها؛ لذلك أصدر جنكيز خان هذا القانون ونظم فيه علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة المحكومين بعضهم ببعض، كما حدد فيه علاقة الفرد بالمجتمع، وتتلخص أحكام الياسا في أمور ثلاثة هي: الخضوع لجنكيز خان، والاتحاد في قبيلة واحدة، والعقاب الصارم لكل مخطئ(١). وتحقق لجنكيز خان هذا الغرض، واستطاع أن يحول جموع المغول المتنازعة إلى جيوش منظمة تسير وفقا لخطط حربية مرسومة، وتغير على الأمم المتحضرة كأنها الإعصار المدمر(٢).

ولقد فضلت ذكر بعض أحكام هذا القانون الذي به أصبحت دولة المغول دولة فتية، وأخضعت العالم شرقه وغربه إلى حكمها حتى بعد موت جنكيز خان.

يذكر المقريزى: "فلما مات التزم أولاده، وأتباعهم حكم الياسا كالتزام أول المسلمين حكم القرآن الكريم، وجعلوا ذلك دينا، ولم يعرف عن أحد منهم مخالفته(٣).

ولقد أورد -المقريزي- في كتابه "الخطط" بعضا من مواد هذا القانون فقال: "إن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد المشرق قرر قوانين وعقوبات. ومن جملة ما شرعه: من زنى قتل (محصن وغير محصن)، من لاط قتل، ومن بال في الماء قتل، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بدون أذن قتل، وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى إن يموت، ثم يؤكل لحمه، ومن ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح، ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.
(٢) هارولد لام : جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، ص ٥٣.
(٣) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٢١٩.

أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد، فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإذا لم ينزل ويناوله قتل، ... وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى، وألزم قومه أن لا يأكل أحد من أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو كان أميرًا ومن يناوله أسير، ولزم أن لا يتخصص أحد يأكل شيئا وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله، وألزمهم ألا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه... وإن مر بقوم وهم يأكلون، فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منعه.. (١).

وجاء كذلك "...وألزمهم ألا يدخل أحد يده في الماء، ولكن يتناول بشيء يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى، ومنع أن يقال لشيء أنه نجس، وألزمهم أن لا يتعصبوا الشيء من المذاهب، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يخاطب السلطان من دونه ويدعى باسمه فقط، وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مده غيبتهم في القتال، وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده، وشرّع بأن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمـــر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه، وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف مملكته بسرعة"(٢).

ولقد درج المغول على أن يسجلوا أقوال ملوكهم للاستفادة منهم، ومن أقوال جنكيز خان في ذلك.

---

(١) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٢٢.

- المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢١، العريني : المغول، ص ٦٠ - ٦٢، بارتولد : تركستان حتى الغزو المغولي، ص ١١٣.

(2) Saunders, The Hist. of The Mongol conquest, P. 69.

١- لا يؤذ بعضكم بعضًا على أمور الدنيا فإذا شعر بعضكم بألم من الآخر فليسارع لإزالته حالا لتكونوا بمأمن من شرر الأعداء.

٢- أن من يدبر بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة المملكة.

٣- من تمكن من إدارة عشرة أفراد وأحسن سوقهم يتيسر له سوق جيش عظيم.

٤- من تمكن من نظافة بيته يستطيع أن يحرس حكومته من السراق وأهل الشقاء.

وعن طريق هذه القوانين والعادات التي درج المغول على اتباعها كأنها مقدسة عندهم، ولا يجرؤ شخص حتى السلطان نفسه على مخالفة أحكامها، وهي التي جعلت المغول يفتحون العالم شرقه وغربه(١)، وتمكن خلفاء جنكيز خان من اجتياح مساحات واسعة أخرى من العالم الإسلامي فسقطت في أيديهم بغداد عاصمة الخلافة العباسية في سنة ١٢٥٨م وأغرقوها في بحر من الدماء، ولم يسلم من غزوهم إلا سلطنة المماليك في مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا المسلمة والغرب الأوروبي(٢).

***

رابعا : النظم الحربية :

كان للنظام الحربي الذي اتخذه المغول أهمية كبيرة في النجاح الحربي الذي أصابه المغول في روسيا وشرق أوروبا، فقد شرع جنكيز خان بعد انتخابه في توزيع الوظائف الهامة على معاونيه سواء الوظائف الحربية أو المدنية، فاختار حرسه الخصوصيين من أمهر الرماة وأسند إلى آخرين توفير مؤن الجيش وسقاية الجنود وإعداد العربات، فضلاً عمن يشرفون على الخدم وينقلون الأوامر الملكية

---

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.
(2) Scott, op. cit., P.275.

ويحافظون على النظام خاصة عند انعقاد مجلس القبيلة، وكان انعقاد هذا المجلس يعقب الأحداث الهامة، وفيه تجرى مناقشة أهم الأمور التي تواجه القبيلة(١)٠

وقد اختار جنكيز خان جماعة من حرسه الخاص كان يطلق على كل منهم كشيكجي (كلمة مغولية معناها النوبة) منهم ثمانون شخصًا لنوبة الليل وسبعون لنوبة النهار، وكان لإنشاء نظام الحرس الخاص أهمية كبيرة في النجاح الحربي الذي أصابه المغول، وعندما اكتمل عدد هؤلاء الحرس؛ كانوا يبلغون عشر آلاف رجل ممن عرفوا بالحذر واليقظة وشدة البأس، وقد وكل إليهم النظر في أدق التفاصيل الخاصة بمعسكر الخان، وكان جنود هذا الحرس يؤلفون في الإمبراطورية المغولية طبقة أرستقراطية ممتازة لأن الجندي في هذه الكتيبة يكون أعلى مرتبة من قائد الألف رجل في الفرق الأخرى(١)٠

وكان الحرس يخضع لربط وضبط دقيقين، وكان عقاب من يفشل في الظهور يوم نوبته ثلاثين جلدة في المرة الأولى، وسبعين في المرة الثانية، أما في المرة الثالثة فالطرد بعد ضربه سبعًا وثلاثين جلده، وهذا العقاب نفسه كان نصيب الضابط الذي ينسى تذكير مرؤوسيه بيوم نوبته، وفي المقابل تمتع رجال الحرس بامتيازات كبرى، فالجندي المقاتل من رجال الحرس كان يحتل رتبة أعلي من قائد ألف في الجيش، أما غير المقاتلة من رجال الحرس فكان الواحد منهم أعلى من رأس مائة من ضباط الجيش، ولم يكن من حق قادة الحرس معاقبة مرؤوسيهم كما يشاءون بل عليهم رفع جميع تصرفاتهم إلى الخان٠

---

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، ص ٦٤٠

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧٠

وعندما أرسل جنكيز خان سوبوتاي إلى روسيا في إحدى الحملات أصدر إليه التعليمات الآتية: "أيا من يعصي الأوامر فإن كان معروفًا لدي فأحضره إلى هنا وإلا فإعدامه في مكانه".

ولم يكن الحرس يشارك في القتال إلا إذا أخذ الخان نفسه طرفًا في الحملة(١).

ومن بين حرس جنكيز خان خرج معظم قواده، وهكذا فإنه بفصل هذه المنظمة فإن قيادة القوات العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية الشاسعة كانت في أيدي رجال يعرفهم الخان معرفة مباشرة وخبرهم بنفسه، وأن ما قام به هؤلاء القواد من أعمال عسكرية مجيدة ليقف دليلاً على المقدرة والمعرفة بالرجال اللتين انتقى بهما جنكيز خان مساعديه، أما الكتل الشعبية فإنها لم تكن سوى أداة في أيدي مساعدي جنكيز خان الذي لا يشير في شيء حتى في الأقوال المأثورة عنه إلى الشعب كمجموعة أو يتحدث عما قام به نحوهم من خدمات، بل يذكر فقط ما قام به الخان من أجل خلفائه وأنصاره من النبلاء، وكان الأمراء النويد -Noyad- يكونون أعلى طبقة أرستقراطية في البلاد، وكان لقب النوين الأكبر يحمله تولوي أصغر أبناء الخان، والذي كان اليد اليمنى لأبيه في الشئون العسكرية، وكذلك حمل لقب نوين أخوا الخان الأصغران وهما: تموغا وبلغوطاي.

ومهما يكن من شيء فإنه لم يتمتع أحد من المنحدرين صلب أخوه جنكيز خان بحقوق الإمارة إلا سلالة جوجي، بينما دخل الباقون في زمرة الأرستقراطية وقد حمل أعضاء الأرستقراطية العسكرية لقب طرخان، وكانت أهم امتيازاتهم الإعفاء من الضرائب، وأن يكون لهم الحق في الغنائم التي تقع في أيديهم في الحرب أو الصيد، كما كان في استطاعتهم دخول البلاط في أي وقت يشاءون دون إذن خاص(٢).

---

(١) بار تولد : تركسان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ص ٥٥٠.

(٢) بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزوالمغولي، ص ٥٥٠- ٥٥١.

وفي الحقيقة كان كل مغولي مجندًا في خدمة دولته، ومستعدًا لحمل السلاح وخوض غمار القتال إذا ما أشارٍ عليه جنكيز خان بذلك، وكان جهاز الجيش المغولي منظمًا تنظيمًا دقيقًا، قسمة جنكيز خان إلى فرق كبيرة، يتكون كل منها من عشرة آلاف رجل "تومان" -Tumen- ويتدرج هذا التقسيم في الفرق، فترى فرقًا من مائة وفرقًا من عشرة، ويرأس كل فرقة قائد من القواد على أن يأتمر الجميع بأمر جنكيز خان، وكان أساس الترقية من رتبه إلى أعلى هو المقدرة والكفاءة وحدهما دون النظر إلى أي اعتبار آخر(١) .

ويقول براون: "ربما اقتصرت فضائل المغول على مزاياهم الحربية، فقد كانوا يمتازون بالنظام والخضوع وطاعة الرؤساء، وكانت الترقية عندهم قاصرة على من يكون جديرًا بها لكفاية أو دراية، وكان الفاشل في أداء واجبة أو الخارج على النظام أو العاجز عن القيام بما وُكل إليه يعاقب بالموت هو وزوجته وأولاده، وإذا غضب إمبراطور المغول لأمر ارتكبه قواده، فإنه كان يأمر بعقابه علنًا أمام سائر جنده وربما وكل أمر عقابه إلى رسول بسيط من رسله(١) .

ولقد كان يقف على رأس الجيش المغولي قادة العشرة والمائة والألف، والتومان (يتكون من عشرة آلاف مقاتل)، وعلى عهد جنكيز خان كان هناك ثلاثة من قادة التومانات أحدهم وهو موقال Muqali كان يقود الميسرة أو الجهة الشرقية، أما الثاني فكان بوغورجي -Bogorci- قائد الميمنة أوالجهة الغربية، وكان الثالث نايا-Naya- يقود(عسكر الوسط)، وكان الجندي الذي تثبت عليه تهمه التحول من

---

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٥٨.
(٢)براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص ٥٣٣.

قائد إلى آخر طواعية ينفذ فيه حكم الإعدام أمام الجيش كله، كما أن القائد الذي يقبله كان يعاقب عقابًا صارمًا(١)٠

وكان الجنود المغول يلبسون دروعًا كاملة ويحملون السيوف والحراب ويغطون خيولهم بدروع تناسبها، أما أفراد الفرق الخلفية فكانوا يكتفون بما يحملون من أسلحة كالقوس والنشاب ليسهل عليهم التنقل من مكان إلى آخر، وقد استعملوا من الأسلحة القوس والنشاب والسيوف وآلات تسمى قاذفات بعيدة، وكانوا يستعملون قاذفات النفط لتساعدهم على إشعال الحرائق في المدن المحاصرة، بالإضافة إلى المنجنيقات وآلات الحصار الأخرى٠

ولما كان المغول يعتقدون أن الجهة الجنوبية هي أحسن الجهات وأكثرها بركة، فإنهم كانوا يولون وجوههم شطر الجنوب عند اصطفافهم(٢)٠

وقبل أن يقوم المغول بغزو الأقاليم، كانت تطرح الخطة الحربية التي سوف يتبعونها على بساط البحث في جلسة القوريلتاي، حتى إذا ما استقر الرأي على الغزو، وأطلق المغول جواسيسهم في بلاد العدو يجمعون الأخبار من هنا وهناك، ويستقصون حالة الجيش ويختبرون حصون المدن، ثم يعودون بهذه المعلومات إلى بلادهم، ويطلعون قادة الجيش عليها٠

بعد ذلك يرسل الخان رسلاً من قبله إلى حكام الأقاليم وسكان المدن يدعونهم إلى التسليم والنزول على طاعته(٣)٠

ويذكر -الجويني- في ذلك أن أعمال المغول الإرهابية تلقى الفزع في نفوس سكان البلاد التي يزمعون الإغارة عليها، وكانت

---

(١)بار تولد : تركستان من الفتح العربي إلى الغزوالمغولي، ص ٥٥٢٠

(٢)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٥٩٠

(٣)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٦٠ - ٢٦١٠

قلوبهم تتخلع رعبًا وفزعًا حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد، "ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام، والرب وحدة يعلم ما هونازل بكم"(١)٠

وإذا رفض أعداء المغول التسليم وأصروا على المقاومة، تقدم المغول لمحاربتهم، حتى إذا ما وصلوا إلى باب المدينة، دعوا الناس للمرة الأخيرة إلى الدخول في طاعتهم، فان خرج عظماؤهم وذوو الرأي فيهم، وحملوا إليهم الهدايا، وقبلوا تزويد الجيش المغولي بما يحتاج إليه من مؤن، فان المغول لا يتعرضون لهم بالأذى، ويكتفون بأن يرسلوا إلى المدينة حاكمًا من قبلهم، ويصدر الخان المرسوم بذلك حتى يكون لهذا الحاكم الاحترام والمهابة في النفوس، وهذا المرسوم يكون مختومًا بخاتم الخان(٢)٠

أما إذا اتخذ السكان طريق العصيان والتمرد، فإن الخان يصدر أوامره بقتل النساء والأبناء والأقارب وتخريب المدينة، ثم إباحة القتل العام، وكانت الطريقة المتبعة في ذلك أن يدعوا المغول السكان للخروج إلى ظاهر المدينة، ويبقوا على الصناع وأرباب الحرف، ثم يرسلوهم إلى تركستان ومنغوليا، ويختاروا من بين الأسرى من يصلح للقتال، فيكونون منهم قوات غير نظامية يطلقون عليها " حشر" ثم يعملون سيوفهم في الباقين(٣) ٠

خامسا: استخدام الأسرى في غزو المدن التالية :

لقد كان سقوط أي مدينة في أيدي المغول يضيف إليهم قوة جديدة بالإضافة إلى قوتهم، لأنهم كانوا يستخدمون الأسرى الأشداء في حصار أو قتال بني جلدتهم٠ عملاً بمبدأ "لا يفل الحديد إلا الحديد"،

---

(١) الجويني : تاريخ جها نكشاي، جـ ١، ص ١٨٠

(٢) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٦١٠

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٦١ – ٢٦٢، على حسن الخربوطلي بين المغول واليهود، ص ٨٣٠

ويأخذون من الأسرى معلومات كاملة عن الضحايا الذي سيقع عليهم الدور.

وكانت الطريقـــة التي سلكها المغول في جميع البلاد المتحضرة -وخاصة روسيا- واحدة على الدوام، فقد كانوا في كل مكان يسوقون سكان القرى العزل أفواجًا لشد أذرهم في حصار المدن الحصينة، واعتاد المغول عند اقتحام الحصون أن يجعلوا الأسرى من سكان المدن المجاورة في المقدمة، لكي يتلقوا هم السهام المنهالة عليهم، وليمهدوا الطريق للجيش الذي يتبعهم.

وكانت الأعلام والرايات المغولية توزع على الأسرى في بعض الأحيان لإيهام العدو بأن الجيش المغولي وافر العدد.

ويقال أن عدد المغول عند حصار بعض المدن كان يبلغ عشرين ألفًا فقط، بينما كان عدد الأسرى الذين أُجبروا على مصاحبة الجيش المغولي خمسين ألف نسمة(١).

أما ذلك المشهد البغيض وهذه الصفات الكريهة التي اقترنت بطبائع التتر الفاتحين قد زادت الفزع في الناس بسبب الغدر وقسوة القلب(٢)، حتى أن هؤلاء الأسري كانوا يقومون بالأعمال الحربية العنيفة، ويتعرضون للأخطار دون أن يجدوا سبيلاً للفرار، إذ أن أعين المغول من ورائهم كانت ساهرة عليهم، حتى إذا ما أنهك الأسرى قوى أعدائهم، يأتي عليهم المغول للإجهاز عليهم(٣).

ويضيف -ابن الأثير- في معاملة المغول للأسرى فيقول :

"كانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة، قدموا مـــن معهـــم مـــن أســـرى المسلمين بين أيديهم، يزحفون ويقاتلون، فان عـــادوا قتلـــوا، فكـــانوا

---

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٦٢.
(٢)على حسن الخربوطلي : بين المغول وإليهود، ص ٨٥ -٨٦.
(٣)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٦٢.

يقاتلون كرهًا، وهم المساكين كما قيل، كالأسقر أن تقــدم، ينحــر وأن تأخر يعقر، وكانوا يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل في المسلمين الأساري وهم ينجون منه"(١)٠

وعند غزو المغول لروسيا في عام ١٢٢٢–١٢٢٣م ذكر المؤرخ الروسي –جورج فيرنادسكي– أن جيش باتو كان يتألف من حوالي خمسين ألفًا من المغول، فضلاً عن سبعين ألفًا من الأسرى الذين جندهم باتو لجيشه في المناطق التي احتلها في جنوب روسيا عند بدء حملته شمالاً(٢) ٠

لذلك لعب هؤلاء الأسرى الذين استخدمهم المغول بأعداد كبيرة دورًا هامًا في حصار المدن، وفي تحقيق انتصارات سريعة وسهلة للمغول نظرًا لكثرة أعدادهم التي أصابت أعداءهم بالرعب والفزع فاستسلموا لليأس٠

***

سادسا: القيادة والتخطيط وقوة الجندي المغولي :

لقد كان أحد أهم عوامل نجاح المغول في غزو روسيا هو عملهم في تنسيق بارع وقيادة خبيرة وحكيمة، وكانوا يختارون الوقت المناسب للحصار أو الهجوم والانسحاب مع تخطيط مدهش لتنظيم وسائل الإمداد والتموين والاتصال٠

وبعد موت جنكيز خان انعقد القوريلتاي، وتولى أوكتاي وكان مما اهتم به هوتزويد الجيوش بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب وتأمين خطوط مواصلاتها، وقسم الجيوش إلى ثلاثة أقسام، وخضع الجيش الثالث منها الذي تألف من حوالي مائة وخمسين ألف مقاتل من الناحية الاسمية إلى باتوبن جوجي، والقيادة الفعلية في يد سوبوتاي والذي

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ ١٠، ص ٤١١٠
(2) Vernadsky ; The Mongole and Russia, PP. 48. 49.

كان يمتلك خبره واسعة في حرب الروس، حيث برهنت مقدرته الحربية دومًا على أن وجوده في ساحة القتال يحقق النصر رغم بلوغه سن الستين من عمره(١)٠

ولقد كان كل مغولي مجندًا في خدمة دولته، ومستعدًا لحمل السلاح وخوص غمار القتال إذا ما أشار عليه جنكيز خان بذلك، وكان جهاز الجيش المغولي منظمًا تنظيمًا دقيقًا، وكانوا جميعًا يأتمرون بأمر جنكيز خان، وتحتم عليهم الطاعة العمياء تنفيذ الأوامر، ويعاقب بالموت كل من يشرع حتى في نهب العدو قبل أن تصدر الأوامر بذلك من القائد العام، على أن يصبح لكل جندي نفس الحق الممنوح للضابط بمجرد صدور الأوامر، ويحق للجندي الاحتفاظ بما استولى عليه من أسلاب وذلك بعد تقديم نصيب القائد٠

وأصدر جنكيز خان أوامر تثير الرعب في قلوب الجند وتخوفهم من المصير المرعب والمؤلم الذي ينتظرهم من مخالفة الأوامر، مما غرس روح الالتزام وحب القائد والوطن(٢)٠

ورغم قوة المغول وشده بأسهم إلا أنهم دعموا هذه القوة بالخبرات الصينية، ومثال ذلك عند قتال المغول للروس والبولنديين، فقد ظهرت العبقرية الحربية للمغول المدعمة بالخبرة الصينية التي صقلتها ممارسة القتال في العديد من الميادين والأجواء وضد الكثير من الشعوب والقبائل، فقد استخدم المغول ما يشبه اليوم بالغازات السامة، وذلك بإشعال النيران في الغابات المحيطة بميدان القتال، واستخدموا مداخن سامه وتم توجيه كرات النفط المحترقة تجاه القوات المتحالفة ضد المغول٠ وظهرت كذلك عبقرية المغول في تطويق الأعداء

---

(1) Brawdin, The Mongol Empire, P.246 ; Sunders, op.cit., PP. 80 -81.

(٢) على حسن الخرابطلي : بين المغول وإليهود، ص ٨٠ -٨٢٠

والالتفاف حولهم وغير ذلك من وسائل مختلفة أحبطت الأعداء وسهلت لهم إحراز النصر عليهم(١)٠

وأخيرًا، لقد كان هناك العديد من العوامل التي أدت إلى نجاح المغول السريع في التفوق على الأعداء وإحراز انتصارات سريعة ومدوية، فقد كان هجومهم مثل الطوفان، وأعدادهم كأعداد الجراد، ويعملون في تنسيق بارع وتحت قيادة خبيرة، ويختارون الوقت المناسب للهجوم أو الانسحاب، وإن كانت قاعدتهم العسكرية التي اتبعوها أثناء زحفهم للاستيلاء على الحصون والقلاع، تعتمد أساسًا على الأسرى المساكين والأهالي العزل يسوقونهم أمامهم لشد أذرهم في عمليات الحصار والغزو، فإذا ما بدأت المعركة يقذفون بهؤلاء التعساء من خلال الفجوات التي يحدثونها في أسوار المدن أو القلاع، فضلاً عن أنهم كانوا يستولون على ما يكفيهم من مؤن وعتاد٠

ولا شك أن قوة الجندي المغولي وشدة بأسه، والفرق الشاسع بين العسكرية المغولية التي تطورت وازدادت خبرة من جراء حصار وقتال عشرات المدن والشعوب من الصين شرقًا حتى شمال روسيا غربًا – والعسكرية البدائية للروس وخاصة مدنها المفككة، والتي كان لها الدور الحاسم في تحقيق انتصارات سريعة للمغول ضد الروس(٢)٠

في حين يذكر –د٠ سعيد عاشور– أنه من الخطأ أن نرجع انتصارات جنكيز خان إلى كثرة رجاله فحسب دون أن نعمل حسابًا لمهارة المغول في الفروسية واستخدام الخيل في الحرب، فضلاً عن

(1) Vernadsky, op.cit.، P. 55 ; Chambers, op. cit., PP. 98 – 99.
(2) Brawdin, op. cit., P. 25. ; Howorth, op.cit, VoL,I, P. 39 ; Vernadsky، op.cit., PP. 54 -55.

براعتهم في التكتيك الحربي واستعمال الخطط الحربية بطريقة لم تعرفها بقية الجيوش التي اصطدم بها المغول في ذلك العصر (١).

***

٢ – عوامل فشل الروس في مواجهة المغول

أما عن عوامل فشل الروس في مواجهة المغول فهي عديدة، فلا شك أن تفكك الإمارات الروسية وعدم توحدها أمام جحافل المغول كان أحد أهم هذه العوامل على الإطلاق، فضلاً عن عدم وجود تحصينات قوية أو موانع طبيعية حاجزة أمام الغزاة، وكذلك الاختلاف في المذهب الديني، حيث يدين الروس بالمذهب الأرثوذكسي، بينما يدين الغرب الأوروبي بالمذهب الكاثوليكي، فنظر اللاتين للروس على أنهم هراطقة، كما كان للأثر النفسي الذي تركه سرعة اكتساح المغول المدن الروسية وتدميرها وذبح سكانها وأسراهم، كل هذا ألقى الرعب والفزع في قلوب سكان المدن الأخرى حتى شكوا في جدوى الصمود، فاستسلموا للمغول؛ لذلك كان علينا توضيح هذه العوامل.

١) تفكك الإمارات الروسية :

عندما وصلت القوات المغولية أذربيجان وشواطئ بحر قزوين أثناء مطارده فلول جلال الدين خوارزم شاه، استأذن قائدا هاتين الفرقتين جنكيز خان في التقدم شمالاً ناحية روسيا(٢)، واستنجد ملك الكومان بالدوقات الروس حتى لا يلتهم المغول إماراتهم واحدة تلو الأخرى، ولكن الأمراء الروس قتلوا المغول الذين طلبوا منهم التسليم(٣)، وأرسل الكومان سفارة إلى مستسلاف الشجاع أمير

---

(١)سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، جـ١، ص ٦١٩.

(2) Vernadsky ; The Mongol and Russia, P. 40.

(3) The Chronicle of Novgorod, PP. 65 – 66.

غاليسيا، وأخبروه أن المغول غزو أراضيهم من الناحية الجنوبية وحذروه من خطرهم بقولهم: "لقد استولى المغول على بلادنا، وغدا سوف يحل بكم نفس المصير إن لم تمدوا لنا يد العون".

وحاول مستسلاف أن يقنع الأمراء بخطورة المغول، واستطاع بصعوبة أن يقنعهم بالانضمام إليه في حملته لملاقاة المغول، وألحق المغول هزيمة قاسية بالجيش الروسي والكومان معًا عند شاطئ نهر كالكا(١) ، وكانت أهم أسباب هزيمة الروس هي ازدياد حدة الخلافات الإقطاعية بين الأمراء الروس، وعجزهم عن تكتيل جهودهم تحت قيادة موحدة لمواجهة خطر المغول(٢).

وعندما واصل المغول تقدمهم في روسيا ناحية الغرب، ووصلوا إلى أمارة ريازان الروسية، وبعثوا إلى أميرها يطلبون منه الخضوع والاعتراف بسيادتهم إذا أراد النجاة والعيش في سلام، وأن يعطيهم عشر ممتلكاته وعددًا كبيرًا من أهالي إمارته(٣)، ورفضت الإمارة الرضوخ لمطالب المغول، واستنجد سكانها بأمير إمارة فلا ديمير المجاورة، بيد أنه رفض ورد عليهم قائلاً: "لقد هاجم الأعداء أرضكم، فدافعوا أنتم عنها".

وعندئذ وقفت إمارة ريازان وحدها تقاتل المغول بصلابة وشجاعة، وانهارت مقاومة المدينة بعد حصار دام ستة أيام دون أن تمد لها يد العون أيّ من المدن المجاورة لها فقتل المغول الأطفال والنساء والشيوخ دون رحمة(٤).

---

(1) Howorth, Hist. of the Mongols, VoL، I، P.95.
(2) Spector, op. cit., P. 24.
(3) Brawdin، op. cit., P. 250.
(4) Howorth, op. cit., VoL، I، P. 139.

- ول ديورانت : المرجع السابق، جـ٤،م٤، ص١٥٨، الكسييف كارتسوف، المرجع السابق، ص ١٧.

والحقيقة أن المغول كانوا يتحركون من مدينة إلى أخرى وكأنهم في نزهة، فبعد أن استولوا على إمارة ريازان تحرك باتو ناحية مدينة فلاديمير الحصينة، واستولى عليها وحرقها بما فيها، وعندما هرب السكان للاحتماء بالكنيسة، أشعل المغول النيران في الكنيسة لتحترق بمن فيها، وقتلوا دوقها فلا ديمير، وسقطت في أيديهم إماره كولومنا حيث لقي أميرها رومان إيجورو فتش مصرعهـ ولم تجد قوات باتو وسوبداي أي مقاومة من المدن المجاورة مثل موسكو وسوذدال ودميتروف ويوريف وتيفير وتورزوك وقتلوا وشردوا وأسروا سكانها ولم يبق سوى مدينة نوفوجارد(١)، ولم ينقذ مدينة نوفر جارد من باتو إلا ذوبان الجليد في فصل الربيع الذي أحال الأرض إلى مستنقعات يتعذر على المغول اجتيازها(٢).

وهاجم المغول أثناء عودتهم إلى المراعي الجنوبية في روسيا مدينة كوزلسك، ولكن المدينة صمدت بدون مساعدة المدن الأخرى لمدة سبعة أسابيع، كبدت المغول خلالها الكثير من الخسائر في الأرواح، مما جعل باتو يوجه إليها جيشًا ضخمًا استولى على المدينة وذبح سكانها، ثم مضى باتو في زحفه إلى أوكرانيا، فنهب مدينة بريسلاف ومدينة شرينجوف واستولى عليهم في صيف ١٢٤٠م، ولم تمد لهم أي مدينة يد المساعدة(٣).

ثم زحف باتو إلى مدينة كييف المنيعة، وأرسل سفراءه إلى المدينة ينذرهم بالتسلم والخضوع لتبعيته أو التدمير، ولكن أهل كييف قتلوا الرسل، فصمم باتو على الانتقام منهم، وكيفما كان الأمر، فقد

---

(1) The Chronicle of Novgorod, PP. 82 – 83.
(2) Brawdin، op. cit., P. 250 – 251.
(3) Howorth, op. cit., VoL، I، P. 141; Saunders, op.cit., PP. 83 - 84.

استولى المغول عنوه على كييف بعد مقاومة قصيرة استمات الأهالي في الدفاع عن المدينة بعد أن طلب أميرها يد المعونة من الأمراء الآخرين، فرفضوا كالعادة مفضلين المواجهة المنفردة التي لم تثبت أي نتيجة للروس، وبعد المعركة وخوفاً من المغول لجأ الروس إلى الكاتدرائية للاحتماء بها، ولكنها انهارت تحت ثقلهم فلقوا مصرعهم، وتعرض بقية الأهالي لمذبحة مريعة على يد باتو(١)، ولم يلبث باتوان استولى على غاليسيا، فهرب أميرها دانييل إلى المجر، وتوقف المغول في بوهيميا، ولكنها نجت من وحشية المغول بفضل أميرها فنسيسلاوس الأول الذي صمد أمام المغول وهزمهم، وعاد باتو إلي نهر الفولجا وأسس القبيلة الذهبية(٢).

ولا شك أن تفكك الإمارات الروسية وعدم توحيدها أمام جحافل المغول، وكذلك عدم توحيد الأمراء الروس لمواجهة المغول كان أحد أهم الأسباب في فشل الروس في مواجهة المغول، فقد آثر كل أمير أن يقاتل المغول منفردًا فتفتت قواهم وكانت الهزيمة تامة.

٢) الاختلاف بين الروس والغرب الأوروبي في المذهب الديني:

وصلت أخبار الغزو المغولي لروسيا إلى الغرب الأوروبي بحكم الموقع الجغرافي أو من التجار أومن فرار العديد من قادة المدن الروسية إلى بولندا والمجر، ولكن لم يتحرك أحد من جيرانهم في الغرب الأوروبي لمساعدة الروس، وربما لأن الروس كانوا يدينون بالمسيحية الأرثوذكسية، وكانوا بعد سقوط مدينة القسطنطينية في يد اللاتين عام ١٢٠٤م يعتبرون أن كنيستهم رائدة الأرثوذكسية في العالم، وبالطبع نظر اللاتين للروس على أنهم هراطقة، وهذا يدل على عنصرية الكاثوليك الغربيين وقصر نظرهم عن فهم دوافع الغزو

---

(1) Howorth, op. cit., VoL، I، P. 14.; Saunders, P. 83.
(2) Cam-Med. Hist, VoL. 4, P. 652.

المغولي، فلقد كان الغرب يتصور عدم إمكانية أن يصل المغول بعد شهور قليلة من القضاء على آخر معاقل مقاومة الروس إلى بولندا والمجر في شرق أوروبا ووسطها(١)٠

بل زاد من الطين بله أن بعض القوى اللاتينية اعتبرت أن الظروف الصعبة التي تمر بها المدن والأقاليم الروسية في مواجهة الغزو المغولي هي اللحظة المناسبة للهجوم على الروس، ومن هذا المنطلق حاول الفرسان التيوتون وقبائل السويديين الاستفادة من انشغال الروس بالحرب مع المغول، وهاجموا المناطق الشمالية الشرقية لروسيا حاملين السيف والصليب على اعتبار أن الروس الأرثوذكس وثنيون ويحق لهم قتالهم(٢) ، لدرجة أن قبائل السويديين وخلفائهم هاجموا مصب نهر نيفا لقطع مدينة نوفو جارد الروسية عن البحر البلطي مستغلين انشغال المدينة الروسية بالغزو المغولي، وتقدم حولية نوفو جارد تفصيلات هذا الغزو ودوافع الحقد لدى اللاتين من تبجيل الروس للآباء المقدسين في خالقدونيا في إشارة إلى أرثوزكسيتهم، ولكن القوات الروسية شتتت شمل الغزاة من المغول على حد قول الحولية الروسية(٣)٠

٣) موقف الغرب الأوروبي المتخاذل :

ذكر –متى الباريسي– أن سفراء المسلمين الذين أتو للملك الفرنسي قد أرسلوا نيابة عن كل شعوب الشرق ممثلين في شخص (شيخ الجبل) لطلب معونة الغرب الأوروبي لوقف زحف التتار، وأرسلوا سفارة أخرى إلى ملك إنجلترا كي يخبروه بتلك الأحداث، ويذكروه أنهم لو لم يتصدوا لهجمات هؤلاء البرابرة، فإن أحدًا لن

---

(1) Vernadsky ; op.cit., P. 54.
(2) Vernadsky ; op.cit., PP. 54 – 55.
(3) The Chronicle of Novgorod, PP. 84 – 85.

يمنع تدميرهم للغرب الأوروبي. لكن أسـقف ونشسـتر الـذي كـان موجودًا عند الملك الإنجليزي وقت وصول الرسـل مرتـديًا علامـة الصليب، قاطع حديث السفراء وأجاب مستهزئا: "دعنـا نتـرك هـذه الكلاب (يقصد المغول والمسلمين) كي يفترس أحدهما الآخـر حتـى يفنوا، عندئذ نتحرك ضد أعداء المسيح لندحرهم"(١).

كان هذا هو الرد الإنجليزي المتخاذل لسفراء الشرق الإسلامي ممثلاً في (شيخ الجبل)، وإن كان هذا الرد من أسقف ونشستر يدل على الفرحة والتشفي في المسلمين، وهو رد يعبر عن وجهة نظر قاصرة، لأن المغول حطموا الممالك المسيحية في شرق أوروبا في ثلاث سنوات.

أما رد الفعل الفرنسي فإنه لم يختلف كثيرًا عن الرد الإنجليزي، فرغم أن الملك لويس التاسع رحب بالسفارة الإسماعيلية إلا أنه رفض الإصغاء إلى مطالب السفراء، لأنه لم يكن يريد عقد أي تحالف مع المسلمين، وذلك لاختلاف المذهب، وخاصة بعد أن جاء الغرب إلى الشرق في حملاته الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر، وكذلك لأن الغرب لم يتصور أن المغول البرابرة القاطنين وراء الأقاليم الإسلامية يمكن أن يمثلوا خـطرًا على أوروبا المسيحية(٢).

أما موقف دوق النمسا فكان أكثر تخاذلاً، فعندما غزا المغول المجر فرّ بيلا الرابع ملك المجر إلى دوق النمسا للاحتماء به وطلب مساعدته العاجلة لنجدة بلاده، ولكن المفاجأة أن الأخير اعتقله وطلب منه فدية ضخمة قدرها ثلاثة أقاليم مجرية مجاورة لحدود دوقيته ومبلغًا ضخمًا من المال، والأكثر من ذلك أن هاجم دوق النمسا مملكة

---

(1) Matthew Paris, vol.1, PP. 131 – 132.
(2) Brawdin, op. cit., PP. 248 – 249.

المجر المنكوبة حتى وصل إلى مدينة جاجور، والتي أحرقها المجريون أنفسهم حتى لا تقع في قبضه دوق النمسا الخائن(١).

أما عن موقف الإمبراطور فردريك إمبراطور ألمانيا والصقليتين، فقد أيقن خطورة الموقف، وبادر بإرسال رسالة إلى ملك إنجلترا هنري الثالث يطلب منه القيام بعمل مشترك ضد المغول لحماية أوروبا منهم(٢).

وقد نشر –متى الباريسي– كما أوردنا نص رسالة الإمبراطور إلى ملك إنجلترا، حيث حكى عن المذابح التي ارتكبها المغول ضد المسيحيين دون تفرقه بين جنس أو نوع أو ديانة أو طبقة معينة.

وكالعادة ألقى الإمبراطور فرديك مسئولية ذلك على ملك المجر لأنه رجل تافه وكسول ولم يحتاط لخطر المغول، وألقى بالمسئولية الكبرى على البابا راعى المسيحيين، والذي أمر بحمله صليبية ضد الإمبراطور حامي الدولة والكنيسة معًا، وكان من الأفضل له أن يفعل ذلك ضد هؤلاء التتاريين المتوحشين، وطلب الإمبراطور من هنري في آخر الرسالة أن يجند قوة من خيره فرسانه ويرسلها إلى الأراضي الألمانية بالاشتراك مع ابنه كونراد للدفاع عن الغرب واسم المسيح (عليه السلام)، ولعن في نهاية الرسالة من بيدهم أمور العقيدة(٣).

أما عن موقف البابوية ومن بيدهم العقيدة فكان أكثر تخاذلاً، فقد ركز البابا فكرة وجهده حينئذ لمعركته مع الإمبراطور حول فكرة السمو البابوى ورغبة البابا في إجبار الإمبراطور فردريك على الانصياع والطاعة(٤)، وقام بإصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور،

---

(1) Sinor، op. cit., PP. 7. – 73.
(2) Morgan، op. cit., P.179.
(3) Matthew Paris، vol.1، PP. 341 – 346.
(4) Cam. Med. Hist, VoL. 6، P. 135.

لذلك لم يكن في استطاعة أي قائد في أوروبا أن يتعاون مع الإمبراطور أويجاهر البابا بالعداء، وكانت البابوية تنظر بعين القلق لأي تقارب بين أي حاكم أوربي وبين الإمبراطور، ويذكر –متى الباريسي– أن الإمبراطور قبض على مجموعة من الأساقفة والكرادلة كانوا في طريقهم للمقر البابوي في روما(١)٠

والحقيقة أن البابا جريجوري التاسع لم يصنع شيئًا؛ لأنه شُغل بالصراع مع الإمبراطور وأعوانه، فقد بعث بالعديد من الرسائل إلى أمراء العالم المسيحي، حيث لم يكن في جعبته سوى الدعوة لحملة صليبية ضد التتار لصد تيارهم الجارف، ولم يتخذ خطوات أكثر من ذلك(٢)٠

وتوفي البابا جريجوري التاسع في الثاني والعشرين من أغسطس سنة ١٢٤١م، وتولى خلفه البابا أنوسنت الرابع، وفور اعتلائه الكرسي البابوي أولى اهتمامًا شديدًا للمسألة المغولية، فقد أرسل مندوبيه إلى الإمبراطورية الرومانية لترغيب الفرسان والعامة على حمل الصليب ضد المغول، ولم ينجح البابا في حشد الجيوش لمحاربة المغول أوالتصدي لهم على الرغم من أنه منح المحاربين المتطوعين في هذه الجيوش امتيازات روحية ودينية ماثلت ما منحته البابوية لمن شاركوا في الحروب الصليبية في الشرق، فضلاً عن أنه جعل للحملة المزمع إنقاذها لمحاربة المغول من المكانة والاحترام ما حظيت به الحملات الصليبية للشرق(٣)٠

---

(1) Matthew Paris، vol.1، PP. 356.
(2) Howorth, op. cit., P. 134.
(٣) العريني : المغول، ص ١٨٧٠
- Morgan، op. cit., P.179 – 180.

ولقد حاول البابا إقناع الأمراء الروس بالانضواء تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية بعد معاناتهم من خطر المغول، وكان البابا يأمل أن يمده الروس بمعلومات فورية في حالة تقدم المغول ثانية للأراضي الأوروبية، على اعتبار أنهم أول من سيواجهه المغول في أوروبا. وإمعانا في ذلك قام البابا بمنح الأمير دانيال الروسي دوق غاليسيا لقب " ملك روسيا" للاستفادة منه ضد المغول، وطلب البابا من دانيال سرعة إمداد جماعة التيوتون في روسيا بأية معلومات جديدة عن تقدم التتار ضد العالم المسيحي(١)، ولكن دانيال الروسي الذي ذاقت قواته مرارة الهزيمة على يد المغول في سنة ١٢٢٣م لم يوافق البابوية الرأي، لأن البابا لم يكن بإمكانه حتى حماية نفسه ومدينة روما، لذلك أعلن دانيال الخضوع للمغول، وأقسم يمين الولاء والطاعة إلى باتو، هذا بالنسبة لتطور الموقف البابوية من روسيا(٢).

وعندما يأس البابا من توحيد الغرب الأوروبي، وأدرك مدى الخطر الذي يحيط بأوربا من جرأة المغول، ولمس مدى تفكك الغرب ومدى وطأة الصراع مع الإمبراطور، فضلاً عن عجزة لتأليف قوة حربية لمواجهة هذا الخطر الداهم، وكذلك ما لمسه من تخاذل الملك الإنجليزي والملك الفرنسي، لذلك وجد البابا أن أفضل الطرق المتاحة له هو مهادنة المغول لإبعاد خطرهم، وإن شجعه على ذلك معتقدات المغول التي تحترم السفراء، لهذا قرر البابا إرسال أربعة سفارات قبل انعقاد مجمع ليون الأول في مارس سنة ١٢٤٥م للتودد للمغول لردع خطرهم عن الغرب الأوروبي(٣).

---

(1) Iwamura، op. cit., PP. 122 – 1240
(2) Iwamura، op. cit., PP. 112 – 113.
(3) Morgan، op. cit., P.179 – 180; Connell, op. cit., P.129–130.

٤) عدم وجود تحصينات قوية :

المعروف عن المغول كرههم للحصون وخاصة الحصون الحجرية، حيث كانوا يبتعدون عن اقتحامها، فضلاً عن عدم وجود تحصينات قوية أوموانع طبيعية حاجزة أمام الغزاة، كل ذلك سهل على المغول غزو روسيا·

فروسيا سهول لا حدود لها، وحقول خصبة، وأنهار ضخمة، وغابات تمتد بعيدًا حيث لا تدركها الأعين، وجليد أبدى في الشمال، وبحار رقيقة ومملكه الدفء في الجنوب· ولابد للشمس أن تمر حوالي إحدى عشر ساعة كي تصعد من مياه المحيط الهادي، وتمرق من حدود البلاد الشرقية إلى حدودها الغربية(١)·

وعندما بدأ المغول عملياتهم العسكرية في شمال روسيا في فصل الشتاء لم تكن هذه الأنهار وهذا الجليد عائقا بالنسبة للمغول· حيث إن الجنود المغول تعودوا في منغوليا على البرد القارص وقسوة المناخ، حيث كانوا يرتدون الفراء وجلود الحيوانات كملابس واقية ضد قسوة الطبيعة وإن كانت وسيلتهم في التنقل هي الخيول القادمة من شرق أسيا التي تعودت على البرد والجليد، كما أن تجمد الأنهار والقنوات والبحيرات الكثيرة من شمال روسيا في فصل الشتاء جعل عبور القوات المغولية عليها أمرًا سهلاً دون مشقة بناء الجسور(٢)·

وقبل أن يقوم المغول بغزو إقليم من الأقاليم، يطلقون جواسيسهم في بلاد العدو فيجمعون الأخبار من هنا وهناك، ويستقصون حالة الجيش، ويختبرون حصون المدن، فإذا كانت هذه الحصون حجرية فإنهم يبتعدون عنها، لأنهم لا يجيدون حصار المدن الحجرية، ثم يعودون بهذه المعلومات إلى بلادهم، ويطلعون قادة الجيش عليها

---

(١) الكسييف كارتسوف : المرجع السابق، ص ٣٠·

(2) The Chronicle of Novgorod, P. 50.

للاستقرار على عملية الغزو(١)، وقد قدم جوليان المجري في أول تقرير له عن المغول، وهو عبارة عن رسالة من دوق مدينة سوزرال الروسية إلى ملك المجر يخبره فيها بمعلومات صحيحة عن الجيش المغولي وتقسيماته وأسلحته، واستخدامهم للأسرى في قتال بني أوطانهم، وخوف المغول من غزو الحصون الحجرية ومحاولة الابتعاد عنها(٢)٠

** **تقييم :**

على الرغم مما صاحب الغزو المغولي من ذبح آلاف الأهالي وتدمير ممتلكاتهم وأراضيهم، إلا أن هذا الغزو لم يغير الطابع العام للبلاد، ذلك لأن خانات القبيلة الذهبية لم يحاولوا تغيير النظام السائد، وهكذا ظلت روسيا مقسمة إلى عدة ولايات وإمارات، وكان يحكم هذه الولايات أمراء من الروس على أن يختار خان المغول أحدهم ليكون أميرًا أعظم٠ والواقع أننا نستطيع أن نحدد العلاقة بين الروس وساداتهم المغول في ذلك العصر بعدة روابط أساسيه أولها: أنه كان على الأمراء أن يترددوا بين حين وآخر على مقر القبيلة الذهبية، إما لتقديم ولائهم وخضوعهم، وإما لحل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض٠ ويبدوان الأمر لم يقتصر على ذهاب الأمراء الروس إلى مقر القبيلة الذهبية، وإنما يضطرون أحيانًا إلى الذهاب حيث كان خان المغول الأعظم في جوف القارة الآسيوية، وهناك كان يلتقي الأمراء الروس بمبعوثي بعض القوى الإسلامية والبابا وملك فرنسا وغيرهم من حكام الشرق والغرب(٣)، وثاني هذه الروابط أنه كان على الروس

(١)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٦٠٠
(2) Dienes, M., " Eastern Missions " ، Vol. 27، 1937، P.234.
(٣)سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى، جـ ١، ص ٦٣٥-٦٣٦٠

-شأنهم شأن بقية الشعوب الخاضعة للمغول- دفع ضريبة الرأس، دون تمييز بين الأثرياء والفقراء في دفع هذه الضريبة، ولم يشترط أن تدفع هذه الضريبة نقدًا وإنما كانت تدفع عينًا في بعض الأحيان، ومن يعجز عن دفعها يفقد حريته ويستعبد(١).

أما الرابط الثالث فإنه كان على الروس دفع ضريبة الدم -Lmpotdusang- ويقصد بها تقديم الرجال المطلوبين للعمل في جيوش ساداتهم المغول. وكان الأمراء الروس يختارون صفوه شبابهم في القرن الثالث عشر لتقديمهم إلى المغول ضد شعب القوقاز سنة ١٢٧٦م، ورابع هذه الروابط أن أي أمير روسي لا يمكن أن يتولى الحكم في إمارته إلا بموافقة الخان وتسليمه أمر اعتماد أو تقليد منه، وأخيرًا فقد كان محرمًا على أية إمارة روسية أن تشن حربًا على جارتها إلا بترخيص من الخان(٢).

وعلى الرغم من أن غارات المغول كانت مصيبة كبرى أصابت صميم الحياة، وأنها جنت على العلوم والمعارف وخاصة الحضارة العربية التي استطاعت أن تحتفظ بكيانها سليمًا في إيران طوال القرن الستة التي تلت الفتح العربي لهذه البلاد، فإن هذه الغارة كانت مجلبة لبعض عناصر الخير برغم ما عرف عنها من شدة وغلظة، وربما كان من بعض فضائلها ما يأتي:

١) لقد كان الغزو المغولى سببًا في المزج بين الشعوب المختلفة المتباعدة، والربط بين العلماء الفضلاء من الصينيين والأيغوريين والبوذيين والإيرانيين والعرب والفرنج، واختلاط المعلومات والأفكار، الأمر الذي أدى إلى تجديد العقليات التي طال ركودها وخمودها(٣).

---

(1) Cam. Med. Hist., vol. 7, P. 621.

(٢)سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، جـ١، ص ٦٣٦.

(٣)فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٢٦.

٢) إن المغول لم يغيروا الطابع العام للبلاد، ويتضح ذلك من أنهم لم يظهروا ميلاً للتدخل في التنظيم السياسي للإمارات الروسية، وكل ما حدث أن روسيا صارت جزءًا من القبيلة الذهبية، وسمح المغول للأمراء الروس أن يحتفظوا بأملاكهم شرط أن يؤدوا عنها جزية وأن يجددوا الولاء بين الحين والآخر(١).

٣) تأمين الطرق وإزالة العوائق التي كانت تحول دون تبادل التجارة بين أسيا الشرقية والغربية من جهة، وبين أسيا وأوروبا من جهة أخرى، حتى شاعت الأمثال في روسيا: "إن الصبية الصغيرة بمفردها يمكن أن تحمل كيسًا من الذهب بأمان من نهر دون إلى كامبولاك " مدينة الخانات(٢).

٤) إحكام الروابط السياسية بين أسيا وأوربا وتبادل السفراء بين خانات المغول وسلاطين وملوك أوروبا المسيحية، وبهذا أمكن تحطيم الحدود والحواجز بين مختلف الأقاليم والممالك في هاتين القارتين، فأتاحت الفرصة لبعض الرحالة الأوربيين من أمثال ماركوبولو وغيره أن يجوبوا الأقطار النائية من أسيا وأن يحدثوا بالعجائب التي لم يكن من المستطاع الوصول إليها لشده المحافظة عليها(٣).

٥) ونتيجة للأمن والاستقرار اللذين سادا أقاليم روسيا في عهد خانات القبيلة الذهبية، فقد قامت علاقات دبلوماسية وتجارية بين روسيا وبين بلاد عديدة، وجرت الاتفاقات التجارية المتبادلة، الأمر الذي ساعد التجار على نقل مختلف سلعهم بسهولة ويسر(٤).

---

(1) Spector, op. cit., PP. 26 – 27.

(٢) هارولد لام : جحافل المغول، ص ١٤٩، فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٣) فؤاد عبد المعطي الصياد : المغول في التاريخ، ص ٢٢٦.

(4) Spector, op. cit., PP. 26 – 27.

٦) وقد ساعد الغزو المغولى لروسيا على قطع الروابط الثقافية والسياسية مع الإمبراطورية البيزنطية من ناحية، ومع عالم غرب أوروبا والبحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى، وبذلك انقطعت صلة روسيا بالحضارة الأوروبية، فعندما أصبحت روسيا تابعة لدولة آسيوية، فقد وجدت نفسها فجأة مرتبطة بقارة أسيا، ونتيجة لذلك ساهمت روسيا في تجارة القوافل، حيث تشق طريقها بين الدنيبر وحدود الهند والصين، ومن هنا تكيف الأمراء وكبار ملاك الأراضي الروس مع التتار، فتبنوا كثيرًا من عاداتهم الاجتماعية، وطرق معيشتهم، وأساليبهم في الملبس، ونظمهم المالية والإدارية والحربية، وكذلك تسربت بعض الكلمات المغولية إلى اللغة الفارسية(١).

٧) وقد أثر المغول في الروس، حيث تزوج كثير من الروس من مغوليات، ولربما دخلت بعض ملامح الوجوه، والأخلاق المغولية في السلالات الروسية، وأخذ بعض الروس عن المغول أساليبهم في التحدث والملبس، وأصبحت روسيا تابعة لدولة آسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة الأوروبية(٢).

٨) كان تأثير المغول في أوروبا واضحًا، فقد كان سببًا هامًا، بل من أهم الأسباب في حركة النهضة، فهي التي دفعت بالأتراك العثمانيين من مجاهل خرسان إلى أبواب القسطنطينية، فكانت بذلك السبب المباشر والأخير في تحطيم الإمبراطورية البيزنطية، وما نتج عن ذلك من انتشار اليونانيات وكنوزهم العلمية في مختلف البلاد الأوروبية(٣).

---

(١)محمود الحويري : العلاقات المبكرة بين أوريا والمغول، ص ٣٠.
(٢)ول ديورانت : قصة الحضارة، جـ ٤، م ٤، ص ١٥٩.
(٣)فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص ٢٢٦ – ٢٢٧.

٩) وعلى الرغم من قسوة المغول ووحشيتهم، فإنهم كانوا متسامحين إلى حد كبير مع الكنيسة حتى ازدادت نفوذها وثروتها، فقد تركوا للشعوب التي خضعت لهم حرية العبادة، ولم يحاولوا التدخل في شئون الكنيسة الروسية، وإنما أباحوا لها حرية التصرف ومباشرة حقوقها القضائية وغير القضائية على أوسع مدى، ومن ذلك أن أوزبك خان ثبت بطرس رئيس أساقفة موسكو ومنحه جميع الامتيازات التي تتمتع بها الكنيسة وضمن له حماية ممتلكاتها.

وهكذا ظلت الكنيسة الروسية مرفوعة الرأس تباشر حقوقها في حرية تامة وتجمع الأموال والأراضي وغيرها مما يجود به الخيرون من أبناء البلاد، في الوقت الذي خضع أمراء روسيا لساداتهم المغول وتضاءل نفوذهم السياسي تبعًا لذلك(١).

١٠) انتشار اللغة الفارسية في ممالك أسيا الشرقية، وامتداد نفوذ الوزراء والمستشارين الإيرانيين في الممالك غير الإسلامية الواقعة تحت سيطرة المغول، وتدخلهم في الإدارات الصينية وانتشار الدين الإسلامي في هذه الممالك(٢).

ولقد بقي الشعب الروسي يرزح تحت نير الخانات المغول ما يقرب من ثلاثمائة عام، حيث اضطر الروس أن يعيشوا تلك المدة الطويلة تحت حكم هؤلاء التتار، فقد اختلف الروس في تلك الأيام عن أجدادنا في أقصى الغرب اختلافًا واضحًا.

وكما فعل جنكيز خان في الشرق من قبل، جمع باتوخان ثروة من الغرب، ونقلها إلى شواطئ نهر الفولجا، وأصبح شعبه معروفًا باسم القبائل الذهبية، وقد أزيلت جميع حدود العالم الشرقي التي كانت موجودة قبل جنكيز خان إلى درجة أننا لا نستطيع أن نعرف ما الذي

---

(١)سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق، ص ٦٣٨ – ٦٣٩.
(٢)فؤاد عبد المعطي الصياد : المرجع السابق، ص ٢٢٧.

كان يمكن أن يكون من أمر روسيا، أو يصبح من أمر الصين أو الذي كان يمكن أن تقوم به أو تصل إليه الممالك الإسلامية الجميلة، لو لم يظهر المغول وتحدث غزوات المغول(١)، ومع هذا فيجب ألا ننسى أن جنكيز خان هو الذي قضى على حواجز العصور المظلمة، ووصل بين أقاصي أسيا وأوربا المسيحية(٢)٠

والحقيقة أن الانتصارات التي قام بها جنكيز خان غير مسبوقة، فلم يحدث أن قام رجل بتغيير وجهة التاريخ في العالم أثناء حياته مثل الذي أحدثه جنكيز خان، باستثناء الإسكندر الأكبر المقدوني الذي جاء قبل جنكيز خان بوقت طويل٠ وكانت أوامره نافذة حتى بعد وفاته، وكأنه لا يزال يجلس على العرش المرتفع في مجلس الخانات الخاص بالمغول، ونفذ الجيل الذي بعده كل ما سطر في قانونه(٣)٠

وهكذا نرى أن انتصارات جنكيز خان لم تكن تحتاج إلى مخطط حربي استراتيجي من الدرجة الأولي، وأن الذي كان يفتح أمامه أبواب النصر دائمًا هي الهزيمة النفسية لأعدائه من القادة والملوك، فأعدوا بها شعوبهم من الخوف والرعب، فانهارت المعنويات وتم الاستسلام٠ كما لا تحتاج هذه الانتصارات إلى رجل سياسة موهوب استطاع أن يقيم التحالفات ويجمع المعلومات المتقدمة٠

على أننا لا ندر السر في هذه الغيرة الأمريكية المفاجئة على سمعة جنكيز خان، وما الذي أدي إلى الإشادة بالثقافة والإرث الفني الكبير للحضارة المغولية؟! (١)، على الرغم ما ذكره الشاعر الروسي المعروف "بوشكين" عندما وجه اتهامه الشهير ضد المغول بقوله: "لم

(١) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، ص ١٤٨٠
(٢) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، ص ١٥٦٠
(٣) هارولد لام : جنكيز خان وجحافل المغول، ص ١٤٧٠
(٤) حسن الأمين : الإسماعيليون والمغول ونصر الدين الطوسي، بيروت، ط١، ١٩٩٧، صـ ٨٤٠

يكن التتار مثل المسلمين في شيء، فبعد أن غزا التتار روسيا لم يعرفوها بالجبر وأرسطو"(١)، وهو يعني أن المغول على العكس من المسلمين بعيدين عن الحضارة، وكل ما فعلوه في روسيا أنهم بذروا الحطام والدمار في أراضيها، وحولوها إلى ضرائب على حين أن المسلمين أطلوا على العالم بحضارة زاهرة ومشرقة.

□ □ □

---

(5) Portal, op. cit., 52.

المصادر والمراجع

المصادر العربية :

١- **ابن الأثير :**
الكامل في التاريخ، من ٥٦٢ – ٨٢٨ هـ، راجعة د/ محمد يوسف الدقاق،م١٠، بيروت، لبنان، ط٣، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٢- **ابن العبري :**
تاريخ مختصر الدول – تصحيح الأب أنطون صالحاني السيوعي، بيروت ١٩٨٣.

٣- **ابن العماد الحنبلي :**
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ أجزاء .

٤- **أبوالمحاسن :**
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٣م .

٥- **المسعودي :**
مروج الذهب ومعادن الجوهر دار الكتب اللبنانية، ١٩٨٣.

٦- **المقريزي(الدين أحمد بن على) :**
السلوك لمعرفة دول الملوك نشر زيادة ١٩٣٤ – ١٩٣٩م.

٧- **القلقشندي(أبو الحسن أبو العباس أحمد) :**
صبح الأعشي في صناعة الإنشاء، مصر ١٩١٤ – ١٩١٥م.

٨- **جوانفيل :**
القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشي ط١، دار المعارف، ١٩٦٨م.

٩- **رشيد الدين الهمذاني :**
(فضل الله بن عماد الدولة أبوالخير بن موفق الدولة) دار إحياء الكتب القديمة، عيسي البابى وشركاه ١٩٦٠م.

المصادر والمراجع المعربة والمصرية :

١- **إبرار كريم الله :**
من هم التتار، ترجمة د/ رشيدة رحيم الصبروتي، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
٢- **إبراهيم أحمد العدوي :**
العرب والتتار، دار القلم، القاهرة ١٩٦٠م.
٣- **أحمد أمين :**
فجر الإسلام، ط١، القاهرة، ١٩٣٣م.
٤- **أحمد محمود الساداتي :**
الدول الإسلامية بأسيا وحضاراتها، ط١، القاهرة، ١٩٧٩م.
٥- **الكسييف كارتسوف :**
موجز تاريخ الاتحاد السوفيتي، ترجمة محمد الجندي، دار التقدم موسكو، ١٩٧٤.
٦- **السيد الباز العريني :**
المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م
٧- **أرنولد توينبى :**
الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، القاهرة، ١٩٤٧م.
٨- **بارتولد :**
تاريخ الترك في أسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨م.

٩- **بارتولد :**
تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم الكويت، ١٩٨١م.
١٠- **بروكلمان :**
تاريخ الشعوب العربية، نقله للعربية أمين ومنير البعلبكي، بيروت، ١٩٤٩م.
١١- **حسن إبراهيم حسن :**
التاريخ السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، النهضة العربية، ١٩٨٢.
١٢- **حسن الأمين :**
الإسماعيليون والمغول ونصر الدين بن الطوسي، بيروت، ط١، ١٩٩٧ م.
١٣- **حسن ربيع :**
دراسات في تاريخ بيزنطة، القاهرة، ١٩٨٣.
١٤- **رالف لنتون :**
شجرة الحضارة، ترجمة أحمد فخري، جـ٢، ط١، القاهرة.
١٥- **سعيد عبد الفتاح عاشور :**
أوروبا في العصور الوسطى، التاريخ السياسي جـ١، ط٧، الأنجلو المصرية ، ١٩٩٤م.
١٦- **عبد السلام فهمي :**
تاريخ الدولة المغولية في إيران، والمعارف، القاهرة، ١٩٨١م.
١٧- **على حسن الخربوطلي :**
ابن المغول واليهود، القاهرة، ١٩٦٩م.
١٨- **فشر(هـ. أ.ل) :**
تاريخ العصور الوسطي، ترجمة محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني، القسم الثاني، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٩- **فؤاد عبد المعطي الصياد :**
المغول في التاريخ، القاهرة، ١٩٦٠.
٢٠- **محمد عبد الحميد راغب :**
جنكيز خان وتأسيس دولة المغول، القاهرة، ١٩٩٩م.
٢١- **محمد محمد مرسي الشيخ :**
أوروبا والتتار، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.
٢٢- **محمد مصطفى زيادة :**
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، القاهرة، ١٩٥٧م.
٢٣- **محمود الحويري :**
العلاقات المبكرة بين أوروبا والمغول، ١٢٢١-١٢٥٥م، ط١، ١٩٨٦م.
٢٤- **مصطفى طه بدر :**
محنة الإسلام الكبرى: ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
٢٥- **نعمان الطيب سليمان :**
المغول وغزواتهم في بلاد المسلمين، ط، القاهرة، ١٩٨٨م.
٢٦- **نورمان كانتور :**
التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، جـ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، ١٩٩٧.
٢٧- **هارولد لامب :**
جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، ترجمة بهاء الدين نوري، بغداد، ١٩٤٦م.
٢٨- **هارولد لام :**
جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة ذكي نجيب محمود، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢.

٢٩- ول ديورانت :
قصة الحضارة، عصر الأيمان، ترجمة محمد بدران، جـ٤، م٤، بيروت.
٣٠- يوشع براور :
عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، ط١، عين للدراسات الإنسانية، ١٩٩٩م.

المصادر والمراجع الأجنبية :

1- Boswell. A, Territial Divison and The Monglos invasions, 12.2 –13..، vol. 1, Cambridge, 1953.
- Poland, 1.5. – 13.3, in Cambridege, vol, VI, Cambridge, 1957.
2- Brawdin, The Mongol Empireits rise and Legacy، London, 1941.
3- Bretachneider, Medieval researches from Eastern Asiatic source, London, 1910.
4- Cam. Med. Hist., 5 vols.
5- Chambers, J., The Mongol Invasion of Europe, London, 1979.
6- Chambers, J., The Devil's Horsemeni the Mongol Invasion of Europe, London, 1979.
7- Charles William, western Views of The Tartars 124. – 134., The state university of rutgers, 1969.
8- Chronicle of Novogrod, 1.16 – 1471, Tras by Robert Michell, 3 series, vol, xxv، London, 1914.

9- Connell, western views of Tartars, 124. – 134., the state univers- ity of rutgers, 1969.
10- Diens, M., " Eastern Missions" ، vol. 27, London, 1937.
11- D'ohsson, Historie des Mongols, 2vols, Amsterdam, 1834 –1835.
12- Grousset, L'mpire des steppes, paris, 1948.
13- Howorth, Hist of The Mongols, London, 1976 – 1888.
14- Hulme, The Middle Ages, New york, 1929.
15- Iwamura, The Mongol Invasion of Poland in the Thirteenth century, London, 1979.
16- John of Plano Carpini, History of The Mongols, Ed. M Christopher Dawson, New york, 1955.
17- Matthew paris, English Hist.,(vol 1 1235 – 44/ vol 2 1244 – 1252 / vol 3 1252 –1273).
18- Morgan, the Mongols,(Paris, 1985).
19- Moss, The Birth of The Middle Ages, 395 – 814، London, 1937.
20- Orton, The shorter Cambridge Medieval History, vol. 11, Cambridge, 1979.
21- Ostrogorski, History of The Byzantine state, Oxford, 1956.
22- Painter, AHist. of Middle ages, New york, 1954.
23- Pomleny ; A Hist. of Hungary, Hungary, 1973.

24- Portal, R., The Slavs Acultural survey of The siavonic Peoples, 1973.
25- Saunders, " Matthew paris and Mongols " in Essays Medieval History" ، 1969.
26- Saunders, The Hist., of Mongol Conquest, 1971.
27- Scott, Medieval Europe, London, 1980.
28- Setton, Hist., Of Crusades, Vol. 11, London, 1958.
29- Sinor, The Hist., of Hungry, London, 1926.
30- Spector, An Introduction To Russian Hist. And culture, 1905.
31- Tacitus, Germania Trans by. H. Mattingly, penguin. 1970.
32- Tompson, The Middle Ages, 300 –1500, London, 1931.
33- Vernadsky, The Mongols and Russia, New Haven university, press, 1953.

الفهرس

هذا الكتاب

المغول من الشعوب التي لعبت دورًا هامًا في التاريخ، ومن الغزاة الذين روعوا وسط أسيا والشرق الأدنى وشرق أوربا في العصور الوسطى ، ولقد نشأ المغول في هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي، وهى صحراء فقراء مناخها قارى. وتكونت قبائل التتار من تسع وثلاثين قبيلة، وأتخذ المغول اسم التتار خاصة في فتره الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي

واستطاع القائد تيموجين الذي عرف فيما بعد بجنكيرخان أحد قادة هذه القبائل الرعوية بما وهبته حياة الصحراء من قسوة وفراسة أن يوحد قبائل أقاليم أسيا الشرقية شمال بلاد الصين تحت لوائه مستعيناً بقبيلة ضد أخرى، ومتحالف مع القوى ضد الضعيف، حتى اختير ملكاً سنه ١٢٠٦م تحت اسم جنكيز خان. وبدأ يوجه أنظاره إلى المناطق الخارجة عن نطاق المغول مستغلاً عوامل الضعف والانحلال التي كانت عليها الأقاليم الخصبة الغنية المجاورة له.

وباعتلاء أوكتاى عرش الإمبراطورية المغولية سنه ١٢٢٩م بدأت التوسعات المغولية بشكل كبير علي حساب القوى الإسلامية والمسيحية، ففي الفترة من سنة ١٢٣٦ حتى سنة ١٢٤٠ أجتاح المغول كل الإمارات الروسية وأحرقوا ودمروا عدة مدن هامة مثل ريازان سنة ١٢٣٧م، وموسكو سنة ١٢٣٨م، وفلاديمير وكوزلسك وسوزدال ودميتروف ونوفوجارد ومدينه كييف الحصينة في سنة ١٢٤٠م. ويرجع سبب سرعة استيلاء المغول على هذه الإمارات الروسية هو تفكك الإمارات، وقوه المغول الحربية التي كان لها الدور الحاسم في تحقيق الانتصارات بهذه السرعة.



